

مؤرخوا الحروب الصليبية

تأليف

الدكتور السيد البارز العويني

كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٦٢

مكتبة المطبع والنشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبدالحال الزوت بالقاهرة

PC



مؤرخوا الحروب الصليبية

تأليف

الدكتور السيد الباز العزبي

كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٦٢

مكتبة المطبع والنشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبدالحال ثروت بالقاهرة

مطبعة مجتعة البيان العربي
۷۷ الجامع الاسلامي سے بالمطبعة
۷۹-۷۷

تصدير

تناول هذا الكتاب دراسة موضوعين ، الموضوع الأول يتعلق بالمؤرخين الغربيين (المسيحيين) ، والموضوع الثاني يرتبط بالمؤرخين المسلمين .

فالمعروف أن الحروب الصليبية تعتبر من أكبر الثورات ، التي وقعت في التاريخ . وفي أثناء أحداثها ، وقع تغيير شامل في أحوال الأمم ، التي اشتركت فيها . وكل من تصدى لدراستها ، وجد من أحداثها دائماً من المادة ما يشبع هواه وميله .

وتردد وصف هذه الحروب في مؤلفات عديدة شهيرة . على أنه توافر لتاريخ الحرب الصليبية الأولى من المادة ، ما لم يتوافر لسائر الحملات . غير أننا نلمس اختلافاً كبيراً في طبيعة مؤلفي هذه الحرب ، ومواهبهم ، إذ افتقدوا ذلك التفكير المجرد من العاطفة ، الذي يصدر عنه التاريخ السليم ، فالتحيز الشخصي يفسد دائماً حقائق الأحداث المعاصرة . ولذا لا بد من الحرص على اتخاذ أساس سليم ، يجرى عنده تسوية كل ما كان من هؤلاء المؤرخين من المتناقضات .

والواضح أن معظم المؤلفين ، كانوا إما من رجال الدين في القرن الثاني عشر ، أو من الفرسان في القرن الثالث عشر . وما يتعلق بالحرب الصليبية الأولى من المصادر ، التي توافر شطراً من القسم الأول من هذا الكتاب ، جرى تأليفه باللغة اللاتينية ، على حين أن ما صدر في القرن الثالث عشر ، إنما كتب باللغة الفرنسية . وفي هذا القسم من الكتاب . أمثلة من المؤرخين في هذين القرنين .

ولما كانت الحروب الصليبية حركة شغلت كل أوروبا ، وامتدت إلى الشرق ، تحتم ألا تقتصر دراستها على المصادر الأوروبية ، بل ينبغي التماسها

أيضاً عند الكتاب البيزنطيين والأرمن والمسلمين ، حتى يجرى الإمام بوجهات النظر المختلفة .

إذا عالج القسم الثاني من الكتاب ، دراسة المؤرخين الذين عاصروا صلاح الدين ، وشاركوا في الأحداث التي وقعت في الشرق الأدنى وقتذاك . والواضح أن المؤرخين المسلمين لم يحفلوا إلا قليلاً بالحرب الصليبية الأولى . ولم تبدأ أهمية المصادر العربية وقيمتها إلا منذ ظهور الأتابكة في الموصل ، لما كان لهم من دور كبير في الجهاد ضد الصليبيين^(١) .

على أن أهم ما جرى التركيز عليه ، في هذا الكتاب ، من جانب المؤرخين المسلمين ، ما تعلق بصلاح الدين ، نظراً لما قام به من دور كبير في الجهاد الديني ، والقضاء على القوة الصليبية ، ولما وضعه من قواعد في قتال الفرنج ، انتهجها من جاء بعده من السلاطين الأيوبيين والمماليك .

وتناول هذا القسم دراسة المؤرخين الذين عاصروا صلاح الدين واتصلوا به ، أو دخلوا في خدمته ، ووقفوا على ما جرى من الأحداث الحربية والسياسية في زمنه .

ولا يسعني ، قبل أن اختتم هذا التصدير ، إلا أن أزجي الشكر خالصاً إلى صديقي الأستاذ حسين محمد ربيع ، لما قام به من جهد صادق في إعداد هذا الكتاب للطبع .

والله ولي التوفيق ؟

السيد الباز العربي

مايو ١٩٦٢
القاهرة ذو القعدة ١٣٨١

(١) ومن الملاحظ أن كتاب كمال الدين ابن العديم ، المعروف باسم بغية الطلب في تاريخ حلب ، الذي تم تأليفه في القرن الثالث عشر ، اشتمل على بعض التفاصيل التي تتعلق بالحلة الصليبية الأولى .

انظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٥١ .

مقدمة

اختلف الكتاب المحدثون في نظرهم إلى الحروب الصليبية ، إذ رأى فيها الباحثون المتحمسون « أول محاولة كبيرة ، سلكتها الحياة في العصور الوسطى ، لتخرج بها عما درجت عليه وألفته من الأطماع والأغراض الذاتية ؛ فتعتبر بذلك تجربة للعالم الناشئ ، حين حاول أن يستخدم أسلحة الفروسية ، في سبيل مجد الله ، ومن أجل مصلحة الكثيرين » . أما المؤرخ جيبون Gibbon ، فرأى في الحروب الصليبية ، موكباً حزيناً ، سار فيه مئات الألوف من البشر ، ولقوا حتفهم بسبب ما غلب عليهم من روح التعصب والكراهية ^(١) .

ومهما اختلفت الآراء في الغرض من الحروب الصليبية وفي وسائلها ، فلا شك أن للحركة الصليبية أهمية كبيرة ، باعتبارها مرحلة من مراحل المدنية الأوروبية ^(٢) . فما غلب على الحياة في القرن الحادى عشر من صفة محلية قوية ، ضاق فيها أفق تفكير الناس ، لم تلبث أن تعرضت هذه المحلية للتداعى والانهايار . فعلى الرغم من أن كل الذين اشتركوا في الحرب الصليبية ، لم يبلغوا بأسرهم الأراضى المقدسة ، فانهم شهدوا لأول مرة مدناً وأناساً يختلفون عنهم ، فلما عادوا إلى بلادهم ، جلبوا معهم من الخبرة ما يزيد على ما كان لديهم من قبل . أما أولئك الذين نجحوا فى التغلب على كل ما صادفهم من العقبات ، فى سبيل الاستيلاء على الأراضى المقدسة ، فقد توافر لديهم من الأمور الغربية المثيرة ما يكفى لروايتها .

والمعروف أن هذا الطريق سلكه قبل الحرب الصليبية الأولى ، الحجاج أفراداً وجماعات ، غير أنهم كانوا من القلة ما جعل تجارهم لا تتجاوز حدود أوطانهم ، ولم يتركوا إلا آثاراً ضئيلة .

واجتمع بالخملة الصليبية الأولى ، أناس من كافة الطبقات من الذكور
والإناث ، ومن كل الأعمار ، جرى تجنيدهم من سائر أنحاء أوروبا المسيحية .
وبينا أقدمت الجماعات الأولى على المسير ، تتلوا الواحدة منها الأخرى ،
تهيات جماعات أخرى للمضى في إثرها ، ومن ثم ازدحم طريق الحجاج
بالصليبيين ، بعضهم يسرع الخطى نحو الشرق ، ويتخذ البعض طريق العودة
إلى بلادهم .

على أن الحركة لم تتوقف بالاستيلاء على بيت المقدس ، إذ ظل الصليبيون ،
طوال السنوات العشر التي أعقبت خطاب إيربان الثاني ، يهرعون صوب
الشرق ، ملبين دعوته للقتال . على حين أن ما حدث فعلا من الاستيلاء على
الأماكن المقدسة ، أدى إلى نشاط الحج ، ووفرة قدوم الحجاج من الغرب
إلى الشرق .

وإلى جانب الحجاج والصليبيين ، قدم أيضاً التجار والرسل (القصاد) ،
والشعراء والمغامرون . ومن ثم أصبح السفر والرحيل ، وما يرتبط به من
خير أو شر ، أمراً مألوفاً في أنحاء أوروبا وما ترتب على ذلك من تبادل الأفكار
والسلع فاق كل حصر وتقدير ، وظهرت أهمية ذلك فيما تلى ذلك من التقدم
السريع الذي بلغته أوروبا فيما يعرف بنهضة القرن الثاني عشر .

فإذا تركنا الحرب الصليبية ذاتها جانبا ، كان لما خلفه شهود العيان من
تواريخ عن هذه الحروب أهمية كبيرة عند دارس التاريخ . إذ تعتبر أول
وصف شامل للمجتمع الأوربي منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب .
فن العسير أن نعثر في الفترة الواقعة بين القرن الخامس ، والقرن الثاني عشر ،
على كتابات تصف الحياة المعاصرة ، والمجتمع المعاصر ، وقتذاك باستثناء
كتاب اينهارت عن حياة شارلمان .

فإذا كان كتاب جرمانيا الذي ألفه تاكيتوس ، أقر بالمدينة الجرمانية
واعترف بها ، واستمرت الإفادة منه إلى القرن الثاني الميلادي ، وإلى ما بعده
أيضاً ، فإن كتاب اينهارت عن شارلمان ، جرت الإفادة منه ، في تقدير

البطولة والابطال، في القرنين الثامن والتاسع . أما القرنان العاشر والحادي عشر، فأطلق عليهما العصور المظلمة لافتقارهما لأمثال تاكيتوس واينهارت من الكتّاب . على أن هذا الظلام لم يلبث أن تبدد في نهاية القرن الحادي عشر ، والفضل في ذلك يرجع إلى تواريخ الحرب الصليبية الأولى ، فضلا عن كثرة الكتابات . وما غلب على الحروب الصليبية من الصفة الدينية ، جذب اهتمام الكتّاب من رجال الدين ، الذين يعتبرون وحدهم كتاب ذلك العصر . فكل ما قام به القادة من أعمال في سفرهم ورحيلهم ، أيا كانت صغيرة أو كبيرة ، تاهة أو هامة ، كان جديراً عندهم بالتسجيل والتخليد ، كما يطلع عليها الأجيال التالية .

والمعروف أنه لم يشترك شخصياً في الحرب الصليبية الأولى الأباطرة والملوك، والبابا ورئيس الأساقفة ؛ أى أن هذا الجانب من المجتمع لم يكن ممثلاً وحاضراً ، ولذا لم يلق إلا اهتماماً ضئيلاً في الحوليات والتواريخ ، بينما ازداد الاهتمام بصغار النبلاء والفرسان والرجالة . ولذا تعرض هذه التواريخ صورة للمجتمع ، انطوت على رسم تفصيلي للعلاقات القائمة بين سائر الطبقات، العلمانيين والكهنسيين من الرجال والنساء .

وعلى الرغم من أن الأحوال العادية لم تحظ إلا بقدر ضئيل من الاهتمام في بعض الأحوال ، فإن الأمور الهامة طالما تردد ذكرها ، ومن اليسير أن نستنبط من ثنايا الكتابة عنها ، ما يتعلق بالأمور العادية . فما جرى من الأسباب في وصف نواحي نشاط المجتمع العديدة ، لم يقتصر على كشف حضارة العصر ، بل تعداها إلى وصف الفترتين السابقتين للحرب الصليبية واللاحقة لها . والخلاصة أن دراسة تواريخ الحرب الصليبية الأولى ، تعتبر خير تجربة وتمهيد عند كبار المؤرخين ، لدراسة التاريخ الأوربي .

وعلى الرغم من أن القيمة الأدبية لهذه الكتابات لم تكن ذات قيمة مباشرة ، إلا أنها هيأت مادة لاتنفذ للمصادر ، كما تعتبر هذه الكتابات

نماذج لكتابات ذلك العصر ، وهذا هو السر في أهميتها من الناحية الأوربية^(٣) .

المصادر

ولمعالجة مصادر الحروب الصليبية ، يحسن أن نبدأ بالتواريخ والحوليات والقصص ، ثم يلي ذلك الوثائق ، على الرغم من أن ذلك لا يعتبر أمثل الطرق وخيرها من الناحية العلمية . فمن نتائج الحروب الصليبية ، ما أدى إلى الاهتمام الشديد بكتابة التاريخ ، فالمحاربون الصليبيون خلفوا لنا مذكرات يومية ، أو سجلوا وصف الطرق التي سلكوها Itineraria . كما أن رجال الكنيسة ومنهم هبان ورؤساء أديرة ، ورؤساء أساقفة وجدوا في تاريخ الحرب الصليبية موضوعاً مفيداً لأقلامهم . فتاريخ طائفة من الأعمال كالحروب الصليبية، ينبغي أن يعتمد أساساً على هذه التواريخ ، وعلى الأخص على النوع الأول منها ، فالقصص ينبغي أن تسبق الوثائق ، حيث لا تجرى معالجة الحياة المستمرة لنظام ثابت ، إنما تجرى معالجة طائفة من المغامرات ، لا سيما حين أبداع الكتاب المعاصرون في وصف ما شاهدوه^(٤) .

وجرى جمع المصادر الأصلية في الحروب الصليبية في المؤلفات الآتية : -

أولاً : بحجة مؤرخي الحروب الصليبية

Recueil des Historiens des Croissades.

(٣) * من هذا الكتابات رسائل ، أمثال رسائل ستيفن بلوا وانسلم ريمونت ، صار لها من الجاذبية والسحر ، ما يؤهلها لتقدير بالغ السمو . إذ أخذ الكتاب يتطلعون إلى آفاق واسعة عند الإشارة الى موضع من المواضع . فمن العسير أن نجد في مصدر من المصادر من الوصف الذي يصور اليأس العميق ، مثلما نجده عند المؤرخ المجهول في كتاب أعمال الفرنجة ، وذلك حين روى كيف تلقى الكسيوس وجيشه خبر الكارثة التي حلت بالصليبيين في أنطاكية (Krey : Op. Cit, P.3)

وتشمل ما يأتي : -

١ - المؤرخين الغربيين (أى ما كتبه المؤرخون الغربيون عن الحروب الصليبية) وتقع كتاباتهم في ٥ أجزاء .

٢ - المؤرخين الشرقيين (العرب) ، وتقع كتاباتهم في ٥ أجزاء .

٣ - المؤرخين الأرمين ، وتقع كتاباتهم في جزئين .

٤ - المؤرخين اليونانيين ، وتقع كتاباتهم في جزئين .

٥ - قوائين مملكة بيت المقدس ، وتقع في جزئين .

على أن قيمة هذه المجموعة ، لم تضارع لسوء الحظ ، ما اتصفت به من الضخامة والأناقة ؛ فبالإضافة إلى ما حفلت به من الفجوات ، لم يحفل مصنفوها بالدقة اللازمة لاختيار المؤلفات والمخطوطات ، فضلا عن انعدام الطريقة السليمة عند اختيار الفقرات المتعلقة بالحروب الصليبية ، والإهمال المطلق في ترجمة النصوص ، وضآلة التعليقات (٥)* .

ثانياً : مجموعة بونجارس المعروفة باسم

Bongars : Gesta Dei per Francos (Hannover)

وهي غير كاملة .

(٥) ° أشرف على نشر هذه المجموعة L, Academie des Inscriptioⁿ et Belles Lettres (1841 - 1906) .

ويعاد الآن نشرها في صورة جديدة ، ولاشك أن هذه المجموعة فاقت ماسبق

أن نشره بونجارس عن الحروب الصليبية بعنوان :

Bongars, J : Gesta Dei per Francos sive Orientalium expeditionum et regni Francorum Hierosolimitani historia. Vols. 1,2. Hennover. 1611.

(أنظر أيضا)

Dehérain, H: Les Origines du Recueil des Historiens des Croissades. Journal des Savants Sep-Oct. 1919. PP. 260-266.

ثالثاً : Michaud : Bibliothèque des Croissades. 2e ed .

4 vols . Paris 1829 — 1830 .

وتتضمن ترجمة لفقرات من مصادر الحروب الصليبية .

رابعاً : منشورات جمعية الشرق اللاتيني Société de l'Orient Latin وهذه الجمعية انشأها في سنة ١٨٧٥ ، الكونت ريان Riant ، وتولت نشر كثير من المصادر الأصلية عن الحروب الصليبية ، وذلك في السلسلة الجغرافية ، وفي السلسلة التاريخية ، وأورد محتوياتهما Potthast : Wegweiser I, CXXIII (٦) أما محفوظاتها ، فصدر عنها مجلدان ، الأول سنة ١٨٨١ ، والثاني سنة ١٨٨٤ . وما صدر سنويا عن مجلة الجمعية Revue de l'Orient Latin من المؤلفات منذ سنة ١٨٩١ حتى سنة ١٩١١ ، لم تشتمل فحسب على نصوص جديدة ، بل حوت أيضاً مقالات وعرضاً لبعض الكتب كبير الأهمية (٧) .

وقد توافر لدينا من المصادر الأدبية والقصصية ، عدد كبير من المصادر الأصلية التي كانت قريبة العهد بما جرى من الأحداث ، ويصح تقسيمها إلى ثلاث مجموعات : ما يتعلق منها بالحروب الصليبية (لا سيما الحرب الأولى ، والحرب الثالثة) ، وجرى تأليفها في الشرق ، باللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ، وباللغة الفرنسية في القرن الثالث عشر ، وتكاد تقتصر في هدفها على الشرق . يضاف إليها التواريخ العامة عن الغرب ، التي لم يحتل منها الشرق إلا شطراً صغيراً أو كبيراً وفقاً للأحوال . ولهذا التواريخ العامة أحياناً من الأهمية ما يزيد على ما كنا نتوقع ، وذلك لما احتوته من مراسلات ، ولكثرة ما ورد عند كتاب الفرنج عن الشرق من الفجوات ، فلم يعلم منهم مثلاً ، تمام العلم بأحوال شمال الشام إلا وليم الصوري ، الذي عاش بفلسطين ، وذلك في الفترة بين ١١٢٧ ، ١١٨٤ .

أما مصادر الفرنج عن الشرق فتكاد تكون كلها تواريخ : إذ لم تظهر الحوليات إلا في القرن الثالث عشر ، ولم تكن كبيرة الأهمية . وكل

المؤلفين يكاد أن يكونوا من رجال الدين في القرن الثاني عشر ، ومن
الفرسان في القرن الثالث عشر (٨) .

على أن الحروب الصليبية ، وهى حركة شغلت كل أوروبا ، وجعلت
الغرب يتصل بالشرق ، ينبغى ألا تدرس فحسب في المصادر اللاتينية
في أوروبا وفلسطين ، بل ينبغى أيضاً دراستها عند الكتاب البيزنطيين والأرمن
والمسلمين، حتى يجرى الإلمام بوجهات النظر المختلفة (٩) .

مصادر الحرب الصليبية الأولى :

ما ارتبط بتاريخ الحرب الصليبية الأولى من مصادر ، تفوق في
وفرتها مصادر أى حدث من أحداث التاريخ أوائل العصور الوسطى .
إذ اشتملت هذه المصادر على تقارير رسمية ، وعلى ما كان من المراسلات الشخصية
بين الحجاج وأصدقائهم في أوطانهم بأوروبا ، وعلى ما دونه من التواريخ من
شهدوا القتال. وكل هذه الكتابات ، توسع فيها كتاب غرب أوروبا ، الذين
لم يشهدوا الحروب بأنفسهم ، بل استقوا معلوماتهم من الذين شهدوها.
وحدث آخر الأمر ، بعد مضي ثمانين سنة على الحرب الصليبية الأولى ،
أن جمع هذه الوثائق مؤرخ (وليم الصورى) ، يعتبر خير من يقوم
بهذا العمل . فالمفروض أن هذه المادة بفضل وفرتها ، تهيء في كل الأزمنة ،
التقدير السليم لما وقع من الأحداث . والواقع أن كل من يقف على كل
هذه القصص والسير ، ليدش لما تنبض به من حياة ، وليأمل أن ينال
من ثنايا هذه المواد الإدراك السليم والدراية التامة بما تنطوى عليه
من الحقيقة والصدق (١٠) .

على أن اختلاف هذه المواد وتنوعها ، تطلب الاتزان والتأني في
الاختيار والترتيب ؛ إذ أن مجرد دراسة سطحية لهذه المواد ، تكشف
عن طبيعة المؤلفين ومواهبهم . فعلى الرغم مما اشتهر به هؤلاء المؤلفين

من دقة الحس وسلامة الادراك ، فلا زال يعوزهم مايتطلبه التاريخ من التفكير السليم ، البعيد عن التحيز . وينبغي عند دراسة هؤلاء المؤلفين ، أن نحترس مما يؤدي إليه التحيز الشخصى من تغيير الحقائق وطمسها . يضاف إلى ذلك أن المؤرخين المتأخرين قد يتأثرون بما تلى الحروب الصليبية من أحداث . فلا بد اذن من الاهتمام الشديد ، بوضع أساس متين ، ولا بد أن نلتمس مقياسا معيناً ، نستطيع بمقتضاه أن نوفق بين الآراء المتناقضة^(١١) .



القِسْمُ الْأَوَّلُ

المؤرخون الغربيون

الفصل الأول

التقارير الرسمية والرسائل

الصادرة عن أفراد من الصليبيين

في المراحل الأولى من خط سير الصليبيين ، كان من اليسير انتزاع بعض الاتباع أو الرجالة ، من صفوف الجيش ، وإرسالهم إلى أوطانهم وقد حملوا معهم رسائل وتزودوا بالأخبار . وظلت هذه القاعدة جارية ، حتى غادر الصليبيون نيقية ، إذ أضحت هذه الطريقة غير مجدية ، فضلا عن أنها لم تكن عملية . وإذا تصادف أن جرى الالتقاء بين الصليبيين والسفن القادمة من الغرب ، فإن هذا اللقاء كان الفرصة الوحيدة لتبادل التحيات ، ولم يكن كافياً لنقل الأخبار ، كما أن الأحوال التي يتم فيها هذا اللقاء كانت قليلة .

لذا جرى استخدام الرسائل ، ومن حسن الحظ . أن الحملة الصليبية الأولى ، اتحدت فيها المصالح الكنسية والعلانية ؛ إذ أن رجال الكنيسة ، من القسس ورجال الدين ، أبدوا عن طيب خاطر الاستعداد لكتابة الرسائل ، حتى إذا تلقاها رجال الكنيسة بالغرب عكفوا على نسخها ، وبادروا إلى إذاعتها في أنحاء العالم المعروف وقتذاك . وهذه الرسائل حتى لو جرى توجيهها إلى الأفراد ، كانت تعتبر ملكاً عاماً أو مشاعاً ، ما لم يتم إحكام ختمها ، فتنشر محتوياتها ، وتذيع على نطاق واسع ، ويتم ذلك عادة في الإجماعات الكنسية . ولا شك أن الذين يشهدون هذه المجتمعات ، كانوا يتشوقون لأن يسمعوا أخبار أقاربهم وأصدقائهم ومعارفهم ، الذين توجهوا إلى تلك البلاد منذ زمن غير قصير .

وكتب هذه الرسائل ، بابواب وقادة ، وزعماء ، ولهذه الرسائل أيضاً أهمية ملحوظة ؛ إذ أنها كانت قريبة العهد بالأحداث التي وردت فيها من الناحيتين الزمنية والمكانية (١) .

على أن ما دونه أولئك الذين اشتركوا في الحرب الصليبية الأولى من رسائل ، وما ورد عنهم من أخبار أصلية ، لم يكن وثيراً . كما أن هذه الرسائل وتلك الأخبار لم تؤلف أهم المصادر لما وثقنا عليه من أخبار هذه الأزمنة . ومع ذلك ينبغي ألا نغفلها ، إذ أنها تلقى ضوءاً كبيراً على كثير من النقط الخاصة والمواضع التي يكتنفها شيء من الشك ،

وفيما يلي هذه الرسائل وفقاً لترتيبها الذي جرى التعارف عليه (٢) .

من هذه الرسائل :

(١) — رسالة من الإمبراطور الكسيوس إلى روبرت كونت فلاندرز : يعتبر جيبرت رئيس دير نوجنت Nogent ، أول من أشار إليها في تاريخه عن الحروب الصليبية ، إذ أورد وصفاً مسهباً لمحتويات هذه الرسالة . ووردت صورة أخرى من هذه الرسالة في مجموعة مارتيني Marten (٣) ، بلغ من اتفاقها مع الرسالة التي أوردتها جيبرت ، أن أضحت صحة هذه الوثيقة موضع شك . فما حدث من عدم إشارة المؤلفين اليونانيين إلى هذه الرسالة ، وما اشتهر به جيبرت من الغفلة والإهمال ، زاد من الشكوك والظنون في أن هذه الوثيقة الواردة في مجموعة مارتيني ، يصح أن تعتبر من الوثائق التي درج الرهبان في العصور الوسطى على انتحالها ، أو أنها تعتبر صورة معدلة للوثيقة التي أشار إليها جيبرت . ومع ذلك فإن في هذه الرسالة من الأمور الفريدة النادرة ما لا يصح تجاهلها ؛ إذ أنها خللت مما اشتهرت به الرسائل الرسمية التي تصدر

(٢) هذه الرسائل نشرها هيجنمير

Hagenmeyer : Epistolae et Chartae primi belli Sacri .

أنظر ما كتبه الكونت Riant عن هذه الرسائل في مؤلفه المعروف باسم

Inventaire Critique (Paris 1880) — Archives de L'Orient Latin 1 .

(3)** Martène, E., U. Durand : Thesaurus norris anecdotorum seu collectio monumentorum , complectens regum ac principum aboiumque virorum illustrium epistolas et diplomata bene multa . 5 vols paris 1717 .

عن الإمبراطورية البيزنطية ، من عبارات التفخيم ، كما أن ما شملته الرسالة من مدح النساء الشريقات ، لإغراء الصليبيين المسيحيين ، يعتبر من الصغائر التي لا يصح أن تصدر عن الإمبراطور البيزنطي .

وبصرف النظر عن التصدي لاعتبار هذه الوثيقة أصلية أو صحيحة ، لماذا نبى عدم تصديقنا لكاتب غربي؟. على أن أحد الكتاب البيزنطيين لم يشر إلى أن الإمبراطور البيزنطي التمس المساعدة من كونت فلاندرز ، والراجح أن جيبرت حصل على هذه الرسالة من روبرت كونت فلاندرز نفسه (٤) .

(٤) انظر ماتلى فيما بعد عن جيبرت . والواقع أن سلوك الإمبراطور البيزنطي الكسيوس وسكان امبراطوريته نحو الصليبيين عند اجتيازهم البلاد في الطريق الى القسطنطينية ، لم يكن فيما يبدو مفهوما لدى اللاتين وقتذاك ، كما أنه سبب الحيرة لكل الكتاب فيما بعد. فمن الأمور التي أحاطت بها الشكوك ما إذا كان الكسيوس أرسل فعلا يستنجد بالغرب وقتذاك . يشير المؤرخ شالاندون المعروف بدراساته العميقة عن الكسيوس ، إلى أن الكسيوس لم يرسل في طلب المساعدة ، وأن الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٠٩٦ لم تكن في حاجة ماسة الى للمساعدة. والواقع أنه لن يفسر سلوك الإمبراطور إلا إذا اعتبرنا أن الصليبيين قدموا من تلقاء أنفسهم دون أن يتلقوا دعوة من الكسيوس ، وما ارتكبوه من أعمال العنف إنما يثير الشكوك حول أغراضهم . ويزيد من هذه الشكوك وجود أمثال بوهمند والرمنديين أعداء بيزنطة القدماء ، ولعل ثمة أسباب أخرى أثارت الإمبراطور . ويرى كيهلر Kohler أن البابا ايربان إنما كان يرمى من الدعوة إلى إرسال حملة صليبية ، إلى أن الكنيسة البيزنطية سوف تخضع له ، مقابل هذه المساعدة ، أو كرها نتيجة استخدام القوة اذا اقتضى الأمر ذلك . ومن الدليل أيضاً على أن الكسيوس لم يثق في الصليبيين ، ما أورده ابنته اناكومنين في كتابها Alexiade عن هذا الأمر ، وما لجأ اليه الكسيوس من التعجيل بإرسال كل من يصل إلى القسطنطينية من فئات الصليبيين إلى خارج المدينة ، وحتم على مواصلة السير إلى الأراضى المقدسة انظر

(ب) - رسالة من البابا إيربان إلى الإمبراطور الكسيوس :

في صيف سنة ١٠٩٦ كتب إيربان إلى الكسيوس رسالة ، وردت في مجموعة أعمال المجالس الدينية^(٥)*. وفي هذه الرسالة يوصى البابا الصليبيين بأن يبذلوا جهودهم واهتمامهم للإمبراطور ، ولم يكن لهذه الرسالة أهمية تاريخية كبيرة .

(ح) - رسائل ستيفن كونت بلوا إلى زوجته أديل (Adela)

سنة ١٠٩٧ :

كتب كونت بلوا فيما نعلم ثلاث رسائل إلى زوجته ، أهمها الرسالة الثالثة التي حررها من المعسكر المضروب أمام انطاكية ، قبل استيلاء الصليبيين عليها^(٦) .

والمعروف أن كونت بلوا ، اختاره الأمراء في وقت من الاوقات ، قائدا عاما . وجرى ذكر هذا الحادث في موضع آخر ، غير أنه يحتاج إلى شيء من التدعيم والتأكيد ، إذ لم نعلم مطلقا شيئا عن صفة هذه القيادة وأهميتها . فلم يعقب التعيين وقوع حوادث هامة ، فلولا ما نلتسمه من رسالة كونت بلوا من دلائل لاحاط بكل هذا الموضوع الغموض الشامل والشك الشديد . ففي وقعه دوريليوم انقسم الجيش قسمين ، وكان ستيفن كونت بلوا في جانب الزرمان الذين تعرضوا لهجوم قلعج ارسلان ، غير أنه لم ترد إشارة هنا إلى أن ستيفن كونت بلوا أصدر الأوامر باعتباره قائدا عاما ، بل حدث عكس ذلك ، إذ أن بوهمند بادر فتولى القيادة وأحرز النصر . يشير ستيفن كونت بلوا إلى د اننا علمنا أنه في قبادوقيا أمير تركمان اسمه Assam ، استولى علينا على بلاده ، وخلفنا بها أحد أمرائنا مع جماعة من الفرسان ، كما يتم فتح البلاد . وليس من الواضح منذا الذي يقصده ستيفن بهذا الاسم . هل هو تحريف

Mansi, J. D, others : Sacrarum conciliorum nova et ^(٥) amplissima collectio — 31 vols. Florence Vinice ;1759—1798

لإسم قلع ارسلان، الذي يعتبر غريباً عند اللاتين، أو أن ستيفن قصد أميراً مغموراً معروفاً بهذا الإسم في الجهات المجاورة .

على أن ما هو أهم من ذلك ، ماورد في رسالته من إشارة موجزة إلى ما أصاب الأمراء النازلين حول أنطاكية من الهزيمة ، عند محاولتهم للمرة الثانية رفع الحصار عن أنطاكية. وما أورده في هذه الفقرة عن مواضع القتال، وعدد المحاربين في كلا الجانبين ، لاكثر وضوحاً عما ورد في مصادر أخرى . ومنه أيضاً نحصل على معلومات عن أحوال الجيش المسيحي، وذلك عند اشارته إلى أن الجيش ، أخذ ينتشر في الجهات المجاورة ، وأنهم استولوا على نحو ١٦٥ موضع وحصن في بلاد الشام (١٧) * .

(٤) - رسالة من أنسلم أمير ريمونت Anselm of Ribemont ، إلى مانسيس Manasses رئيس أساقفة ريمز (٨)

كان أنسلم من أشهر بارونات اللورين ، اشترك في جيش الصليبيين ، وجرت مراسلات بينه وبين مانسيس رئيس أساقفة ريمز . وسوف نعرف شيئاً كثيراً عنه في كتاب جيبرت المعروف باسم Gesta Dei . ولم يصل الينا من رسائله إلا رسالة واحدة كتبها عقب الإستيلاء على أنطاكية، وأورد فيها صورة واضحة برغم اختصارها ، عن الأحداث التي وقعت خارج المدينة ودخلها. وما كان من اتفاق محتويات رسائل أنسلم مع ما جاء عند شهود الحرب

(٧) * يشير كراي Krey إلى أن أسام Assam or Asam ، كان سيدياً من سادات الترك المعروفين بالقوة والسلطان ، وقام بدور كبير فيما جرى فيما بعد من الحروب ضد الدولة البيزنطية. وما اتخذ الصليبيون من سياسة ترمي إلى أن يجملوا حاميات في مواضع مختلفة على امتداد طريق مسيرهم ، كان لها أثر كبير في الجيش ذاته؛ وذلك لأن كثيراً من هذه الحاميات بلغت من قلة العدد أنه لم يكن في وسعها أن تحافظ على الأراضي التي اختصت بها ، كما أن انبثاقها من الجيش أضعف قوة الجيش الأساسي - انظر Krey : op. cit. P. 291 note. 15.

أمثال ريموند ، مؤلف كتاب أعمال الفرنجة *Gesta Francorum* ، يعتبر من الأمور البالغة الأهمية ، فضلاً عن اتفاقهما معاً في مخالفة رواية البرت قسيس آخن *Albert of Aix* . ومثال ذلك ما نورده هنا من رواية ما حدث أثناء الصيام في سنة ١٠٩٨ ، من الانتصار الساحق الذي أحرزه الصليبيون ، وما تلى ذلك من تشييد الحصن تجاه الجسر المؤدى إلى باب أنطاكية ؛ إذ أشار في وضوح إلى أن بوهمند وريموند أمير طولوز ، توجهوا إلى ميناء سان سيمون (ميناء أنطاكية) ، للبحث عن عمال يقومون بتشيد الحصن ، وأنهما تعرضاً لهجوم من قبل المسلمين ، وأصابتهما خسارة فادحة عند عودتهما . وأعقب ذلك أن انتقم الجيش الصليبي لهذا الحادث ، بما أحرزه من انتصار باهر ، وترتب على ذلك أن تم بناء الحصن دون أن يصادفه عقبة من العقبات . أما رواية البرت ، فتشير إلى أن الجيش لم يكن في حالة حركة ونشاط ، بل غلب عليه الخمول والنواكل ، فلما علم جود فرى بما حدث من الاشتباك بين بوهمند وريموند وبين المسلمين ، نهض إلى القتال^(٩) .

ويروى ستيفن كونت بلوا ، أن الأمراء امتطوا خيولهم ، ولم يكن لديهم أدنى شك فيما ينتظرهم من أخطار ، فتوجهوا لقتال الجماعة القادمين من ميناء سان سيمون ، فألفوا أنفسهم بين الأعداء . وما كاد هؤلاء الأعداء ينهضون لقتالهم ، حتى أعد الأمراء جيوشهم للنزال .

ومن هنا نقبين أن رواية أنسلم تتفق مع هذه الرواية ، ولا تتفق مع رواية البرت ؛ فالمعروف أن الأمراء إنما ركبوا خيولهم ، يقصدون بذلك غرضاً معيناً اتفقوا عليه ، ويتفق مع رغبة بوهمند ؛ وهذا الغرض هو أن يؤمنوا طريق العودة ، بأن يحشوا الجيش على التحرك . فكان القصد هو أن يسير الجيش ، غير أن ما حدث من التأخير المفاجيء أدى إلى توقف مسير كتائب الجيش . ويتفق مع هذا كتاب أعمال الفرنجة ، بل إن بعض الاختلافات أفادت في تأكيد نفس وجهة النظر ، لا سيما إذا أدركنا ما لمؤلف الكتاب من مكانة شخصية ؛ إذ أنه كان كما نلاحظ

فيما بعد، من الأجناد، أى أنه لم يكن من القادة أو الضباط، ولذا فن اليسير أن ندرك أنه لم يعلم شيئاً عن أوامر بوهمند التي أصدرها إلى الأمراء، وكل ما يعلوه هو أن الجيش، وقف على أهبة الاستعداد، عندما وصل بوهمند. وعندئذ يقول أننا اجتمعنا (احشدنا) سوياً *nos congregati eramus in unum*، والمقصود بلفظة نحن هنا، هم الزرمنديون بطبيعة الحال. وهذا لا يتعارض مع كلام ستيفن، من أن بوهمند وصل عند احتشادنا، *dum adhuc convenirent nostri*، فإتاما يقصد ستيفن بذلك الجيش بأسره. وعلى الرغم من هذه الأحداث التافهة التي تشير إليها الرواية، فإن وجه الأهمية يرجع إلى صفة الرواية وميزتها، وما ترتبط به من علاقة مع الروايات الأخرى، وسوف لا نجد بعدئذ صعوبة فيما حدث من الاتفاق بين روايات وأخبار الذين شهدوا الحرب، وبين ما حدث من اختلاف رواياتهم مع ما أورده البرت. ولا شك أن لذلك أهمية خاصة في تغيير فكرتنا عن بعض الأحداث البالغة الأهمية^(١١).

(هـ) - رسالة من الأمراء الصليبيين إلى جميع المؤمنين «المسيحيين»، (١١).

هذا التقرير وقعه كل من بوهمند وريموند، وجود فرى، وهيجو، وهو مؤرخ في يواية سنة ١٠٩٨، ويغلب عليه الايجاز. ويتبين من الإشارات الواردة فيه ما حل من هزيمة بالجيش الصليبي أمام نيقية وأنطاكية، على أن هذه الروايات يغلب عليها المبالغة والمغالاة وما يعتبر جديداً في هذه الرسالة، ما تضمنته من ملاحظة بأن ملك الفرس هددهم بشن حرب جديدة عليهم، بعد أن حلت الهزيمة بجيش كروجوا، وأنه سوف يشترك مع المصريين في مهاجمتهم^{(١٢)*}.

(و) - رسالة من الأمراء الصليبيين إلى البابا ايربان الثاني (١٣).

هذه الرسالة ليست مؤرخة، وأوردها فولشر في تاريخه، ووقع هذه

(١٢) * المقصود بملك الفرس سلطان السلاجقة الأعظم، أما المصريون فالمقصود

Sybel : op. cit. P. 105.

بهم الفاطميون.

الرسالة كل من بوهمند، وريموند، وجود فرى، وروبرت النرمندى، وروبرت أمير الفلاندرز، ويوستاس Eustace أمير بولونيا، ولعل السر في عدم ذكر اسم هيجو، يرجع إلى أنه توجه في سفارة إلى القسطنطينية (١٤) * . والجانب الأكبر من هذه الرسالة، يتعلق بما جرى من الوقائع ضد كربوجا، وورد بها تفاصيل هامة وقاطعة في هذا الموضوع. وما ورد في كتاب أعمال الفرنجة من ملاحظات تاريخية قليلة عن هذا الموضوع، أكدتها هذه الرسالة. وهذا القول ينطبق أيضاً على المعركة الأخيرة التي نشبت ضد كربوجا، وهذه العبارات تؤيد صحة أقوال الذين شهدوا القتال؛ إذ أن البرت زعم أن جود فرى، لابوهمند، هو الذى استولى على أنطاكية. وما ورد في كتاب أعمال الفرنجة، من رأى مخالف، يلقى التأكيد والتأييد من نصوص هذه الوثيقة (١٥).



(١٤) * يشير Krey إلى أن هذه الوثيقة جرت كتابتها في أول سبتمبر سنة

Krey : Op. Cit. P. 195 — 169. Sabej : Op. Cit. P. 109. ١٠٩٨

الفصل الثاني

التواريخ

الكتاب الذين شهدوا الحرب الأولى

على أن الرسائل وحدها لم تكن كافية لإشباع اهتمام العالم بأحداث الحرب الصليبية الأولى. إذ اجتمع من الدوافع العديدة، مازاد في إثارة هذا الاهتمام؛ فمن هذه الدوافع الاعتزاز بما يقوم به المواطنين من أعمال، والميل الطبيعي للاهتمام بكل ما هو غريب ومثير، والحاجة المستمرة للرجال والأموال للحفاظ على ماتم الاستيلاء عليه من البلاد، فضلاً عن حرص الصليبيين أنفسهم على أن يخلدوا ما قاموا به من أعمال^(١).

كل هذه العوامل دعت إلى رواية سيرة الحروب الصليبية، وتكرار روايتها. ولم يكن تأليف كتاب هو الدافع الأساسي للكتابة، إذ أن ما يأمله المؤلفون الطامعون في الشهرة أو المال، يحول دونه لإنعدام دور النشر وقتذاك، وعدم وجود قوانين تحمي المؤلف وتمنع نسخ الكتاب. فاذا قصدنا بالنشر الاكثار من النسخ، عن طريق النسخ باليد، كانت هذه العملية شديدة الارهاق؛ إذ أن النسخ لم يكن يجري أصلاً إلا في مناسخ الأديرة أو المدارس الأسقفية، كما أن الرق كان مرتفع الثمن، ولم يكن في وسع أحد أن يستخدمه إلا رجال الدين. يضاف إلى ذلك أن ما قام به المعاصرون من الأعمال السائرة أو الأعمال الحربية، لم تبلغ من الأهمية ما يدعو إلى وصفها^(٢).

ومع ذلك، فالحروب الصليبية كانت أمراً مختلفاً، من حيث أنه رغم ما تتصف به أعمالها من أنها حربية ومادية، كان لها دلالة دينية عميقة. فما أشار إليه البابا ايربان الثاني، من أن الإستيلاء على الأراضي المقدسة يعتبر من الأعمال الخالدة، حمل أكثر من مؤلف أو كاتب، على أن يتم سيرته عن

الحملة الصليبية الأولى . فهذه الدوافع المختلفة ، سواء كانت مقدسة أو كاذبة ، اجتمعت فأوحت بتصنيف مايلي من التواريخ المفصلة للحملة الصليبية الأولى .

١ - تاريخ ريموند أجيل Raymond of Agiles

كان من بين حاشية ريموند كونت طولوز ، وحاشية أسقف باي ، محاربان صليبيان ، اشتهر أولهما بالشجاعة والفروسية ، بينما كان الآخر من رجال الكنيسة ، وقد اشتهر بحسن التدبير برغم جهله وأميته ، وارتبط هذان الرجلان بصداقة وثيقة . وكان الفارس بونتيوس Pontius, Lord of Baladum ، حربياً على ضرورة تدوين ما تحو به الذاكرة من أفكار جليلة كثيرة ، ولذا ألح على صديقه أن يعكف أثناء التجهز إلى خيمته ، على تدوين ما جرى من الحوادث في ساحة المعركة ، كيما يثير جميع المسيحيين ، لاسيما صديقهما أسقف فيشار Vivars . وتأثر بذلك رجل الكنيسة ريموند ، فصار يدون كل يوم ما شاهده من الأحداث ، وذلك بفضل مساعدة وتشجيع صديقه ، إلى أن لقي بونتيوس مصرعه في معركة وقعت أمام قلعة عرقه . ومع ذلك لم يتوقف ريموند عن العمل الذي بدأه بإشارة بونتيوس ، قال ريموند « مات خير أصدقائي في سبيل الله ، غير أن المحبة لم تمت ، وبهذه المحبة التي كانت بيننا ، سوف أنجز مابدأته من عمل ، فاللهم هبني العون والتأييد .

لم يرسم (يعين) ريموند قسيساً إلا عند مسيره إلى الأراضي المقدسة ، فأصبح بذلك من رجال أسقف لي بويه Le Puy ، وريموند كونت طولوز . وشهد ريموند أمر اكتشاف الحربة المقدسة ، وحمل هذا الأثر المقدس في المعركة ضد كربوجا ، وصار يتلو الأدعية عند إجراء الاختبار Ordeal ، الذي بمقتضاه أثبت بطرس بارثليميو حقيقة هذه الحربة ، التي طعن بها المسيح . فلا شك إذن أن تهيأت لريموند الظروف والأحوال لمشاهدة ما يقع من الأحداث ، أما قدرته على الحكم على الحوادث ، فيصح استخلاصها من أعماله وكتاباتة . وكيفما كان الأمر ، فإن ريموند اشتهر بالاستقامة والبساطة ، فأورد

ما يدور بخلد في أسلوب بسيط قوى . وعلى الرغم مما يساورنا من الشكوك في صحة ما أورده من حقائق ، فلا شك في صدق الأثر الذى تركته فيه هذه الحقائق أو الوقائع . يضاف إلى ذلك أن ريموند بروفسلى خالص ، كان شديد التحمس لما أصابته الحملة من النجاح ، وكان متعصباً لمواطنيه من البروفساليين ولقائدهم ، برغم أنه لم يتصف بمواهب نادرة ، إذ أن كل ما يصدر عنه من المظاهر لم يكن مقبولاً . فمن المظاهر المرتبطة بسلوكه وأخلاقه ، أنه كان شديد الاعتقاد فى المعجزات ، وشديد الكراهية لكل من يعارضه ، ويعتبر ذلك أداة لربط الأمور الروحية ، بالنزعات الدنيوية ، يضاف إلى ذلك ما تصف به أسلوبه من الغلظ ، عند التعبير عما يدور بخلد من أفكار . فمن الواضح أن فى تاريخه أموراً كثيرة ، تلفت انتباه القارىء بغلظها وجفافها ؛ مثال ذلك أنه حينما أشار إلى أن من أعمال كونت تولوز المجيدة ، أنه ما كاد يشتد عليه الحاح الدماشيين ، حتى أمر بنزع عيون ستة من الأسرى ، وجدع أنوفهم وبتر أذرعهم وأرجلهم ، كما يثير الخوف عند سائر الأسرى (٣) . وعند الاستيلاء على أنطاكية قال حدث أمر يدعو إلى الفرح والسرور ، بعد أن طال أمد المحنة والشدة ، ذلك أن قوة من فرسان الترك ، يزيد عددها على ثلاثمائة هوت إلى الوادى ، شديد الانحدار ، نتيجة لاشتداد ضغط الصليبيين عليهم ، وأن إزداد فرحنا لما شهدناه ، فإن ما حدث من هلاك الخيول زاد من أسفنا . ، والواقع أن الناس لم يحفلوا كثيراً فى هذه الحرب بكل ما يتعلق بالإنسانية ، على أنه من العسير أن نجد مثالا آخر ، ينطوى على مثل ما ينطوى عليه هذا المثال من المرارة والكراهية الشديدة (٤) .

وعلى هذا النحو مضى ريموند فى تاريخه ، المعروف باسم تاريخ الفرنج الذين استولوا على بيت المقدس (٥) * *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem* يروى فى حماس وشغف ما يثير المرح والسرور . غير أنه لم يلبث

(٥) * اتخذ الكتاب فى معظم الأحوال اسم رؤيات بطرس بارثليمو وآخرين

Visions of Peter Partholomew and others,

انظر - باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٤١ .

أسلوبه أن يتغير تماما ، حينما يصادفه في روايته وقصته أمر خارق للعادة ؛ مثال ذلك أنه حينما ظهر على سطح الأرض ، سنان الحربة المقدسة ، قال ريموند نهضت أنا ريموند القس ، فلثمتها ،^(٦) ، واشتمل نحو ربع الكتاب على الرويات التي ظهرت عقب ظهور الحربة المقدسة . والخلاصة أن ريموند اشتهر بطبيعة قوية ساذجة ، انطلقت في تيار جارف ، ولاشك أن هذا الكتاب يصح أن يثير الامتعاض والكرهية ، لو لم تشتهر كتابته بالصراحة ، ولو لم تظهر فيه الصفات التي اشتهر بها المؤلف^(٧) .

ومن الواضح أن أحكامه يصح أن يؤخذ بها في بعض الحالات ، كما أنه يصح الاعتماد عليه في كل الحقائق المعروفة ، لما اشتهر به من الدقة في إيراداتها . واشتهر ريموند بخصوصيته في إيراد التفاصيل ، وأنه لم يركن إلى الإسهاب في إيراد القصص والحكايات . وعلى الرغم من أنه يتحتم علينا الا نقر بعض الحالات ضئيلة الأهمية ، فإن ريموند أورد خلاصة طيبة لنتائج ما وقع من أحداث بالغة الأهمية .

على أن ريموند يعتبر بالقياس إلى غيره من المؤلفين ، ثقة فيما يورده من الحوادث ، وفي بعض النقط تعتبر روايته كبيرة الأهمية في تقرير صحة الأحداث . مثال ذلك ماجرى من القتال ضد قلعج أرسلان عند نيقية ، وحصار أنطاكية ، وأهم من ذلك ما وقع من النزاع بين بوهمند وكونت طولوز . وفي النقط الرئيسية يكاد يتفق تماما مع ماورد بكتاب أعمال الفرنجة *Gesta Francorum* ، فلم يكن بينهما اختلاف كبير في ذكر الأحداث ، أما في الأمور الفرعية أو الخاصة ، فاستقل بوجهة نظره في هذه الأمور . يضاف إلى ذلك أن الكتابين مستقلان تمام الإستقلال ، على الرغم من أن ما كان بينهما من التشابه ، أدى إلى الزعم بأنهما يرجعان إلى مصدر وأصل واحد^(٨) * ، وأن كل

(٨) * هذا الزعم يبدو صحيحا ، إذا عقدنا مقارنة بين نصوص طويلة مترابطة ، مثل حصار أنطاكية ، أو حصار بيت المقدس ، وبين ما أورده البرت الأخيني من رواية مختلفة تمام الاختلاف عن هذين الحادثين (انظر -

ما فعله ريموند، أنه زاد وتوسع في كتاب أعمال الفرنجة . إذ أن كلا من المؤلفين يروى الحقيقة حسبما عرفها ، فزُلف أعمال الفرنجة يوردهما يعرفه من حقيقة اعتمادا على ماجرى بين الرمان، على حين أن ريموند يورد ما حدث عند البروفنساليين . ولم تكن الأحداث تجرى سرا أو مضطربة ، ولذا فإن ما حدث من أوجه التشابه فيما أورده المؤلفان لم يكن غريبا . على أنه لم تجر مطابقة في التعبير إلا في فقرتين أشار إليهما النقاد ، على أن ناسخا أضاف إلى خاتمة كتاب ريموند ، الذي لم يصل إلينا في صورته الكاملة التي كتبها ريموند، فقرات من كتاب أعمال الفرنجة (٩).

على أننا نتساءل متى تسربت إلى كتاب ريموند ، فقرات من كتاب أعمال الفرنجة ؟ ، ومن الذي قام بهذا العمل ؟ . الواقع أن هذه الفقرات لم تكن متطابقة في كل المخطوطات المعروفة من كتاب ريموند . وأكثر من هذا أن المؤرخ توديبود Tudeboud ، الذي أخذ عن ريموند ، عثر على هذه الفقرات فنقلها كما هي في مؤلفه ، ولعله قارنها بما يقابلها في أعمال الفرنجة . والراجح أن ريموند نفسه ، هو الذي نقل هذه الفقرات من كتاب أعمال الفرنجة وأوردها في مؤلفه ، وذلك حينما أحس بأن روايته تقع بها فجوات عديدة ، فحاول أن يملأ هذه الفجوات بما نقله من فقرات من كتاب أعمال الفرنجة . ولهذا الحادث أهميته ، إذ يعتبر دليلا حاسما على أن الكتابين جرى تأليفهما في زمن واحد ، على الرغم من أن كتاب ريموند ، لم ينطو على دليل ظاهر في هذه الناحية (١٠).

ويرجع اهتمامنا بهذه الحالة إلى أسباب عديدة ؛ منها الحرص على تحديد زمن تأليف كتاب أعمال الفرنجة ، وبالتالي لتحديد ما يتعلق بالموضوع ذاته . إذ أننا نسمع من كل ناحية ، أنه من المستحيل أن تؤلف من المصادر الأصلية ، صورة دقيقة حقيقية عما جرى من الأحداث بالقسطنطينية ؛ وذلك راجع إلى أن ماساد من الاضطراب في كتاب البرت ، يجعل من المستحيل أن

يتم ربط المصادر اللاتينية بكتاب أعمال الكسيوس Alexiade (المصنف باليونانية) غير أنه إذا استطعنا أن نستخلص من شهود العيان للحرب الصليبية عبارات وتقارير واضحة، جرى الاجماع عليها، وإذا استطعنا بالاعتماد عليهم، أن نصدر حكماً دقيقاً على البرت الأخيني، فإن ما احتوته مؤلفات أنه كومنين من اختلافات لن تؤدي إلى عقبات^(١١).

وفي الجملة، يصح القول أن كتاب ريموند حفل بتفاصيل كثيرة، تعتبر في مجموعها صحيحة وصادقة، غير أن مالها من قيمة، أفسدها ما اشتهر به كاتبها من العاطفة والإنسياق وراء الأساطير. أما ريموند الكاتب، فإنه على الرغم من طبيعته التي تتسم بالعنف والحاس، والميل إلى الأساطير، أصاب في تقدير الأمور ووزنها، ومهما اشتهر به فكره من الغلظ والجفاف، فإنه يعتبر خير مثل لعصره وبلده، فهو مبتكر وصریح، وكلما مضى القارىء في استجلاء مكنون نفسه وروحه، أصاب ما يأمله من الفائدة^(١٢).

٢ - أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس^(١٣)

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum

يرى بزلى Besly^(١٤)، في تصديره لكتاب توديبود Tudebod، المعروف باسم تاريخ بيت المقدس، أن كتاب أعمال الفرنجة الذي نشره بونجارز Bongars على أنه قصة حقيقية صحيحة أخذها الكتاب السابقون، ليست في الواقع لإسرة تاريخية مقصودة، وتعتبر من أفدح وأشنع أنواع السرقات. فال مؤلف المجهول، الذي ينسب له هذا الكتاب، إنما يدين إلى توديبود بما انطوت عليه قصته من الحقائق، وزعم أن من واجبه أن ينشر هذه السرقة بأكملها. (١٥)

واعتمد بزلى أساساً في إثبات هذا الزعم على ثلاث فقرات؛ تحدث في إحداها توديبود عن نفسه صراحة، وفي الفقرتين الأخريين أشار إلى وفاة اخوته. وفي كل هذه الأحوال يتحدث توديبود على أنه شاهد عيان، أما

المؤرخ المجهول صاحب كتاب أعمال الفرنجة ، فإنه حرص على أن يحذف من روايته كل إشارة لهذه الأحداث . ولقيت آراء بزلى قبولاً عاماً ، فأخذ بها من تلاه من مؤرخي الحروب الصليبية ^(١٦) .

غير أن ما ورد من الأسباب للتدليل على هذا الرأي لم تكن كافية للإقناع ، بينما ثمة من الأدلة ما يشير إلى العكس ، أى أن توديبود هو الذى نقل عن المؤرخ المجهول ^(١٧) . ففي الحالة التى جرت الإشارة إليها ، يروى توديبود ، أن حادثاً مؤسفاً وقع أثناء حصار بيت المقدس ، ويضيف «أن المؤلف ، توديبود ، وهو قسيس سقراى Sivray كان حاضراً ، وكان يشهد وقوع الحادث ، فالقصة كلها ، التى أضيفت إليها هذه العبارة ، لم ترد فى أعمال الفرنجة ، والراجح أن توديبود الذى أمعن فى النقل عن أعمال الفرنجة ، أورد فى هذا الموضع ، شيئاً مما شهده بعينه . وليس ثمة ما ينقأ أنه ، هو وأخوته ، صحبوا الجيش ، بينما توأفرت الاعتراضات على أن كتاب توديبود يعتبر المصدر الأصيل الذى نقل عنه كتاب أعمال الفرنجة (١٨) .

وأول هذه الاعتراضات أن المؤرخ المجهول التزم عند الحديث بصيغة المتكلم ، على حين أن توديبود ، صار يتحدث تارة بصيغة المتكلم وتارة بصيغة الغائب ، يضاف إلى ذلك أن المؤرخ المجهول ، كما سنرى . كان من الفرسان ، على حين أن توديبود كان قساً ، وظل المؤرخ المجهول محافظاً على صفة ، على حين أن توديبود جعل نفسه تارة محارباً ، وأشار تارة أخرى إلى أنه قسيس . ومن اليسير تحليل ذلك لو اعتبرنا توديبود من الطبقة الثانية من المؤلفين ^(١٩) * .

وفى كلا السكتابين ، لم تكن الفقرات متطابقة ، فما ورد منها فى أحدهما لم يرد فى الكتاب الآخر ، فالفقرات التى انفرد توديبود بإيرادها ، شملت من

Gesta Francorum, P. 782 , 788.

(١٩) * أنظر

وأشار المؤرخ المجهول إلى الفرسان على أنهم قوة مخالفة للمشاه ، ونقل توديبود

Sybel: P.P. 113.

هذه العبارات دون تغيير .

الحكايات ومن صفات الناس وطباعهم ، ما يجوز في يسر وسهولة ، اثباته أو حذفه ، دون أن يغير ذلك من سياق الرواية أو القصة ، على حين أن هذا لم يكن شأن العبارات الواردة في كتاب أعمال الفرنجة (٢٠) . ومن ذلك يتبين أن توديبود ، أسقط فقرات جوهرية للمعنى ، وذلك أثناء قيامه بمحاولة خاطئة لضغط الرواية ، فما أورده من خبر الاستيلاء على نيقية ، تضمن من الأخطاء ما لا يصح اغتفارها لشاهد عيان ، غير أن من اليسير ادراكها على أنها من أخطاء الناسخ . ومن المستحيل ألا نعتبر أن كتاب أعمال الفرنجة هو المصدر الذي استمد منه توديبود معلوماته . (٢١) .

وهذا يؤدي بنا إلى النقطة الأخيرة التي تعتبر أهم النقط في الاعتراضات ، على الرغم من أن بزلي لم يجعل لها أهمية كبيرة . ذلك أن توديبود أفاد من كتاب ريموند ، وكذا من كتاب أعمال الفرنجة ، إذ أورد في كتابه فقرات عديدة نقلها من كتاب ريموند ، كلمة كلمة (وبنفس اللفظ والعبارة) . فلو أن مؤلف أعمال الفرنجة نقل عن توديبود ، لكان من المستحيل ، ألا تتسرب إلى كتابه فقرات من كتاب ريموند والواقع أن العبارة أو الفقرة الواحدة ، التي ترد عند كل من ريموند والمؤلف المجهول تجعل الأمر جلياً واضحاً . ذلك أن توديبود نقل أول الأمر عن كتاب أعمال الفرنجة ، ثم أخذ عن ريموند ، ثم عاد مرة أخرى فنقل من كتاب أعمال الفرنجة الفقرات الأخيرة (٢٢) . على أن أصله كتاب أعمال الفرنجة تعرضت للتجريح من ناحية أخرى ، وأورد مايون Mabillon ما جرى من مقارنة كتاب أعمال الفرنجة ، بما ورد من فقرات وعبارات في كتاب تاريخ الحرب المقدسة Historia Belli Sacri ، غير أن كتاب تاريخ الحرب المقدسة ، غلب عليه طابع التصنيف لا التأليف (٢٣) .

وكيفما كان الأمر ، لا بد من الدفاع عن أصالة كتاب أعمال الفرنجة ، غير أنه لا يعرف على وجه التحقيق اسم مؤلف هذا الكتاب ، برغم كثرة ما نقله عنه معاصروه من اقتباسات ، و برغم كثرة الإشارة إليه ، والاعتماد الكبير

عليه في الدراسات الصليبية المتأخرة عن الحرب الأولى . وكل ما أمكن الوصول إليه من نتائج لا زال موضع جدل ، وتعتبر من قبيل الظن والترجيح . ولم يستطع التصريح باسمه من الكتاب سوى الكونت ريان Riant ، الذى أشار فى مقال له بمجلة الشرق اللاتينى ، إلى أن اسمه اسكندر ، وهو كاتب وقسيس ستيفن دى بلوا الذى أسهم فى الحرب الصليبية الأولى إلى جانب الرمنديين (٢٤) .

غير أن الواقع يدحض هذه الفكرة ، ذلك لأن الكونت بلوا كان أول الفارين من أمام انطاكية حين طال حصارها ، وحين سمع بقدم كربوجا ، أتاك الموصل ، لنجدة ياغى سيان والى انطاكية . يضاف إلى ذلك أن المؤرخ المجهول فى كتابه هاجم فى أكثر من موضع ، ستيفن واتهمه بالجن والضعف وعدم الاهتمام بصالح الصليبيين ، كما أنه لم يرد فى كتاب أعمال الفرنجة ما يشير إلى أية علاقة تربط المؤرخ المجهول بـ ستيفن (٢٥) .

و الواقع أننا لم نعلم إلا قليلا عن حياة المؤلف ، إذ أن الكتاب ظل مجهولا ، حتى لأولئك الذين عاصروا مؤلفه وأفادوا من كتابه ، أمثال روبرت وبولدرية ، وجيلبرت ، ولم نعثر فى مصدر من المصادر على ما يشير إلى المؤلف ، وكل ما هو معروف عنه ، ارتكن أساساً على الشواهد المستمدة من الكاتب ذاته (٢٦) .

وكل ما نعلمه عنه (٢٧) ، أنه غادر أمانى فى صحبة بوهمند ، وذلك سنة ١٠٩٦ ، ولزمه حتى تم الانتصار على كربوجا فى انطاكية ، وخدم مع الفرسان بهذه الجهات (٢٨) . واشترك كذلك فى كل الأحداث الهامة ، مثال ذلك أنه كان من بين الذين هاجموا انطاكية ، وكان أيضا من أفراد الجماعة ، التى انحازت فى صيف سنة ١٠٩٨ إلى روبرت الرمندى ، وريموند كونت طولوز ، فى شن الهجوم على المعرة و طرابلس ، وهذه هى الإشارة الأخيرة المعروفة لنا عن المؤلف (٢٩) . والمعروف أنه توجه إلى بيت المقدس ، مع سائر الجيش بقيادة ريموند كونت طولوز ، غير أنه ليس من الواضح ما إذا كان بصحبة ريموند ، أو كان مع تانكرد ،

أو روبرت الزرمندي، وهو ما يعتبر أكثر ترجيحاً، وقد كانا هما أيضاً بصحبة ريموند (٣٠١) .

صنف مؤلفه قبل نهاية سنة ١١٠١ ، وذلك لأن ايسكارد وقف في تلك السنة على نسخة من هذا الكتاب وأفاد منها . على أنه لم يرد في الكتاب من الاشارات التي تم عن شخصية المؤلف إلا قدر ضئيل ، فلم يكن به مقدمة أو إهداء، أو إشارة أو تنبيه للقارىء . ومع ذلك فاوردبه من بعض التعبيرات، ومن التحريف الذي طرأ على اللغة اللاتينية التي استخدمها ، إنما يدل على إلمامه إلى حد كبير بالتقاليد السائدة في جنوب ايطاليا (٣١) . ومن الدليل أيضاً على أنه اتخذ ايطاليا موطناً له ، ما أشار فيه ، عند حديثه عن ايربان الثاني ، إلى البلاد الواقعة فيما وراء الجبل ، إنما المقصود بهذه العبارة فرنسا (٣٢) . كما أنه حينما يتحدث عن سكان جنوب ايطاليا ، لا يستخدم مطلقاً لفظ «الزمان» او لفظ «الفرنجة» بل يستخدم لفظ «اللمباردين» ، وهو المصطلح الرسمي الذي لازال باقياً ، ويدل على سكان الشجر البيزنطى القديم «لانجوبارديا» . وما دأب عليه من الإشادة بأعمال بوهمند ، حتى بعد أن اسرق عنه عقب الاستيلاء على أنطاكية ، وقد اختص بوهمند دون سائر الأمراء الصليبيين ، بلقب «السيد» (٣٣) ، إنما يزيد في الاعتقاد بأن وطنه إنما يقع في ذلك الاقليم (٣٤) ، فيصح بذلك أن يكون من الزمان . فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أنه غادر نرمانديا قبل زمن طويل من قيام الحرب الصليبية الأولى . (٣٥) .

أما مكانة المؤرخ المجهول الاجتماعية ، فإن ما أورده في كتابه ، يصح أن يلقي ضوءاً على هذه الناحية . إذ أنه لم يكن من غمار الناس ، الذين نعتهم في كتابه بالفقراء ، كما أنه لم يكن من رجال الدين ؛ ومن الدليل على ذلك ما حدث في مواقف عديدة ، مثلما جرى في أثناء القتال ضد كروجا (٣٦) ، وفي أثناء الطواف بببيت المقدس ، من أنه عمد دائماً إلى معارضة رجال الدين والأساقفة ، الذين أخذوا يتضرعون الى الله أن ينصر الصليبيين (٣٧) . وعلى الرغم من أنه لم يشر صراحة إلى ما قام به من أعمال ، ففى وسعنا أن نستخلص

من كتاباته ، الأعمال التي شارك فيها ، إذ كان من بين عساكر بوهمندالذين تسلقوا أسوار أنطاكية (ليلة ٣ يونية سنة ١٠٩٨) ، وكان من الطليعة التي نفذت إلى داخل المدينة (٣٨) . واشترك أيضا في القتال الذي نشب في ٢٨ يونية ١٠٩٨ ضد كروجاجا^(٣٩) . والراجح أنه كان من أفراد حملة ريموند بيليه Pilet ، أثناء مقام الصليبيين في انطاكية (٤٠) .

ولم يرد في كتاب أعمال الفرنجة ما يدل على أن المؤرخ المجهول كان من طبقة الأمراء والقادة ، فلم يدخل القسطنطينية ، كما أنه لم يقف على ما جرى بين القادة من مناقشات ، إلا عن طريق السماع . على أن ما أورده من أخبار وثيقة ، دعت إلى الافتراض بأن له في الجيش مكانة خاصة ، كأن يكون من أحاد الفرسان أرباب الاقطاعات الصغيرة الذين اشتركوا في الحملة الصليبية . يضاف إلى ذلك أنه شهد أمر اكتشاف الحربة المقدسة ، وشهد المجلس الأعلى للحرب ، الذي انعقد عقب هذا الحادث^(٤١) . وفيما أورده عن المعارك ، جعل نفسه في ذمة الفرسان^(٤٢) ، أو ما يصح أن نسميها بالطبقة الوسطى من الفرسان^(٤٣) .

وعلى الرغم من أن صفاته وطباعه الشخصية لم تظهر جليا فيما يرويه من الأمور ، مثلما حدث في كتاب ريموند أجيل ؛ فإن ما ظهر منها في كتابته ، ليكفي لتقدير ما في روايته من الثقة والأمانة . فاشتهر المؤلف ، قبل كل شيء ، بأنه تشبع بالحماس للحروب الصليبية ، وبالكرهية الشديدة للمسلمين ، فاعتبر المسيحيين الذين لقوا مصرعهم « شهداء » ، بينما ذهبت أرواح الترك إلى الشيطان^(٤٤) ، وهو يرجع الحروب الصليبية إلى أنها انبثقت أصلا من وحي الهى ، وفي فقرات عديدة ، أخذ يدعو الله بأنه قائدهم وحاميهم ، فيقول « إن الله القوى العظيم ، العادل الرحيم ، الذي لا يجعل جيشه يتعرض للهلاك ، قد نهض لمساعدتنا ، فاندحر أعداؤنا بفضل قوته والقبر المقدس ، فأخذنا نجوب الحقول والجبال ، نسبح بحمد الله . » وبهذه العبارات وأمثالها ، صار المؤرخ المجهول يستهل ويختتم كل خبر ، عن حادث من الأحداث ، أو كل ما

يقع من الاشتباكات (٤٥) .

على أن ما اشتهر به من الحماس ، لم يتجاوز حدوداً معينة ، فلم يهاجم اعتباطاً الاعتبارات الدنيوية ، ولم يجادل مجرد الجدل آراء المعارضين له . بل إن ما أظهره من الاهتمام تساوى فيه عنده ، أعمال الناس ، وأعمال الله والقديسين . فيروى أنه حدث في دوريليوم ، وحينما قدمت النجدة التي ترقبها ، تصاحح الجند « فلنستبسل في القتال من أجل العقيدة والإيمان ، ولسوف نحصل ، إذا أراد الله ، على غنائم وفيرة ، (٤٦) . وعلى هذا النحو مضى في روايته ، إذ أن نزوعه وميله للقتال والحرب ، من أجل الحرب ، بلغ من الشدة ما لا يضارعه إلا ما اشتهر به من حماس ديني . فكلما هاجموا الترك ، أو هاجم الترك الحجاج ، صار يبدى دهشته ، ويرد عبارة « Tam mirabiliter » . فاذا حدث في بعض الأحوال أن راعه ما اتصف به أحد الصليبيين من شجاعة فردية ، ولم يكن ذلك إلا نادراً ، وجد لذة كبيرة في وصف الحادث ، والواقع أن مثل هذا الحادث جدير بالتنويه والذكر (٤٧) . ثم يتحدث في أسلوب سهل ، عن العقبات التي لا بد أن تعترضهم ، فيشير إلى أنهم لم يجدوا ما يأكلونه أو يشربونه أياماً عديدة ، وأنهم لم يلبثوا أن تغلبوا على الجوع ، بما اقتاتوا عليه من لحاء الشجر ، وأطفوا غلة عظشهم بمائه (٤٨) . وأكثر ما أشار إليه ، أنهم تعرضوا لهذه المجمعات والأوبئة ، وعانوا هذه المتاعب ، من أجل المسيح والقب المقدس . فما يصح أن يتشجع به سائر الكتاب من الفكرة السامية ، عن قيمة التضحيات من أجل بلوغ الهدف المقدس للحرب الصليبية ، إنما تضارع عنده استبعاد كل ما يدعو للإعجاب أو إظهار الآسى (٤٩) .

على أن ينبغي الإشارة إلى نقطة ، تدل بصفة خاصة على عواطف المؤلف ، وتمثل في العبارات التي أوردها عن أعدائه من الترك ، وسلوك الحجاج نحوهم . إذ أنه أنصف الترك ، فيقول عنهم « منذ الذي في وسعه أن يصف ما اشتهر به الترك من الفطنة والمجد الحربي ، والبسالة !؟ إلى لآ جهر بالحق الذي لا يستطيع أحد أن يتكره ، لو أن ما بذلوه من البسالة ، كان من أجل

العقيدة المقدسة للمسيح ، لا استحال أن يكون ثمة من المحاربين من هم أعظم منهم قدراً ، وأشد قوة ، وأكثر كفاءة (٥٠). فمن الحقائق الثابتة أن هذه الحرب اتسمت بالقوة والوحشية ، فلم يعد الأمر يتعلق بالاستيلاء على جهة من الجهات ، أو التنازل عنها وتسليمها للعدو ، بل تعدى ذلك إلى تحطيم رموس القتلى والتمثيل بجمتهم . كل ذلك وجد المؤرخون المعاصرون اللذة والمتعة في وصفه بالتفصيل . أما المؤرخ المجهول فلم يكن كذلك ، بل يعتبر استثناء للقاعدة ؛ إذ تجاوز عن ذكر هذه الموضوعات في أحوال عديدة ، فإذا أشار إليها ، كان ذلك على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة ، لا على سبيل المبالاه والتفاخر (٥١). ومن الواضح أن ما اتصف به المؤرخ المجهول من عدم المبالاة ، لم يخرج عن صفة سائر العساكر ، إذ أنه يمضى حياته وسط الدماء والجراحات ، ويعتبر أن ما يقع من الأحداث المفجعة ، من الأمور المألوفة فلا تستحق الذكر ، وليست جديرة بالمدح أو التمجيد (٥٢)* .

أما طريقة كتابته ، وما يرمى إليه من هدف ، فنلتسها فيما كان له من مكانة في المجتمع ، وفيما اشتهر به من خلال وسجايا . إذ أن تاريخه ليس إلا تقرير شاهد عيان ، لم يرتق إلى أعلا الوظائف ، ولم يكن دائماً عليماً بما وراء الأحداث من دوافع أساسية ، فما شاهدته من الأحداث ، أخذني استجلائها ، وعمد إلى إيرادها في رواية سهلة سليمة . ولم يكن تاريخه إلا مجرد مذكرات يومية لحياة المؤلف الشخصية ، لأنه لم يورد بها في دقة إلا أهم الأحداث (٥٣) . اشتهر المؤرخ المجهول بمهارته في التمييز بين الحقائق المختلفة ، واستخلاص أحسنها وأفضلها ، لم يثره كل ما هو غريب ، أو رائع ، أو شاعري . ولم يحفل بكل ما يقترن بالاهتمام الشخصي ، بل إنه مضى قدماً في روايته دون أن يتأثر بذلك (٥٤) .

(٥٢) * أما اشارته بالتفصيل إلى ما حدث في انطاكية من اللذاج ، فإنما ترجع إلى ما انبعث من جث القتلى من رائحة كريهة . كما أن ما أشار إليه من اللذجة التي حدثت في بيت المقدس ، إنما أوردتها لأنها وقعت ، وخالف مرتكبوها أو امرأتان كرد .

يرى المؤرخ ميشو Michaud، أنه من العسير أن نستخلص من كُتَّاب القرن الثاني عشر، خطط المعارك، ونظام مسير الجيوش وما إلى ذلك، وأقره على هذا الرأى سائر المؤرخين المحدثين، الذين أرخوا لتلك الأحداث^(٥٥). ولم يخجل كتاب ولیم الصورى، وكتاب البرت الأخينى من هذا العيب. على أن هذا القصور لا ينطبق مطلقاً على كتاب أعمال الفرنجة؛ إذ اشتمل فى هذه الناحية على مادة وفيرة عن الحرب الصليبية الأولى. فتوافرت به التفاصيل المتعلقة بما يورده من أحداث، وحرص المؤلف المجهول على أن يعرضها على أحسن وجه، وأن يستجلى جميع جوانبها. فمن اليسير أن نقف منه على وصف المعارك، والحصارات، وما إلى ذلك من الموضوعات^(٥٦). مثال ذلك ما أورده فى دقة وتفصيل عن كل ما اتخذ به همد فى دوريلوم من أساليب الدفاع، من حيث المواضع التى اتخذها الجيش بأكمله، واستخدام الأسلحة المختلفة، فلما وصل إليه ما تبقى من القوات، أسهب فى وصف سير القتال، وشرح آخر الأمر، جهود الأسقف أدهيمر فى إحراز النصر^(٥٧). وعلى هذه الصورة، بل خير منها، وصف المؤرخ المجهول حصار أنطاكية، فأشار إلى أن المسيحيين لجأوا، بعد أن نزلوا بمكان مكشوف، وتعرضوا للهجوم من سائر الجهات، إلى إخلاء الأماك المجاورة لهم، وعملوا على أن يظلوا على اتصال بالبحر، ثم عمدوا آخر الأمر إلى أن يحيطوا أنفسهم بخط من القلاع والحصون^(٥٨).

وعلى هذا النحو جرى وصف كل ما حدث أثناء الحصار من الاشتباكات والمصادمات، وأورد كذلك ما جرى اتخاذه من التدابير لمهاجمة عرقة وبيت المقدس، وبذلك يشعر القارىء باطمئنان إلى ما يطالعه، ولا يلبث أن يؤكد ثقته فى المؤلف^(٥٩).

ولم يقبل المؤلف المجهول، إلا فى أحوال نادرة، أن يصدر أحكاماً على الأمراء وسائر الأفراد، أو يقحم نفسه فى المناقشات العامة. فإذا وقع ذلك، اشتهر فى أحكامه بالقسوة والشدة، على أنه التزم فى هذه الأحكام جانب

الصواب ، ولم يتحيز لأحد أيا كان ، فهو دائماً يذكر ما يليق أن يذكره شخص في مكانه (٦٠) .

لم يعثر سيبل Sybel إلا على مثال واحد ، لما عالجه من الأمور العامة ، ظهر فيه ما اتصف به أسلوبه من السذاجة ، ولم يجد في قراءته متعة . ويشير سيبل أيضاً ، إلى مقدمة كتاب أعمال الفرنجة ، فيورد ما قاله المؤرخ المجهول «حينما حان الوقت الذي اجتمع فيه المسيح برسله ، وصار كل يوم يتحدث إليهم ، مستشهداً بآيات من الأناجيل ، من أراد أن يتبعني ، فليجهد نفسه ، وليتخذ صليبه» (٦١) . ثم جرت حركة كبيرة في أنحاء فرنسا تدعو إلى أن كل من أراد أن يتبع السيد المسيح ، عن إخلاص وإيمان ، وشاء أن يحمل الصليب ، ويحذو حذوه من أجل الدين ، فلا ينبغي أن يتوانى عن ذلك ، بل يجب أن يعضى في الطريق الذي سلكه السيد المسيح . ولم يلبث أن بادر البابا ، ومن بصحبته من رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، والقسس ، ورؤساء الأديرة ، فعبروا جبال الألب ، وأخذوا يبدلون التتاليم والعظات ، فيقولون «من أراد خلاص روحه ، فلا يتردد في أن يسلك الطريق الذي اجتازه السيد المسيح . ومن يفتقر إلى المال ، فسوف يناله في وفرة ، بفضل الله وبفضل سلوكه» (٦٢) .

ولما ذاعت هذه العبارات وسمع بها الفرنج ، بادروا إلى أن يجعلوا على أكتافهم صلباناً حمراء ، وقالوا إنهم أجمعوا على أن يفتقروا أثر المسيح الذي خلصهم من جهنم (٦٣) .

فلو أن المؤلف لم يقصد أن يجعل قصته عن الحروب الصليبية متصلة

(٦١) * قال يسوع لتلاميذه : «إن أراد أحد أن يأتي ورأى فليترك نفسه ، ويحمل صليبه ويتبعني» (متى : ١٦ : ٢٤ ، مرقس : ٨ : ٣٤ ، لوقا : ٩ : ٢٣) .

(٦٢) * * من ذلك قوله : « سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمي » (أعمال الرسل : ٤ : ١٦) « فلا تخجل بشهادة ربنا ولا بي . أنا أسيره ، بل اشترك في احتمال المشقات لأجل الإنجيل » (الرسالة الثانية إلى تيموثاؤس ١ : ٨) .

الحلقات ، وإنما أراد أن يصف ما شاهده ، فإن هذه الافتتاحية حققت كل ما أراد . فما كان من إنجازها ووصياعتها في أجل وأصدق صورة ، نقلتنا مباشرة إلى بداية الحملة ؛ إذ أوردت المصدر الذي نبعت منه ، وهو الدافع الديني في الغرب ، وأشارت إلى أن البابا أيربان الثاني ، هو الذي وهب هذا الدافع الديني ، الحياة والقوة . ووضعت الطريقة التي تم بها حشد العساكر وتنظيمهم ، وأرجعت ذلك إلى ما اشتهر به الناس من الحماس الشخصي . أما خبر بطرس الناسك ، فإنه لم ترد عنه إشارة ، وكل ما ارتبط بهذه المغامرة من أفراد ، لا يتجاوزون المسيح والبابا وملوك غرب أوروبا (٦٤) .

والخلاصة أن كتاب المؤرخ المجهول Anonymous المعروف بتاريخ أعمال الفرنجة ، يعتبر أهم مصدر للتاريخ الصحيح للحرب الصليبية الأولى ، فإن مؤلفا كالمؤرخ المجهول ، يعتبر أصح من يعطى صورة صادقة عن الأحداث الكبيرة . بفضل ما اشتهر به من الدقة والأمانة ، والتجرد من المصالح والأهواء الشخصية ، والإيمان بالهدف الكبير ، وشدة الحماس الديني ، فضلا على اهتمامه بأمور الناس ، كل ذلك أكسبه من المهارة ما يجعله يفيد من المادة الوفيرة التي جمعت له ، في أن يرسم صورة لما اشترك فيه من الأحداث الهامة (٦٥) . فباعباره من الفرسان ، الذين أسهموا في الحرب الصليبية ، دون أو أملى كل ما شهد من الأحداث ؛ ومن ثم يعتبر تاريخه صورة صادقة ، لكل وقائع الحرب الصليبية الأولى ، منذ أن صحب بوهمند حتى الاستيلاء على بيت المقدس ، والانتصار في معركة عسقلان (نوفمبر سنة ١٠٩٦ - أغسطس سنة ١٠٩٩) . وفيما عدا ما يتعلق بأصول الحركة الصليبية ، ومسير غير نرمان لإيطاليا ، من الفئات الأخرى ، وإنشاء إمارة الرها على يد بلدوين ، يعتبر المؤرخ المجهول أصدق من كتب . ومن الدليل على سلامة مشاهداته ما كان من مطابقتها لما ورد في المصادر الأصلية الأخرى ، أمثال كتابات ريموند أجيل ، وفولشر ، والبرت ، وكذا بعض الرسائل التي ثبتت صحتها ، والتي صدرت من الصليبيين ، كالمسائل الصادرة عن ستيفن بلوا ، وانسلم ريمونت (٦٦) .

ونلس في المؤرخ المجهول أيضاً صفة أخرى ، تتمثل في أنه يعتبر
أخلص أنموذج للطابع القومي . إذ أنه يمثل العنصر النرمانى أحسن تمثيل ،
بما دأب عليه من الخلط بين الأمور الكنسية والعلمانية ، وفي الحرية التي
تناول بها معالجة كل الموضوعات ، فأخضع كل جزء من أجزاء الصورة ،
للتنظور وللصورة الكاملة (٦٧) .

أما ريموند أجيل ، فإننا نلص فيه البروفنسالى الخالص ، الملهب حماسه ،
الذى ينسب في غمرة الحاضر الواقع ، كل ما يتصل بالماضى والمستقبل ، فيمضى
قدما ، خطوة خطوة ، في عاطفة دافقة . ففي الأمور التافهة وقع من العداة
والخصام ، مثلما جرى في أهم أحداث الحروب الصليبية ، كالعداء الذى نبغ
منذ أن حدث أول نزاع حول انطاكية ، وأجج الخصومة بين بوهمند وريموند
أمير تولوز ، إلى أن أخذ نشاط بوهمند ما حدث من وقوعه في أسردانشمند .
بينما قضى على نشاط ريموند ما أصابه من كارثة في صحارى فريجيا في آسيا
الصغرى ، وبذلك انتهى دورهما ، على الأقل في الشرق الأدنى . (٦٨) ومع
ذلك فإن هذين الزعيمين (بوهمند وريموند) ، لا زال حتى الوقت الحاضر
يتحدثان إلينا بلسانيهما (٦٩) * ، وكل منهما يتحدث عن طبيعته وأعماله ، وما كان
بينهما من خصومة . وهذه الوسيلة ، لو أدركنا تماما ما تنطوى عليه عباراتهما ،
لم يتبق من النقط الهامة ، ما يحيطه الغموض والأبهام (٧٠) .

٣ - فولشر قسيس شارتر

Fulcher of Chartres

يصح تقسيم كتاب فولشر ، المعروف باسم Gesta Peregrinantum Francorum إلى أجزاء عديدة ، وهذا التقسيم إنما يقع وفقاً لطريقة التأليف وقيمة

(٦٩) * المقصود بذلك ، أن ثمة فئتان من المؤرخين ، فئة تمثل العنصر النرمانى ،

وفئة تمثل العنصر البروفنسالى . (أنظر . Sybel : Op. Cit. P. 121)

الكتاب ، على أنه ينبغي أن نورد ترجمة قصيرة لحياة المؤلف ، لما لها من الأهمية في نقد الكتاب .

كان فولشر قسيساً في شارتر (بفرنسا) ، اتخذ الصليب سنة ١٠٩٥ ، بعد مجمع كليرمونت ، دلالة على الاشتراك في الحرب الصليبية . وانحاز إلى جيش كونت روبرت النزمندى وستيفن بلوا . وسحب الجيش فاجتاز أبوليا وبلاد اليونان ، حتى بلغ في يونية سنة ١٠٩٧ ، معسكر الصليبيين ، الذي أقاموه أمام نيقية . وظل مع الجيش الرئيسي حتى وصل إلى مرعش ، ومنها توجه إلى الرهابصحة الكونت بلدوين ، الذي حرص على أن يستولى على المدينة (٧١) . وما أورده في كتابه من معلومات حتى هذه النقطة (الوصول إلى الرها) ، يعتبر صحيحاً وكبير الأهمية ، سواء من جهة وقائع وحقائق معينة ، أو من جهة الاتجاه العام للأمر . على أنه يصح أن نشير بصفة خاصة إلى تقريره عن الرحلة في إيطاليا وبلاد اليونان . ففي هذا التقرير ، أشار إلى الرأى الخاطيء غير السليم ، بأن الجيوش اجتمعت سوياً في غرب أوروبا ، وأن جموعاً كبيرة منها ، اتخذت طريقها إلى الشرق في جماعات قوية التنظيم ؛ إذ يقول « في شهور أبريل ، ومايو ، ويونية إلى أكتوبر ، وفي سائر أنحاء البلاد ، بذلنا كل ما في وسعنا للطواف بكل البلاد التي نستطيع أن نحصل منها على مؤونتنا » (٧٢) .

والمعروف أن أدهير أسقف باي عين القسطنطينية لتكون مركزاً تلتقى فيه الجيوش الصليبية . وما أورده فولشر من خبر سير الحملة من دويليوم إلى Eikle ، يعتبر كبير الأهمية وشديد المتعة ، لما اتصف به المؤلف من قدرات كبيرة في الوصف .

أما روايته عن الأحداث التي وقعت في الرها فتعتبر قاطعة وحاسمة ، نظراً لأنه كان الوحيد الذي يعتبر شاهد عيان لهذه الأحداث . وهذه الرواية

(٧٢) * هذه العبارة تخالف الرواية السائدة بأن الجيوش اجتمعت سوياً

وسارت في نظام شامل (Sybel : Op, Cit. P. 139.)

تتفق في جوهرها مع مارواه عن هذه الأحداث متى الرهاوى
Matthew Eretz of Edessa الذي يعتبر خير مصدر بعد فولشر. أما البرت
الأخيني وجيبرت ، فأوردوا روايات مختلفة (٧٣) .

على أن فولشر ، لسوء الحظ ، وقف في أخبار الرها عند هذا الحد ولم
يتعداه، ووجه اهتمامه إلى أخبار الجيش الرئيسي الذي لقي منه أكبر اهتمام . والواقع
أنه تكاد لا نصدق كيف أن معاصراً يتلقى هذه الأخبار الكاذبة، على حين أنه
لا يفصله عن أحداثها إلا مسيرة أيام قليلة . فكيف نثق في هذه الروايات
علماً بأنها ذاعت في الغرب في سنوات قليلة ، في صورة مضطربة بعيدة عن
الصواب؟ إذ احتج فيها التسلسل التاريخي للحوادث، ولم نلبس فيها دقة الخبر،
كما أن الحماس الأعمى وجد متنفساً وسبيلاً في قصص المعجزات . ومع ذلك
ففي هذه القصص نقف على فقرات هامة ، مثال ذلك خبر استيلاء تانكرد على
بيت لحم، الذي يؤيده رواية البرت الأخيني . وأيضاً رادولف، ما أورده فولشر
عن قيام تانكرد بنهب الهيكل أو المعبد، وما تلى ذلك من مفاوضات (٧٤) .

أقام فولشر في بيت المقدس، بعد أن غاب فترة قصيرة في الرها التي ظل
بها حتى وفاة جودفري ، ثم توجه في صحبة بلدوين الأول إلى فلسطين، وأضحى
له من المكانة عند الملك مثلما كانت له عند الكونت . ومنذ هذه اللحظة
صار لكتابه أهمية كبرى ، إذ نجح هنا فيما فشل فيه غيره من شهود العيان ،
فكان تاريخه صادقا ومفصلاً . ونستطيع من هذه النقطة أن نقرر الطابع
العام لكتابه (٧٥) .

من الواضح أولاً ، أن المؤلف لم يقصد أن يكتب تاريخاً ، فالواقع
أن الكتاب ليس إلا مذكرات يومية عن حياته الخاصة ، أورد بها كل ما وقع
من الأحداث دون تغيير . وهذه المذكرات ، رآها في هذه الصورة في سنة
١١٠٨ أو سنة ١١١٠ ، جيبرت في الغرب ، على الرغم من أن هذا الكتاب
هضى في روايته حتى سنة ١١٢٧ . وشغف فولشر بكل ما يهيمه شخصياً ، وأعدله
عن المسكان ، ما يختلف اتساعاً وضيقاً ، بحسب مزاجه ، وللتدليل على ذلك

تورد على سبيل المثال ، الفقرة التي روى فيها خبر استخلاف بلديين على بيت المقدس . استهل هذه الفقرة بوصف تفصيلي شيق عن مسير بلديين من الرها ، إذ صحبه مائتا فارس وسبعمائة من الرجال ، صاروا ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، فأرسل أمير طرابلس إلى خيامهم الخبز والخبز ، وعسل النحل واللحوم ، وفي الوقت ذاته أخطرهم بالكمين المنصوب لهم قرب بيروت . وأيد هذا الخبر ما اكتشفوه من احتلال المسلمين للدروب الضيقة الوعرة . ثم يصف المعركة ، وكيف أن المسيحيين لم يحرزوا أول الأمر نجاحاً ؛ فيقول : « اشتد بنا المرض ، وتظاهروا بالشجاعة ، غير أننا كنا نخاف الموت ، وأحببت أن أعود مرة أخرى إلى بلدي وموطني ، في شارر أورليان ، (٧٦) .

على أنهم ، لحسن الحظ ، شقوا طريقهم ، وأفرد فولشر صفحات عديدة أورد فيها وصفاً رائعاً للطريقة التي اختتمت بها هذه المغامرة . ثم بلغوا حيفا ، التي كانت وقتئذ من أملاك تانكرد ، الذي يعتبر ، فيما هو معروف من زعماء المعارضين لاعتلاء بلديين العرش . غير أن فولشر لم يدخل في شرح وتفسير العلاقات بين الأميرين (بلديين و تانكرد) ، فكل ما أورده أنه قال : « إننا لم ندخل حيفا ، لأن تانكرد كان وقتئذ معادياً لنا . » غير أنه مضى في روايته فقال : « ولما لم يكن تانكرد حاضراً ، فإن قومه باعوا لنا الخبز والخبز خارج أسوار المدينة ، لأنهم اعتبرونا أخوة لهم ، وكانوا حريصين على أن يقوموا بزيارتنا . » وفي موضوع آخر يشير « وحينما اقتربنا من بيت المقدس ، خرج لاستقبال الملك ، رجال الدين والعلمانيون في موكب جليل ، وخرج أيضاً على هذه الصورة اليونانيون والسريان ، يحملون الصليبان والشموع ، فاستقبلوه بمظاهر السرور والاحترام ، وبهباتهم المدوية ، وصحبوه إلى كنيسة القيامة ، (٧٧) .

ثم لم تلبث القصة أن تأخذ في الضعف ، إذ يقول « لم يكن البطريك داجوبرت حاضراً ، لما بلغ بلديون من نيمية أو وشاية عنه ، فخذ عليه ، ولذا اعتزل داجوبرت في جبل صهيون ، إلى أن غفر له الملك حقه ، » ولم يذكر سبب

هذا الشجار ، وكيف تطور ، ولم يظن أحد أن كيان المملكة المسيحية في الشرق تعرض وقتذاك للخطر ، ولم يحفل أحد بالملك ونزاعه الشديدة للحكم . ويمضى فولشر في روايته فيقول : أقمنا في بيت المقدس ستة أيام ، نعمنا فيها بالراحة ، ووضع الملك تنظيماته الأولية ، ثم تهبنا للرحيل من جديد . ثم تلا ذلك وصف تفصيلي لما يجري كل يوم من رحلاته في سائر أنحاء الجزء الجنوبي من المملكة ، ثم أورد بعدئذ وصفا بجملا للحملة الصليبية الثانية . وصحب الملك سنة ١١٠٢ في حملته على عسقلان ويافا ، ويقول فولشر د وفي عسقلان ، التقى (الملك) بفرسان يترقبون هبوب رياح موآتية ، وقد اشتد لهفتهم إلى العودة سريعا إلى فرنسا ، بعد أن فقدوا في السنة الماضية خيولهم ، وكل ما يملكون من متاع ، وذلك أثناء اجتيازهم رومانيا ، (٧٨) *

وكتاب فولشر ، أفاد كثيرا منه ، المعاصرون له ومن تلاهم من الكتاب ، إذ أن جيبرت وقف على ما ينطوى عليه . وعلى الرغم من أن جيبرت يدين كثيرا لكتاب فولشر ، فإنه كان يهاجمه ويشير إليه في سخرية ، دون أن يذكر تهمة معينة ضده . أما بارتولف نانجيجو Bartholf de Nangiejo ، فإنه لم ينكر فضله ، ففي كتابه المعروف باسم *Gesta Expugnationum Hierusalem* ، أقر صراحة بالمصدر الذي اعتمد عليه ، وهو كتاب فولشر (٧٩) . ونقل فقرات عديدة من كتاب أعمال الفرنجة ، غير أنه حرص على ألا ينقلها حرفيا ، بل تعمد أن يخفي الأصل . واتسمت فقرات أخرى بما غلب عليها من طابع القصص الخرفاني ، ولم يزعم المؤلف أنها حقيقية ، ومع ذلك ليس لهذا الكتاب أهمية (٨٠) .

وينبغي أن نشير هنا إشارة عابرة إلى الكتاب الذي ألفه لزيارد Lizard وعنوانه *Secund Historiae Hierusalem* ، تناول فيه أخبار الفترة بين

(٧٨) * وردت روايات مماثلة عن أمور أخرى ، تتعلق بمنتهجات البلاد وما بها من العادات الغربية ، وعن ماء البحر اللبث ، وعن التراثيل في كنيسة القيامة ، أنظر . (Sybel : Op. Cit. P. 142.)

سنتي ١١٠٠، ١١٢٤؛ على أن محتوياته لا أهمية لها (٨١).

على أن أهم ما اعتمد على كتاب فولشر من مؤلفات الحروب الصليبية ، الكتاب الذى ألفه اورديريكوس فيتاليس Ordericus Vitalis ، ويتناول التاريخ الكنسى . وألف فيتاليس تاريخ الحروب الصليبية ، معتمدا على فولشر وعلى بلديك ، غير أنه أضاف طائفة من الزيادات الغربية ، التى كانت شيقة وهامة ، برغم أنها لم تكن كلها صحيحة . على أن هذا الجزء من الكتاب ، بل الكتاب كله ، حوى قدرا كبيرا من المعلومات المحلية . فأورد ما امتازت به حقائق عديدة من الخصائص ، وأظهرها فى جلاء ووضوح ، فإذا أخذنا هانى مجموعها ، كانت عظيمة الأهمية فى استقصاء المعرفة عن طبيعة الأمور وأحوالها وقتذاك . وأكبر ما أورده من المعلومات أهمية وأكثر قيمة ، ما يتعلق منها ببطرس النامسك ، وأوتوبايو Otto of Bayeux وبعدهد كبير من نبلاء نرمانديا وشمال فرنسا . فلم يكن من المؤلفين من يضارعه فى إيراد صورة كاملة ، عن فكرة الناس وقتذاك عن الحروب الصليبية . ويشير بعض الكتاب إلى أنه غلب على كتابته روح الرومانسية التى اشتهر بها شعراء التروبادور ، فضلا عن الشعر (٨٢).

والواقع أن هذه الصفة لا تنطبق إلا على شطر من كتابه ، وهو الذى يتضمن أخبار الشرق ، ومن هذه الأخبار ، القصة التى يزعم فيها أن من الفرسان المسيحيين من اشتهر بالجاذبية والخلال الطيبة ، ما أدى إلى أن يقع فى هواهم بعض النساء (٨٣) . ومنها أيضا ما يشير إلى أن الحجاج المسيحيين لم يقا تلوا لخصب العرب والترك ، بل هاجموا أيضا قطحانا من الأسود والنمور ، وإلى أن السيد المسيح أعمى أبصار الأعداء ، كىما يتيسر للمسيحيين أن يحطموهم . ومن خلال هذه القصص نصادف فجأة حقائق على جانب كبير من الأهمية ، والتى لم تصدر إلا عن شاهد عيان ، مشهود بصحة أخباره وصدق مصادره ، التى تلقى الضوء على أهم أحداث الحروب .

والخلاصة ، أن المؤلف فولشر ، حصل على معلومات من مصادر عديدة ،

فلا شك أنه استمد قدرا كبيرا منها ، من أناس اشتركوا في الأمور التي عالجها . وتوافر عنده من هذه الأخبار ما اختلط فيها الصدق بالخرافة ، وأورد هذه الأخبار في أمانة ، دون أن يعلق عليها أو يشرحها ، ولذا فإن قصته لا يفيد منها من لم يستطيع التفرقة بين هذين العنصرين ، الخرافة والحقيقة (٨٤) .

ويتبقى بعد ذلك ، أن نشير إلى ما ورد في الجزء الرابع من كتاب Duchesne عن تاريخ فرنسا ، مرتبطا بكتاب فولشر (٨٥) . ففي هذا الجزء وردت أول إشارة إلى أن جود فرى رفض أن يتخذ لقب «ملك» ، وشارات الملك ، في بلد اتخذ فيه المسيح تاجه من الأشواك . يضاف إلى ذلك أن هذه الصفة ، صفة التواضع ، لم ترد على أنها من صفات جود فرى وحده ، بل من صفات البارونات الذين أحاطوا به (٨٦) * .

وعند هذا الحد تنتهى المصادر الأصلية المعاصرة ، التى تتمثل فى مؤلفات شهود العيان . إذ توافر لدينا أخبار كتبها أشخاص ينتمون إلى الأمم الثلاثة التى تألف منها الجيش الرئيسى للحملة الصليبية ، والتى تتمثل فى الزمان والبروفنساليين واللوورين . إذ أن كتاب ريموند الاجبلى يعتبر من المصادر الهامة فى أمور البروفنساليين ، غير أنه يقل مكانة عن كتاب أعمال الفرنجة ، فيما

(٨٦) * على أنه أفاد من فولشر ثلاثة من مؤرخى القرن الثانى عشر ، غير أنه نظرا لتجردهم من كل مادة مبتكرة ، فلن نعرض إلى مزايهم إلا قليلا . إذ أن Stenzal ، أورد مقتطفات من كتاب جري تصنيفه من كتاب الراهب روبرت ، مع بعض إضافات من فولشر . أما تاريخ رتشارد بواتو Chronicle of Richard of Poitou ، فإنه استمد مادته من ريموند اجبيل ، غير أن هذه المادة أصابها الخلط والاضطراب . ثم يضاف إلى ذلك تاريخ Sicard أسقف كرمونا ، الذى أورد بعض ملاحظات أصيله ، على أنه لم يورد إلا ملاحظات ضئيلة ، تتعلق ببطرس الناسك ، وبمعنى آخر أنه نقل ما كتبه عن فولشر حرفياً .

يتعلق بالإدراك السليم للحرب الصليبية الأولى . وما بين بوهمند وريموند التولوزى من علاقة لأشبه ما تكون بين الكتاين ذاتها . وعلى هذه الصورة تعلو مكانة كتاب فولشر وتهبط ، وفقا لما لأمرء اللورين من مكانة . ففي أثناء مسير الجيش ، لم يورد إلا عددا ضئيلا من التفاصيل الهامة ، حتى إذا تناول أخبار بلدوين الأول ، أصبح للكتاب أكبر أهمية . وكان بوهمند وقتذاك أسيرا ، ووقع ريموند التولوزى فى منازعات ومشاكل مع الدولة البيزنطية ، وبهذا لم يكن ثمة من ينازع ملك بيت المقدس فى زعامة الممتلكات المسيحية فى الشرق (٨٧) .

الفصل الثالث

مؤرخون نقلوا عن شهود عيان

١ - توديود Tudebod

سبق الإشارة إلى توديود قسيس سيشرای Sivray ، غير أننا لم نعلم عن حياته إلا القليل . يزعم بيزلي ، أنه صحب جيش بواتو Poitou ، الذي قاده أول الأمر هيجولوزيجنان ، ثم جاستون بيرن Gaston of Bearn ، على أنه ليس ثمة دليل إيجابي على ذلك ، فالقرار الذي اتخذته بيزلي إنما يرجع إلى أن هيجو كان وقتذاك أمير سيشرای . ولم يكن كتاب توديود إلا صورة منقولة عن كتاب أعمال الفرنجة ، وما أضافه من العبارات إلى متن أعمال الفرنجة ، لم تتعد إيراد قصص وحكايات ، ليس لها أهمية تاريخية . وأورد توديود بعض تفاصيل تتعلق بالاستيلاء على بيت المقدس ، وهذه التفاصيل ليست إلا من قبيل شرح بعض العبارات الواردة في أعمال الفرنجة أو تصويبها ^(١) . ويشير أيضاً إلى أن أخاه مات بأنطاكية ، وكان توديود من أتباع ريموند كونت تولوز ، وفرغ من كتابه قبل سنة ١١١١ ، لأن من الكتاب من أخذ عنه بعد هذا التاريخ ^(٢) .

٢ - جيبرت رئيس دير نوجنت

Guibert Abbot of Nogent

ينتمي جيبرت إلى أسرة نبيلة في بوفيه Beauvais ، ولد سنة ١٠٥٣ ، وشهدت سنوات شبابه الفترة التي أخذت فيها كنيسة روما تعمل على إخضاع العالم لسيادتها . واجتمع من الأحوال والظروف العديدة ، ما أخضع جيبرت للوثرات الكنسية ؛ إذ اشتهرت أمه بشدة التقوى ، فغلبت عليها الأفكار الروحية ، ونذر أبواه ، قبل ولادته ، بأن يهبا ابنهما لخدمة الكنيسة . ثم لم

يلبث أن صار راهبا ، في دير فلايغني Flavigny ، وذلك قبل أن يبلغ دور الرجولة (٣).

وكما شب وترعرع ، انبعث فيه نوازع الدنيا وميوها ، نهار شاعرا وموسيقيا بارعا ، وحاول أن يقلد ما كان لاوفايد وفرجيل من قصائد ، غير أن أستاذه شهد في نومه رؤيا تنذر بالشر ، كما أن الصبي نفسه أدرك أنه أذنب وأجرم في حق قوانين الرهبنة . وفي نطاق هذا الاطار الفكري ، التقى بأنسلم ، رئيس دير بيك Anselm of Bec ، الذي صار فيما بعد رئيس أساقفة كنيسة انجلترا . وبفضل نفوذ انسلم القوي ، تحول جيبرت إلى التزام الطريق المستقيم للكنيسة . ولما اشتهر به جيبرت من الصفات والمواهب ، ذاع صيته في الفصاحة والعلم ، فلم يلبث ، وهو في مقتبل العمر أن صار رئيسا لدير نوجنت على نهر السين . وظل بهذا الدير ، موضع احترام الرهبان والناس ، وذاعت شهرته في السياسة والأدب ، ومات سنة ١١٣٤ (٤)

أما كتاباته فانعكست فيها حياته وماترتب عليها من نتائج ؛ فلم يكن جيبرت خلوا من المواهب والقدرات ، فأقبل الناس على قراءة ما كتبه عن كل ماجرى في زمنه من أحداث . ومن المزايا التي عادت عليه من مكانته الكنسية أن تهيأت له الأحوال للكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية . إذ امتدت صداقاته واتصالاته في سائر أنحاء فرنسا (٥) ، على أن كثيرا من النقط الهامة التي أوردها إنمایدن بها إلى روبرت ، أمير فلاندرز (٦) . وسمح له مناسيس

(٥) * فملاحظاته عن نبلاء فرنسا (ص ٤٨٦) تعتبر عظيمة الأهمية ، واهتم أيضاً بالإشارة إلى نتائج مؤتمر كلير مونت والحروب الصليبية (ص ٤٨١ ، ٥٠٨ ، ٥٥٢) . غير أن ما كتبه عن جودفري وبوهمند لا يعتمد به ، لما اختلط بهذه الكتابات من الأساطير والحرافة .

(٦) ** كان من أصدقاء روبرت فلاندرز ، ولذا فإن ما أورده جيبرت عن رسالة الكسيوس إلى روبرت فلاندرز يستنجد به ضد السلاجقة ، يعتبر صحيحا .

Manasses، رئيس أساقفة ريمس ، بأن يطالع على رسائل أنسلم رئيس دير ريمونت ، وشهد جيبرت مجمع كايرونت (٧).

ولما اشتهر به جيبرت من العلم والثقافة، اتخذ أسلوباً بارصيناً، واهتم بالصياغة الفنية . ولم يجعل من الحروب الصليبية موضوعاً لدراسته ، إلا كما يصيغ من جديد كتاب أعمال الفرنجة ، حتى يصير مقبولاً عند القراء المثقفين . على أن ما أصابه من نجاح ، يعتبر أيضاً من الأضرار التي لحقت به؛ فإن ما انصف به كتاب أعمال الفرنجة من لغة بسيطة سهلة ، لم تلبث أن طغى عليها ، ما اشتهر به أسلوب جيبرت من الجزالة والرصانة . كما أن ما أحسه جيبرت من علو مكائنه جعله ، فيما يبدو ، يغفل آراء غيره من الكتاب ، وصار يردد أن كل من لا يقر أسلوبه في الكتابه ، فعليهم أن يلتسوا غيره من الكتاب . على أن ما غلب على جيبرت من الطابع الأدبي ، والادعاء والحذلقه ، وشدة الغرور ، جعله من أشد الناس نزوعاً إلى التهجم . فنادم الكنيسة الرزين ، الشخص الذي حالفه التوفيق في كل الأمور ، ورجل الكنيسة الذي ينتمي إلى الهيئة الحاكمة بها ، بالغ في الاحساس بالاعتزاز بمكائنه . وتبين شدة شعوره بقوته ، حينما هاجم فولشر أسقف شارتر ، لما أبداه من التشكك في أمر الحرب المقدسة ، ووجه إليه التأنب واللوم ، لأنه لم يؤمن بالمعجزات . فلم يذهب هباء ما درسه جيبرت عن الأرواح الشريرة ، وأنه شهد أيضاً رؤيات ، وأنه رأى شيوخ فكرة الأرواح والخوارق في كل مكان . على أن الشك أو الحماص ، لم يكن وحده هو الذي دفع جيبرت إلى أن يغضب على فولشر ، إذ أن اعتزازه بالتفوق العلي ، والاحساس بأنه ينتمي إلى هيئة أرثوذكسية (كنيسة روما) ، صارت لها السيادة والسيطرة ، هو الذي جعله يحط من قدر منافسه (٨) .

ولخاتمة كتاب جيبرت أهمية كبيرة ، فعلى الرغم من حرص جيبرت على أن يصوغ كتابه في صورة تاريخية ، فإنه لم يكن في وسعه أن يسيطر على كل ما ادخره من مادة . إذ أنه فرغ من نسخ كتاب أعمال الفرنجة

الذي اتخذه دليلاً ومرشداً، وتبقى لديه مادة وفيرة باللغة المتنوع، دون أن يستخدمها، وفيها من الفائدة والمنفعة مالا يصح أن تحرم منها الأجيال التالية . فعزم على أن يستخدمها في كل ما يعن له من الأحوال ، فأخذ يضم بعضها إلى بعض ، الغث منها والسمين ، والهام منها بالتافة ، دون أن يهتم بربطها ، حتى نفذ ما لديه منها من ذخيرة . هذه القصص امتدت أخبارها حتى منتصف عهد بلدوين الأول ، ومن اليسير أن ندرك مدى اختلافها في القيمة وفي صحتها وصدقها ، إذ اختلط فيها أتفه الأمور بأكثرها أهمية ، على أننا نلاحظ في بعض الأحوال ملاحظات شخصية عن أمور لم نعرف عنها إلا قليلاً ، كالتى تلقى ضوءاً جديداً على بعض الموضوعات المألوفة ، مثال ذلك ما ورد من التفاصيل عن حكومة روبرت النرمندى فى اللاذقية، والتي أفاد عنها Lappenberg^(٩)، والتي كان لها أهمية خاصة فى تصويب الرواية الشائعة ، التى أوردها عن هذه الحكومة البرت الأخيى، وفيما أورده البرت أيضاً عن الحملة الصليبية سنة ١١٠١^(١٠) .

استهل كتاب جميرت^(١١) * بسنة ١١٠٨ ، أو ١١٠٩ ، ومن المحقق أنه لم ينته منه حتى سنة ١١١٠ ، إذ يشير جميرت إلى أنه استمر فى الكتابة ، بعد أن مضت سنتان على وفاة مناسيس ، رئيس أساقفة ريمز ، والمعروف أن مناسيس توفى فى ١٧ سبتمبر سنة ١١٠٦ . وفى موضع آخر ، يشير إلى وفاة بوهمند ، والمعروف أن بوهمند مات سنة ١١١٠^(١٢) . ويرى بعض المؤرخين أن كتابه جرى تصديفه فى الفترة بين سنتى ١١٠٨ ، ١١١٢^(١٣) .

٣ - بلدريك رئيس أساقفة دول

Baldric , Archbishop of Dol

ولد بلدريك فى مين Meun ، بالقرب من أورليان (فرنسا)، وكان أول الأمر راهباً ، ثم صار رئيساً لدير بورجى Bourgueil ، وذلك فى سنة ١٠٧٩ ، ثم أضحي فى سنة ١١٠٧ ، رئيساً لاساقفة دول فى بريتانى . وتعتبر أخلاقه

(١١) * وكتابه هو المعروف باسم

الشخصية على نقیض أخلاق معاصره جیبرت. ولهذا الاختلاف أهمية كبيرة ، لأن یتیح لنا قدراً من الهدوء بعد شدة جیبرت ، ولأن بلدريك یمثل طرازاً مألوفاً ، برغم ما تعرض له وقتذاك من الظلم (١٤) .

فما تغلغل فی هیمة رجال الدين ، فی القرن الحادى عشر ، من الخماس والزهد ، كان بغيضاً لطبیعة بلدريك ، بينما كان متأصلاً فی طبیعة جیبرت . ذلك أن بلدريك لم يجد ما يمنع الحياة المسيحية من ممارسة العلم والفن الدنیوی ، ولا یقر عقله وتفكيره قمع الحواس واغفالها ، والانصراف التام إلى التأمل الروحی . فالنظرات الزائغة ، والصيام الشدید ، وكل ما یتصل بالأعمال المقدسة من طقوس وجلال ، لم تكن عنده كافية لأن تملأ حياة الناس (١٥) .

وجد بلدريك متعة فی هدوء الدير ، وحديثه الزاهرة ، وجداول مائة الصافية ، وأحراشه المورقة . بينما توافر فی حجراته الكتب والسجلات ، وكل أدوات العلم المعروفة . كتب إلى صديق له : هذه هى البقعة التى أجد فيها الهدوء والسلام ، . وفى حجراته صاغ أشعاره ، وعكف على دراساته المضنية ، وتبادل الرسائل مع أصدقائه الذين یتفقون معه فی الميول والأمزجة . وفى هذه الرسائل تناقشوا فيما كتبوا ، ومن هذه الكتابات ، تاریخ الحروب الصليبية ، الذى وضعه بلدريك (١٦) .

لم یشيروا فی هذه الرسائل إلى المنازعات الكنسية ، فلم یحفلوا بأمر قیام هیمة جديدة من رجال الدين بإعادة تنظیم العالم ، ولم یحفلوا بأنهم أغفلوا واجباتهم ، بل تركزت كل حياتهم الصالحة الحقيقية فی الكتب وفى الحدائق وفى المروج (١٧) .

على أنه لم يكن فی وسعهم فی كل الامور والاحوال ، أن يدافعوا عن حياتهم الهادئة ، ويحموها من العناصر المعادية . إذ أن أفكارهم تعتبر غريبة ومعادية لآراء الحزب (الفريق) الذى بيده السلطة . كتب (م ٤ - الحروب الصليبية)

بلدريك إلى أسقف أوستيا Ostia « إن سفيتي لا تسير إلا تسلا وتلصصاً ، وذلك لأن القرصان على اختلاف أنواعهم ، يحومون حولي ، ويحيطون بي من كل جانب ينهشون بأسنانهم ، لأنني لم أنخل عن كتبي ، ولأنني إذا خرجت لا ألقى بنظري إلى الأرض ، ولذا فترت همتي ، ووهن عزمي في العمل ، فلتتداركني بحمايتك ،^(١٨) .

علي أن بلدريك ، باعتباره من الأساقفة ، ظل وفياً لنفسه ولطبيعته ، اشتهر بشدة إيمانه ، ومع ذلك كان رقيق الحاشية ، لين الجانب . ومن المحقق أنه لم يحرز نجاحاً كاملاً في أسقفيته ، لما اشتهر به البريتون من القسوة والشراسة ، وبذا لم يكن صالحاً لأن يتولى منصباً كنسياً . فعادر بريتاني ، والتمس مكاناً أكثر هدوءاً وسكينة في بيك ، وفي فيسكان Fecamp ، ثم لجأ آخر الأمر إلى إنجلترا . فإن أمثاله من الرجال سوف لا ينالون شيئاً من تشاريف الإدارة الكنسية وترقياتها . ومن الطريف أن نلتقي بأشخاص من هذا الطراز ، لهم من الطباع مثلاً كان لبلدريك من طبيعة نقية مرحلة لطيفة ، في أزمته طفحت بالنشاط والحركة والحرب والتكشف^(١٩) .

وهذه الروح التي امتاز بها بلدريك ، انعكست في كتابه عن الحروب الصليبية^(٢٠) . اذاشتهر بالدقة وبالصدق والأمانة عند استخدام كتاب أعمال الفرنجة ، غير أنه احتفظ بطابعه عند التعبير عن أفكاره وآرائه . ولم يغفل ماجرى من المدح ، حتى لو كان من التبرك ، وحذف لفظه الملهد ، التي جرى إطلاقها على الإمبراطور الكسيوس ، والتي تكرر ورودها في كتاب أعمال الفرنجة^(٢١) . وحاول أن يلتمس المعاذير لستيفن كونت بلوا ، الذي نعمته الكتّاب بأنه وقع وبغيض Impudens Abominalibus ، وذلك لما ينتاب الطبيعة البشرية من ضعف عام^(٢٢) .

وما أضافه بلدريك من زيادات ، استمدها من رواية شفوية ، غير أنه أصاب فيما أورده من منتخبات . ومن الواضح أنه لا يجوز اعتباره شاهد عيان إلا في بعض الأمثلة ، فلا شك أنه يعتبر شاهد عيان ، حينما يشير إلى الأثر الذي تركته في فرنسا بوادر الحرب الصليبية^(٢٣) .

مات بلدريك قبل سنة ١١٣٠ ، وذلك لأن البابا هونوريوس الثاني علم بوفاته ، وكتابه عن الحرب الصليبية، كان فيما يبدو شائع الاستعمال؛ إذ أفاد منه Ordericus Vitalis ، واستمد منه ولیم الصوری في كتابه أمثلة كثيرة لها أهميتها ودلالاتها (٢٤) * .

٤ - تاريخ الحرب المقدسة

Historia Belli Sacri

لم يكن الكتاب الذي يحمل هذا العنوان، والذي لم يعرف مؤلفه، سوى جمع وتصنيف من كتاب أعمال الفرنجة ، ومن مؤلفات توديبود، ورادولف، وريموند . وكل هذه المؤلفات جرت الإفادة منها في هذا الكتاب . ومن الدليل على ذلك ، أنه أورد من كل مصدر من الأحداث ، ما لم يرد في المصادر الأخرى ، مثال ذلك أنه استمد من كتاب أعمال الفرنجة أخبار نيقية ، على حين أن هذه الأخبار لم ترد في توديبود . والفصل السابع من هذا الكتاب وارد في كتاب أعمال الفرنجة ، ولم يرد في توديبود (٢٥) .

على أن هذا الكتاب لم يخل من إضافات وزيادات مبتكرة ، ومن هذه الإضافات ، نستطيع أن نعرف شيئاً عن المؤلف . إذ يشير معظمها إلى بوهمند وأعماله ، فيصح أن نستخلص من ذلك ، أن المؤلف ينتمي إلى الزمان « بايطاليا » ، ومن الواضح أنه لم يكن من طبقة عالية . والراجح أنه أقام بعد الحرب في أنطاكية ، ويتبين ذلك من أنه تحدث في عبارات غامضة عن انتخاب ملك بيت المقدس ، على حين أنه أورد أخباراً صادقة عن حكم تانكرد من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٠٣ . وختم المؤلف كتابه بعرض سريع لحياة بوهمند ومغامراته، وهذا يدل على مدى صدقه والاطمئنان إليه (٢٦) .

وامتازت قصته بالحياة والنشاط ، وهي شديدة الشبه بسيرة المؤرخ المجهول . وهذا الكتاب تم تأليفه بعد أن تم الفراغ من كتاب أعمال الفرنجة .

(٢٤) * المعروف أن بابوية هونوريوس الثاني استمرت من سنة ١١٢٤ حتى

والراجح أنها أنجزت حوالي سنة ١١٣١ ، لأنه ورد بها ما يشير إلى وفاة
بوهمند (٢٧)* .

٥ - فولكو ، وجيلو ، وروبرت الراهب

Fulco , Gilo , The Monk Robert

يرتبط فولكو بجيلو ارتباطاً وثيقاً ، إذ أن كلامهما يكمل الآخر ، ولن
نستطيع أن نحكم على روبرت الراهب إلا عن طريقهما . فعلى الرغم من أن
جيلو لم ينقل في الشطر الأول من كتابه ، من كتاب أعمال الفرنجة ، شأنه
في ذلك شأن فولكو ، فإنه يدخل في نفس الفئة التي نقلت عن المؤرخ
المجهول ، إذ أن السكتب الأربعة الأخيرة من مؤلفه ، نقلها حرفياً من كتاب
أعمال الفرنجة .

لم نعرف عن فولكو إلا ما ورد عنه في كتابه ، عن أصله ، وموطنه ،
وتاريخ حياته ، ودراسته . فعنوان كتابه ، وهو تاريخ ما حدث في أزماننا
من الحروب الصليبية (٢٨)** ، يدل على أنه عاش زمن الحروب الصليبية . كما
أن العبارة الختامية الواردة في قصيدته وهي *Caetera describit Gilo* . تدل
على أن كان معاصراً لجيلو ، والراجح أيضاً أنه كتب من نفس الموضع
مثلاً فعل جيلو . وهذا كل ما نعلمه عنه (٢٩) .

ويعالج كتاب فولكو الأحداث الأولى من الحروب الصليبية حتى
حصار نيقية ، ويقع مؤلفه في ثلاثة كتب ، ووضعه شعراً . وما أورده في كتابه
عن الأخبار لم يكن جديداً ، بل كان شائعاً ومعروفاً ، شابه الخلط والاضطراب ،
وليس له قيمة تاريخية . ولم يشر فولكو إلى المصادر التي استمد منها
معلوماته ، والراجح أنه لم يعتمد على غير جيلو ، الذي ذيل على كتابه .
والمعروف أن جيلو ارتكن في كتابه على الرواية الشفوية ووثق فيها (٣٠) .

(٢٧)* نشر مايون Mabillon هذه القصة في الجزء الثاني من كتابه المعروف

باسم *Museum Italicum* .

History of the Crusades of Our Times. ** (٢٨)

أما جيلو ، الذى صار كاردينالاً للبابا كاليكستوس الثاوى ، فإنه بفضل هذه الوظيفة ، قام بسفارات هامة ، على أننا لم نعلم شيئاً عن وفاته .

وحينما كتب جيلو تاريخ الحروب الصليبية ، كان مقيماً بباريس وألفه شعراً ، ويقع فى سبعة كتب ، وجرت كتابته بعد سنة ١١١٨ ، وذلك لأن المؤلف ، عند الإشارة إلى بلدوين الأول ، يذكر أنه كان يحكم فى بيت المقدس . والكتب الثلاثة الأخيرة من مؤلفه ، منقولة من أعمال الفرنجة حرفياً ، فيما عدا ما أورد ، من ثلاثة إضافات تعتبر جديدة . أما الكتب الأربعة الأولى ، فإنها تعتبر قائمة بذاتها ، وتختلف فى نقط كثيرة عن كتاب أعمال الفرنجة ولم يرد بها إلا تصويبات قليلة له (٢٣١) .

واعتمد جيلو إلى حد كبير على الرواية الشفوية ، وحذا حذوه روبرت الراهب . ويعتبر ميشو أول من أشار إلى ذلك (٢٣٢) ، إذ لم يتردد ميشو فى أن يعتبر تاريخ روبرت الراهب ، المصدر الذى استمد منه جيلو تاريخه . ويشير ميشو إلى أن روبرت أضاف إلى متن كتاب أعمال الفرنجة الذى يعتبر مصدره الأصلي ، طائفة من الأحداث التى شهدتها بنفسه .

ونقل جيلو خبر هذه الأحداث فى كتابه ، بعد أن أضاف زيادات جديدة ، تعتبر تافهة لا قيمة لها . على أنه إذا اتخذنا موضوعاً معيناً ، مثل حصار نيقية ، عالجها هؤلاء المؤلفون الثلاثة ، فسوف ندرك أن جيلو وكتاب أعمال الفرنجة ، أوردوا روايتين بالغتى الاختلاف ، أما روبرت فحاول أن يجمع الروائيتين فى رواية واحدة ، غير أنه لم يكن موفقاً . وفى وسعنا أن نقمى أثر روبرت خطوة خطوة فى هذه العملية ، أى الجمع بين روايتى جيلو والجلستا ، وأن نرى أن هذه المحاولة ، للجمع بين روايتين مختلفتين ، أوقعته فى متناقضات شديدة الحدة ، وأنه حاول أن يوفق بينهما (٢٣٣) .

ولو استبعدنا المعلومات المستمدة من كتاب أعمال الفرنجة ومن جيلو ، فإن يتبقى لروبرت الراهب من المادة الأصلية إلا قدر ضئيل ، لا يتجاوز

خمس فقرات، يمكن الأخذ بصحتها وتصديقها^(٣٤) * . ونستخلص من ذلك، أنه لم يكن لهذا الكاتب من المسكاته ما كان مؤلف أعمال الفرنجة وريموند أجيل ، أو الناقلين عن هذين الكاتبين اللذين يعتبران من شهود الحرب الصليبية الأولى^(٣٥) .

ووفقاً للرواية السائدة ، صار الراهب روبرت رئيساً لدير سان ريمي في ريمس . على أنه تعرض للرم والتأنيب من برنارد رئيس دير مارموتيه Marmoutiers ، الذي يعتبر رئيسه ، وترتب على ذلك أن عزله مناسيس ، رئيس أساقفة ريمس . لجأ روبرت إلى البابا إيربان الثاني ، يلتمس منه الانصاف ، ولما صدر الحكم في روما لصالحه وذلك في سنة ١٠٩٧ ، اشترك في الحملة الصليبية الأولى ، وشهد الاستيلاء على بيت المقدس . وعلى الرغم من الحكم الذي أصدره البابا لصالحه ، لم يستطع أن يعود إلى منصبه ، بل تقرر تعيينه مقدماً لدير Senuc ، حيث عكف على كتابة تاريخ الحروب الصليبية . غير أن البابا كالكستوس الثاني ، لم يلبث أن حرّمه من هذه الوظيفة ، ومات روبرت سنة ١١٢٢^(٣٦) .

ولكل هذه الأحوال والظروف ، يعتبر روبرت مؤرخاً معاصراً . إذ توافر لدينا قرارات مجمع ريمس ، الذي قرر عزله ، والرسائل الصادرة عنه ، وعن اثنين من رؤساء الأساقفة ، وقرارات مجمع بواتيه ، الذي برأه^(٣٧) . على أننا نقف مطلقاً عن اشتراكه في الحروب الصليبية ، وعن تأليف تاريخ الحروب الصليبية ، الذي يعتبر أهم من كل ماسبق الإشارة إليه عنه . ففي كل تلك الوثائق لم ترد الإشارة إلى هاتين الحقيقتين ، ولم يشر إليهما مؤلف

(٣٤) * مثال ذلك رواية البروتسالي المرتد الذي انحاز إلى كربوغا، إذ وردت-

في صور مختلفة عند سائر المؤلفين . ففي ص ٦٦ ما يشير إلى عدد لاحصر له من الملائكة المحاربين إلى جانب الصليبيين ضد كربوغا ، وفي ص ٧٠ الإشارة إلى سلامة موقف ريموند فيما نشب من نزاع حول أنطاكية ، وفي ص ٧٣ ذكر ما حدث من

مناقشات بين الأمراء في كفر طاب (Sybel : P. 135.)

آخر . وأقدم مؤلف أشار إلى ما قام به روبرت من تأدية الحج ، كان بلوندوس Blondus في كتابه المعروف باسم Decades (٣٨)* . ويعتبر مارلو Marlot ، فيما أورده عنه في كتابه ، Metrobolis Remeusis ، أول من تحدث عنه باعتباره مؤلفاً ، in cella Senuceusi . على أنه ما لم يكن ثمة من الأدلة ، ما يؤيد هذين الزعمين ، ليس في وسعنا أن نتحقق ما إذا كان رئيس دير St. Remy ، هو روبرت الراهب ومؤلف تاريخ الحروب الصليبية ، كما أنه ليس في استطاعتنا أن نقرر أن الذى قام بالحج إلى الأراضى المقدسة هو رئيس دير St. Remy ، أو روبرت الراهب ، وهل هما شخص واحد ، أو شخصان مختلفان (٣٨) . فلو فحصنا ما لدينا من كتابات عن هاتين النقطتين ، فإن الدليل أحاطه الغموض والشك ، ولا يقطع باليقين أو الإثبات . فال مؤلف يشير إلى نفسه على أنه راهب فقط ، لا على أنه رئيس دير ، ويتحدث عن دير St. Remy ، لا عن دير Senuc ، باعتباره الموضوع الذى ألف فيه كتابه .

غير أن الكتاب جرى تأليفه بعد سنة ١١١٨ ، أى بعد أن مضى زمن طويل على إقامة روبرت في سينوك . ولم يرد في الكتاب إلا فقرة واحدة تدعونا إلى الافتراض أن المؤلف كان في بيت المقدس ، غير أن ذلك لا يدل على اشتراكه في الحروب الصليبية .

وكيفما كان الأمر ، لم يكن لهذا الكتاب أهمية كبيرة ، إذ أنه ليس إلا مجرد تصنيف ، لا يمتاز بأهمية خاصة . حتى لو جرى تأليفه في معسكر الصليبيين (٣٩) .

مكتبة
المهتدين

الفصل الرابع

رودلف ، ايكارد

Rudolph of Caen , Ekkehard of Aura

الواقع أن هذين المؤلفين لم يشهدا الحملة الصليبية الأولى ، ومع ذلك يصح اعتبار كتاباتهما من المصادر الأصلية ، بكل ما تنطوى عليه هذه العبارة من معنى ، لأنهما بما توافر لديهما من المعرفة والأخبار ، أوردوا وصف ماسبق الحملة الأولى وما تلاها من أحداث ، ولأن كتابيهما تضمنتا أخبار الأشخاص الذين اشتركوا في هذه الحملة ، وكان لهم فيها دور كبير الأهمية .

ولد رودلف في كاين حوالي سنة ١٠٨٠ ، ثم دخل في خدمة بوهمند الزرمندي في سنة ١١٠٧ ، وشهد حصار دورازو . ثم توجه بعدئذ إلى آسيا فصحب تانكرد أثناء مسيره لإنقاذ الرها ، وظل من اتباع تانكرد . وألف كتابه بين سنتي ١١١٢ ، ١١١٨ واعتمد في التأليف على ما استمده من ذلك الأمير من الأخبار^(١) .

والموضوع الرئيسي الذي يتناوله الكتاب ، هو تانكرد وما اشتهر به من صفات وخلال طيبة . وعلى الرغم من أن رودلف من أشد المعجبين بتانكرد وأكثرهم حماسة له ، فإنه لم يكن من شديته . وتعتبر السيرة التي ألفها رودلف ، بالغة الأهمية في كل ما نعرفه عن أخلاق تانكرد . يضاف إلى ذلك

(١) * وكتابه هو المعروف باسم Gesta Tancredi

أنظر H. Occ. III (المقدمة والفصل ٥٧)

والسر في تحديد زمن الكتاب بهذين التاريخين ، أنه صنف كتابه بعد وفاة

تانكرد سنة ١١١٢ ، وأهداه إلى البطريك ارنولف الذي مات سنة ١١١٨ .

ما اشتهر به رودلف من حاسة تاريخية قوية ، برغم ما تردد في مواضع من الكتاب من الأشعار : ذلك أن ماغلب على رودلف من البلاغة ، جعلته يبتعد عن جوهر الموضوع ، وينصرف إلى ابتداع الصور ، والمضى في الاستطراد والمتناقضات . ومع ذلك فإنه لم يعقل الصفة الحقيقية لما وقع من الأحداث (٢) .

يشير رودلف في تصدير الكتاب ، إلى أن تانكرد ذاته ، لم يفصح عن رغبته في أن يتولى (رودلف) وضح كتاب عن تاريخه ، وما أمده به من المعلومات لم تكن تنطوي على هذا الغرض . ولذا فإن ماورد في كتاب رودلف من الأخبار ، إنما استمدها من ذكرياته عن الأمير ، والتي تعتبر خلاصة ماجرى بينهما من أحداث . ومن الطبيعي أن تكون هذه القصص مجرد شذرات متفرقة ، اهتم رودلف بربطها سوياً ، أما ترتيب الأحداث وتعاقبها وإدراك الأمور بصورة شاملة ، فلا يعتبر كتاب رودلف في ذلك مصدراً مباشراً . وينبغي أن نميز ونفرك بين هذه الشذرات المتناثرة . فما تعلق منها بتانكرد مباشرة من حيث أرائه وأعماله ، تعتبر جديرة بالتصديق : لأن رودلف يعتبر فعلاً شاهد عيان لكل ما قام به تانكرد من أعمال ، ولاداعي مطلقاً لأن نشك في صدق ما أورده عن آراء تانكرد وأفكاره ، ويصح أن ينطبق هذا على بقية تاريخه . فما أثبتته في تاريخه من الأحداث ، على نوعين : النوع الأول منها ، كل ما يرويه تانكرد عن الأحداث لا يتجاوز ما يعلمه سائر عساكر الجيش ؛ مثال سير المعركة ، والموضع الذي وقع فيه القتال ، والتاريخ الذي حدث فيه الصدام والاشتباك . أما النوع الثاني ، فإن ما كان لتانكرد من مكانة ورتبة في الجيش ، هيأ له من الفرص ما يجعله ينفرد بأخبار خاصة ، مثال ذلك ، الخطة الموضوعة للهجوم ، والمفاوضات بين الأمراء وما إلى ذلك . ومن الواضح أن رودلف يعتبر ، عن هذه الفئة الأخيرة من الحقائق ، مصدراً بالغ الصدق والصحة ، على أن هذه الحقائق ، لم تكن لسوء الحظ وفيرة العدد . أما ما تبقى من تاريخه ، فلا يبلغ في المسكنة ما يباغته كتاب أعمال الفرنجة

أو كتاب ريموند أجيل، ولا تعتبر معلوماته أصيلة ، بل تأتي في الطبقة الثانية، أى أنها ثانوية . ولا بد أن تخضع كل ما أورده فيه من الحقائق للنقد المبني على الدراسة والبحث^(٣).

ولنحاول أن نشرح ، بمثال ، ما يقصد اليه رودلف ، وليكن المثال حصار أنطاكية، فهو يصف أول الأمر وضع الجيش المسيحي وفنائه المختلفة. ولم تلق أخباره في هذه الناحية أهمية ، لأنها تختلف مع الروايات التي ساقها كل من ألبرت أسقف آخن ، ووليم الصوري ، كما أن ما اختلط بهذه الرواية من أخبار الأحداث التي جرت عقب الحصار، أثارت الشك وعدم التصديق. ومع ذلك لا تتردد في أن تؤثر في هذا الموضوع تقرير أو رواية قائد عسكري ، على سائر المصادر الأخرى . هذا الرأي يبرره العناية الفائقة التي التزمها رودلف في شرح ما اتخذته من خطة الهجوم ، دون أن يحفل بالترتيب التاريخي لوقوع الأحداث ، فعند وصفه ماخاضه تانكرد من معارك تعتبر روايته رواية شاهد عيان .

أما سلسلة الأحداث التي تلت ذلك فلا وزن لها عندنا ، برغم أنه يجوز أن تكون صحيحة ودقيقة ، وذلك لأنه ليس في استطاعتنا أن نخضعها لنفس الترتيب الذي وردت به في مصادر أخرى^(٤).

وفيما يتعلق بأمر الاستيلاء على المدينة ، تعتبر روايته حاسمة في هذا الموضوع. فليس من المصادر ما هو أكثر ثقة ، في أمر خيانة فيروز، وما سبق هذه الخيانة من المفاوضات ، من تانكرد الذي استمد معلوماته من بوهمند مباشرة ، والمعروف أن ماجرى من مفاوضات ، إنما كانت بين فيروز وبوهمند^(٥).

وأدرك رودلف نفسه ، انقطاع الصلة بين الطريقة التي حصل بها على معلوماته ، والترتيب الذي وضع فيه الحوادث. والواقع أن كتابه يفتقر في جملة إلى مراعاة التناسب والتوازن التاريخي ، إذ تناول في إسهاب شديد

ذكر بعض الحوادث والشخصيات ، على حين أن بعض التدابير الهامة أوقرتة بأسرها، لم تحظ. منه إلا بكلمات قليلة . ففي حالات عديدة، بدا كأنه أغفل تماما تسلسل القصة ، وذلك لحرصه على أن يسترسل في إيراد أوصاف لاغناء فيها، أو يدخل فيما لا طائل تحته من مناقشات طويلة شديدة الالتواء ، على حين أن تفاصيل الحقائق لم يعالجها إلا بطريقة تحكيمية تعسفية (٦). ومثال ذلك نلتمسه في مقارنة ما أورده من الأخبار عن النزاع الذي وقع بين بوهمند وبين ريموند أمير تولوز عن أنطاكية ، بما ورد عن هذا الشجار في المصادر الأخرى . فما أورده رودلف من تفاصيل ، وأكثر من ذلك ، الترتيب الذي سلكه في رواية هذه التفاصيل ، يختلف تماما عن التفاصيل التي أوردها ريموند أجيل وكتاب أعمال الفرنجة . غير أننا لم نلبث أن نلاحظ أنه لم يعر التفاصيل أى اهتمام ، وأنه لم يوردها إلا ليدلل على صفة عامة ، تتمثل في العداء بين طبيعتي الزمان والبروفنساليين ، وأنه بهذه الفكرة اختار مادته وقام على ترتيبها . وبرغم ما أشار إليه من مبدأ ، فإن ما أورده من الحقائق ، نستطيع أن نقف عليها من مصادر أخرى تفضله (٧).

وسلك رودلف أيضا هذا الطريق في الأحاديث التي أجزاها على السنة أبطاله، وفي الرسائل التي أوردها ، فسلكها تكاد تكون متطابقة ومن اختراعه، كما يتضح ذلك من أسلوبها ، ومنها نستطيع أن نقف على طريقة تفكير المؤلف (٨).

والنسخة الوحيدة من هذا الكتاب ، هي التي وردت في كتاب تاريخ الحرب المقدسة Historia Belli Sacri ، وقد أشار ناشر هذا الكتاب إلى أنها منقولة عن مخطوطة المؤلف . ووجه الأهمية في هذه النسخة ، أنها حوت في هامشها ملاحظات أوردها نفس مؤلف المتن (٩) .

(٩) * وأتى رودلف في كتابه على كل من البطريرك أرنولف وبلدوين الأول ، وأنسكر ملكية بلدوين الثاني . وبفضل خدمته لسلك من بوهمند وتانكرد، أورد =

ايكارد ابطارد Ekkehard of Aura

بفضل أبحاث بيرتس Pertz الأخيرة ، تبسّر الوقوف على مؤلفات ايكارد التاريخية ، وعلى صلته بتاريخ أورزبرج Chronicle of Auersberg ، وبكتاب الحوليات السكسون . ونستطيع ارتسكازا على نفس المصدر ، أن نصدر حكماً سليماً على كتاب ايكارد المعروف باسم تاريخ بيت المقدس Hierosolymita (الذي نشره هيجمير - تيمبخن سنة ١٨٧٧) .

ومن مؤلفات ايكارد ، التي عرفناها عن طريق بيرتس ، كتابه المعروف بتاريخ العالم Chronicle of the World ، الذي انتهى فيه إلى سنة ١١٠٦ . ذلك أنه انتهى فيه أول الأمر إلى سنة ١١٠٠ ، ولما أدى فريضة الحج بالأراضي المقدسة ، أضاف إلى مؤلفه الأصلي ، زيادات كثيرة حافلة ، تناولت الأحداث حتى سنة ١١٠٦ . وهذه الإضافات تتصل كلها بتاريخ الحروب الصليبية ، وألف ايكارد جانباً منها أثناء مقامه بفلسطين (١٠) .

على أن ايكارد لم يلبث ، بعد بضع سنوات ، أن أعاد تأليف كتابه ، بناء على طلب ايركبرت Erkembert رئيس دير كورشي Corvey ، فعدل فيه بما يتفق مع تعليمات وإرشادات ايركبرت ، فيما يختص بالأراضي المقدسة . أما أخبار الحروب الصليبية ، فاستمدها من التاريخ الذي وضعه عنها ، ثم ألحقها بعد تعديلات صغيرة بآخر الكتاب (١١) .

ويتبين من ذلك أن نسخة أخرى معدلة من هذا التاريخ الذي ألفه ايكارد ، جرت كتابتها في سنة ١١٢٥ ، إذ أنه استمر في روايته حتى هذه السنة ، وتعرض المتن للتغيير والتعديل في مواضع عديدة (١٢) .

== من المعلومات ما تعتبر قريبة من معلومات كتاب أعمال الفرنجة ، غير أنه لم ينقل عنها . ومن الدليل على ذلك أنه لم يورد في كتابه من أخبار عديدة وردت في أعمال الفرنجة . وكلها في صالح تانكرد .

ومن ثم توافر لدينا أربع نسخ مختلفة الرواية ، النسخة الأولى مؤرخة -
في سنة ١١٠٠ ، والثانية ١١٠٠ ، ثم النسخة التي عدل فيها لصالح ايركمبرت ،
أما النسخة الرابعة والأخيرة فهي التي تمت كتابتها سنة ١١٢٥ .

وهذه النسخ كلها لا بد من دراستها ومقارنتها ؛ فالأولى وردت في ، مؤلف
المؤرخ السكسوني ، ووردت الثانية في مجموعة مارتيني Martene ، وعند المؤرخ
السكسوني أيضاً ، وجاءت الرابعة في كتاب تاريخ أورزبرج Chronicle
of Auersberg .

ويتبقى أن نبحث عن المصادر التي استمدت هذه النسخ منها مادتها ، وما
ألقته من ضوء على الحروب الصليبية .

ما أورده المؤرخ السكسوني من معلومات عن الحروب الصليبية ، تقل أهمية ودقة
عما ورد عند غيره من المؤرخين . فلم يشر إلى أصل الحروب الصليبية إلا إشارة
عابرة ، وغلب على أخباره الإيجاز ، منذ بداية الحرب الصليبية حتى حصار نيقية ،
فندند ، أخذ في الأسهاب والتفصيل ، ومع ذلك فإنه لم يجر على خطة معينة ؛
فبعض الروايات لا نلتزمه في غير هذا المؤلف ، على أن عبارات كثيرة إنما
تتطلب بعض التأكيد والإثبات كما تصبح كبيرة القيمة في معرفة ما وقع
فعلا من الأحداث . ولم يكن هذا الإثبات أمراً شاقاً ، فالمصدر الذي استمد
منه هذا المؤرخ أخباره كلمة كلمة ، قد وصل إلينا ، ويبلغ الغاية في الصدق .
وهذا المصدر هو الرسالة التي تتضمن وصف سير الحملة الصليبية الأولى ، وما
نجم عنها من نتائج حتى أغسطس سنة ١٠٩٩ ، وجهها إلى البابا باسكال الثاني ،
جودفري ، وريموند ، وروبرت النرمندي ، وروبرت كونت فلاندرز ،
وداجوبرت رئيس الأساقفة . وهذا التقرير حفظه دودشين Dodechin ،
وكثر الاقتباس منه ، غير أنه لم يجر استخدامه هنا على هذه الصورة ، إذ أن
ايكارد لم يتناول منه شيئاً بالحذف والإضافة ، بل قل أن غير كلمة واحدة ،
وليس ثمة ما يدعو إلى التشكك في صحة هذه الوثيقة (١٢) .

واقتبس ايكارد هذه الوثيقة في كتابه، وأوردها دودشين في مؤلفه، بعد أن رددما أوردها ايكارد عن السنوات السابقة. فإذا فحصنا الروايات المختلفة، لم نجد بها شيئاً من التحيز أو التعصب، بل إنها خلت، كما اشتهرت به الوثائق الرسمية من المبالغة أو الحذف، أو سوء الغرض، على أنها بالغت في عدد المشتركين في معركة عسقلان، ولذا تعتبر محتويات هذه الوثيقة بالغة الأهمية (١٣).

ولم تختلف النسخة المؤرخة سنة ١١٠٦، إلا اختلافاً يسيراً عن النسخة التي جرت كتابتها لايركبرت رئيس الدير. ومن الواضح أنها كتبت بعد سنة ١١٠٨؛ إذ أن المؤلف نعت نفسه بأنه رئيس دير أورلاخ، غير أنها من جهة أخرى لا يتعدى تاريخ كتابتها سنة ١١١٧، لأن ايكارد في حديثه عن الاستيلاء على عكا، وعلى زواج بلدوين الأول، إنما يشير إلى أن هذين الحادتين وقعاً حديثاً. وفي هذه النسخة جرى التوسع والاسهاب في تاريخ الحروب الصليبية؛ إذ أن ايكارد أبدى اهتماماً كبيراً بإعداد الحملة الصليبية الأولى وبدايتها، ومن الواضح أنه استمد معلوماته من أولئك الذين شهدوها. ويعتبر ايكارد مصدراً أساسياً عن حملة بطرس وفولكمار وجوتشالك وايمبخو. ففي سنة ١١٠١، وقع في يده في بيت المقدس، كتاب تناول بالدقة على حد قوله، الإشارة إلى الوقت والموضع الذي جرت فيه الحرب التي استمرت ثلاث سنوات (١٤).

أدخل ايكارد في التقرير الذي سبق الإشارة إليه، فقرات عديدة من الكتاب، الذي ضاعت نسخته الأصلية، ويعتبر ضياع هذا الأصل خسارة كبيرة نظراً لأن الاقتباسات المستمدة منه، تدل على أنه مصدر مفيد، يصح إضافته إلى المصادر السابقة. على أن أهم ما فيه من مادة جديدة، تلك التي وردت في الشطر الأخير من كتابه، حيث أورد المؤلف خبر قيامه بالحج سنة ١١٠١، إذ أن جانباً من الطريق الذي سلكه كان فيه بصحبة الجيش الذي هلك في آسيا الصغرى سنة ١١٠١. فتقريره هذه الكارثة لاغنى عنه، ولا بد أن ننظر إليه، في هذه المادة التاريخية، على أنه شاهد عيان. وامتاز وصفه للكارثة بالوضوح، وما أصدره من أحكام، تعتبر

أحكاماً سليمة مجردة من الهوى ، التزم فيها حد الاعتدال ، فلم يبالغ في
التهويل ، ولم يسرف في الخداع .^(١٥) .

ويشير بيرتس إلى أن هذا التاريخ انطوى على فقرات من سيجبرت
جيمبلو Siegbert of Gemblous ، غير أنه ليس موثقاً ، لأن هذا الكلام
ينطبق أيضاً على بقية الكتاب ، إذ لم يرد ما يدل على ذلك في الجزء الذي
يتناول فيه تاريخ الحروب الصليبية . على أن قدراً كبيراً مما ورد في كتاب
سيجبرت ، يماثل ما أورده ايكارد ، غير أن ذلك لم يتعد فقرات من الرسالة
التي وجهها الأمراء إلى البابا باسكال الثاني (١٠٩٩ - ١١١٨) .

أما في كل ما عدا ذلك من القصة أو السيرة ، فبينهما اختلاف كبير ،
والراجح أن كليهما استمدا معلوماً من مصدر أصلي واحد ، إذ أن سيجبرت
اقتبس بعض الفقرات من كتاب تاريخ بيت المقدس الذي نشره مارتيني^(١٦) .

على أن الصلة بين المؤرخ السكسوني ، وهذا الكتاب الذي صنفه ايكارد ،
لا زالت شديدة الوضوح ، فما بينهما من مغايرات واختلافات لم تكن كثيرة
وتعتبر عديمة الأهمية . وما يرويه ايكارد من أحداث في قصة متصلة مستمرة ،
بلجأ المؤرخ السكسوني إلى تقسيمها حسب السنوات ، ولم يصوب إلا أموراً
قليلة من التي أوردها ايكارد ، ولم يتناول التصويب سوى التواريخ^(١٧) * ،
فبطرس الناسك يتلقى من السماء (الله) التفويض ، وحفلت قائمة الأمراء
بأسماء جديدة (١٨) .

أما النسخة الرابعة من مؤلف ايكارد ، فنستطيع أن نستخلص من تاريخ
أورزبرج ، أنه فيما يبدو ، لم يجر إلا تغيير ضئيل في تاريخ الحروب الصليبية ،
وأنه لم يكن ثمة ما يدعو إلى تغيير وجهة النظر في الأحداث . على أنه ينبغي
أن نزاعى أن ثمة أدلة واضحة تشير إلى أن تاريخ أورزبرج أوردد روايتين

(١٧) * مثال ذلك ما يتعلق بأمر السفارة المصرية التي قدمت إلى أنطاكية

لمفاوضة الصليبيين (انظر — P. 154 : Sybel) .

متطابقتين . إذ تكررت روايتا المؤرخ السكسوني فيما يتعلق بأحداث سنتي ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، وشغلت الأحداث الالمانية من الكتاب أخبار سنة ١٠٩٨ . على أن المؤلف أشار في إيجاز إلى ما جرى سنة ١٠٩٩ من فتح بيت المقدس ، ثم أضاف إلى ذلك ، وفيما يتعلق بهذه الحملة السماوية (الالهية) ، رأيت أن أضيف بعض المادة . ثم أعقب ذلك بأن رد دكل كتاب ايكارد ، كما تضمنته نسخة مارتيني . على أن ذلك لم يغير في فكرتنا عن المؤرخ ، لأن كتابي ايكارد شملا متناقضات ، وردت جنباً إلى جنب دون اهتمام واكثرات (١٩) .

وشاع استخدام كتاب ايكارد بنسخه المختلفة في خلال العصور الوسطى ، ونشير هنا إلى من نقلوا عنه في القرن الثاني عشر . ذلك أن ملحوظات قصيرة متفرقة وردت في الحوايات ، أشارت إلى أنه «بناء على تحريض بطرس الناسك ، هرع إلى بيت المقدس ، حشد لاحصر له من الناس ، فأنزعوا تلك المدينة من أيدي الوثنيين (؟) ، بعد أن أرغموا اليهود على اعتناق المسيحية» (٢٠) .

واقبس Otto of Freisingen من ايكارد معظم المعلومات الواردة في الكتاب السابع من تاريخه ، غير أنه أجرى في ترتيبها تغييرات عديدة ، وأضاف إليها زيادات كثيرة . وأشهر هذه الإقتباسات ، هي العبارة الحاطئة التي شاع نقلها واستخدامها ، والتي تشير إلى أن إيربان الثاني عاد إلى منصبه بروما بفضل مساعدة الصليبيين .

وما ورد في تاريخ القديس بانتاليوني Chronicle of St. Pantaleone عن الحروب الصليبية ، إنما نقله بأ كمل من كتاب ايكارد ، بعد إجراء بعض التعديلات ، التي تدل أيضا على استخدام تاريخ أورزبرج Ursperg Chronicle (٢١) .

(٢٠) * هذه الحوايات هي : Annales Brunvilarenses .

Annales Hildesheimenses .

Annales Wirzburgenses .

ولفت ييرتس النظر إلى ما جرى من الافادة من ايكارد . أنظر Sybel : P. 155 .

أما تاريخ هيلمولد Helmold المعروف باسم تاريخ الصقالبة ، فإنه يتطلب شيئاً من الاهتمام . فمن الواضح أن هيلمولد نقل ما أورده عن الحروب الصليبية عن ايكارد أو أحد الذين نقلوا عنه ، غير أنه عهد إلى تركيز المادة التي نقلها مثلما فعل أوتوفرايزنجن . وينبغي أن نشير آخر الأمر ، إلى دودشين الذي لخص كتاب ايكارد .

وعند استعراض هذه الفئة من الكتاب الذين نقلوا عن ايكارد ، نلاحظ ما بينهم من نزوع مشترك ، لاسيما فيما يتعلق بجودفري بويون وبطرس الناسك ، وما اتبعوه من طريقة التركيز تكاد تكون واحدة . ونقلوا جميعاً كل الفقرة المتعلقة ببطرس الناسك في شيء من التفصيل ، ثم ركزوا في أضيق الحدود ما ينبغي أن يقولوه عن الحروب الصليبية ، فلم يشيروا إلى جودفري مثلما فعل ايكارد ، على أنه الرئيس الذي تم اختياره في بيت المقدس ؛ بل على أنه قائد الجيش (٢٢) .



الفصل الخامس

البرت قسيس أخن

Albert of Aix

لم نعرف إلا القليل عن التاريخ الذي صنفه البرت . والذي نعالجه فيما يلي .
ورد اسم (Alberich Canonicus Aquensis Ecclesiac) المؤلف بصفحة
العنوان ، على أنه البرت أو البريج (قسيس كنيسة ايكس) ، غير أنه ليس
من المحقق ما اذا كان المقصود بذلك ايكس الواقعة في بروقانس (فرنسا) ،
أو ايكس لا شابيل . وعلى الرغم من النقاش الطويل الذي دار حول هذه
النقطة ، فإنه لم ينته إلى حل المشكلة . على أن الراجح أنه من ا كس لا شابيل ؛
إذ يشير المؤلف في مستهل كتابه ، إلى فرنسا على أنها مملكة تقع إلى الغرب ،
فهذه الاشارة دليل على أن المقصود هنا ا كس لا شابيل ، لا ا كس بروقانس .
يضاف إلى ذلك أن الكتاب حفل بالاشارات الى كل ما يرتبط بألمانيا واللورين
من التقاليد والمصالح . فجودفري هو بطل المؤلف بلا منازع ، وسوف نلاحظ
دائما أثر ذلك في نهج القصة ، وكل ذلك يزيد في الترحيح بأن البرت ينتمى
إلى أصل ألماني .

وأما الفترة التي عاش فيها البرت ، والزمن الذي كتب مؤلفه ، فمعرضت
أيضا للنقاش والجدل . فأخر ما وصفه من الأحداث والوقائع يرجع إلى سنة
١١٢١ ، غير أن المسألة الوحيدة التي يصح الاطمئنان اليها ، هي أن هذا الكتاب
لا بد أن ابتداء تأليفه عقب ذلك التاريخ ، إذ أن المؤلف يشير في مواضع
عديدة إلى ما تلقاه من معلومات مباشرة من شهود عيان . أما المسائل الهامة
الأخرى ، كالتي تتعلق بالأمة التي ينتمى اليها المؤلف ، ومدى صدق الكتاب
وصحته ، فليس لدينا عن ذلك من الأدلة سوى ماورد في الكتاب ذاته ، فينبغي
أن نفحص أصل الكتاب كيما نصل إلى ما يتعلق بذلك من نتائج (١) .

وفي أحوال كثيرة أخذ البرت من شهود العيان من الروايات الشفوية، ما يتألف منها مصادر عديدة : وهو يردد في حديثه الإشارة إلى الأشخاص الذين زودوه بهذه الحقائق ، التي ترتبط بظروف وأحوال بالغة التنوع والاختلاف . فمن هذه الروايات رواية تشير إلى مسير جوتشالك عبر بلاد المجر ، ومنها ست روايات تتعلق بمصادفه الجيش الصليبي الضخم من أحداث ، وتشير رواية أخرى إلى ما وقع سنة ١١٠١ من هزيمة في آسيا الصغرى . على أن الصفة الغالبة على كل هذه الحقائق تكاد تكون متماثلة ، إذ دأب المؤلف على الإشارة إلى أعرب الأمور وأعجبها ، ثم يلتمس من مصادره ما يؤيد صحتها وصدقها . ففي إحدى الحالات ^(٢) يشير إلى ما لم يسمع بمثله من الفظائع ، وفي حالتين يردد ما اتصف به جودفري بويون ^(٣) من بسالة نادرة ، ثم يذكر ما غلب على الجيش الصليبي من يأس شديد في صحراء فريجييا ^(٤) (بآسيا الصغرى) وفي أنطاكية ^(٥) ، ويردد ما اتصف به الهيكل في بيت المقدس من الأبهة والروعة ^(٦) ، وما أسهمت به المعجزات في حفظ المسيحية في عسقلان ^(٧) . وأشار آخر الأمر إلى ما حدث في كارثة سنة ١١٠١ من الغرائب ، حيرت تغطي سطح الأرض ، مسافة أميال عديدة ، بأوعية من الذهب والفضة ، وسالت دماء القتلى حتى صارت جداول كبيرة . ^(٨) هذه هي القصص ، التي أراد البرت أن نصدقها ، والتي أسهب فيها ، مؤمنا أشد الإيمان بصدقها وصحتها . والواقع أنها ليست معجزات ، أو أدلة على التدخل المباشر من قبل القدر والعناية الالهية ، بل تعتبر صورة لبطولة الجند ، ولل فخامة الرائعة التي يخالطها البؤس الشديد ^(٩) .

هذه هي الأمور التي يولها البرت اهتماما خاصا ، وتدفعه إلى أن يلتمس لها مصادر من كل الجهات . والواقع أن هذه العواطف تظهر في كل كتاب البرت ، إذ أن كل الفضائل البشرية بلغت ذروتها في الحروب الصليبية ، ومن المستحيل أن ندرك أن من الأبطال من هو أعلا شأننا من أبطاله ، وأن من الأفعال ما هو أروع من التي ذكرها . هذه كانت معتقداته والدوافع الأساسية لدراسته ^(١٠) .

يقول البرت « منذ زمن طويل ، تشبعت بما سمعته من الأمور الغربية الحارقة ، وتلهمت لأن اشترك في هذه الحملة ، ولأن أعبد المسيح (المخلص) في كنيسة القيامة . ولما لم تتحقق هذه الرغبة ، رأيت أن أورد من الأحداث ، ما بلغنى خبرها شفويا من أولئك الذين شهدوها ، . فإذا كان ذلك هو الذى حدث فعلا ، وإذا كان لم يستمد تاريخه إلا من المصادر الشفوية فإن الكتاب يعتبر مصدرا بالغ الأهمية .^(١١) فليس فى وسع أحد أن يكون لديه فكره ، عن مقدار ما توافر لألبرت من المواد وتنوعها ، وما جرى من متابعتها الواحدة بعد الأخرى ، فى وضوح وذاتية رائعة .

فما أورده عن حلم بطرس الناسك ، أو عن أية مرحلة من مراحل الحرب الصليبية الأولى ، أو حينما عالج زمن جودفرى وبلدوين ، أو ماجرى من الأحداث فى أنطاكية والرها ، وسواء روى ما وقع من الأحداث أثناء سير الحملة الرئيسية ، أو أمعن فى استطرادات لاحدها ، كل ذلك لم يستفدما لديه من المواد ، ولم يتضاءل ما اشتهر به من قوة فى الوصف ليس ثمة حد لحياله وتصوره^(١٢) . ولم يحاول مطلقا أن يختصر تاريخه أو يركز أخباره ، فالجيش بأسره ، يسرع فى مسيره ، وتلعب الدروع تحت أشعة الشمس ، وترفرف الأعلام الحمراء (القرمزية) . ويميز المؤامف بين مختلف الأمم والأمراء ، ويتولى وضعهم على الترتيب ، فيقوم على قيادة هذه الجموع فى نظام دقيق محكم ، جودفرى ، وبوهمند ، وأسقف باى وغيرهم . ثم لم يلبث العدو ، أن تراءى لهم على مسافة ، على حافة سلسلة الجبال ، وقد امتطوا أخيلهم واشتدركضهم ، وعندئذ خرج من صفوف الجيش الصليبي عشرة فرسان ، فاستطاعوا بفضل شجاعتهم النادرة أن يدحروا اثنين من فرسان الأعداء . ثم جاءت الأمداد للفرقيين فتزايد عدد الجانبين ، واشتدت نائرتهم ، فتكسرت الرماح ، وأرغت الخيل وأزبدت ، وانعقد على ساحة القتال سحب من الغبار ، فكلم من بروئنسالى ، ولورينى ، ظهرت بطولته ، ومنذ البذى لا يعرف بسالة هذا المحارب ، وما بذله الآخر من الأعمال الصالحة ، وما اشتهر به الثالث من قوة ، وكلهم ذاع صيتهم فى داخل بلادهم وخارجها .

ثم تحطم آخر الأمر صفوف الترك ، وتلى ذلك مطاردة العدو في الجبال والأودية ، وفي الياوس والمغمور ، وحاز جند المسيح من الغنائم ، من الذهب والفضة ، ومن الإبل والحيل ، كل ما كان نفيساً وقيماً^(١٣) .

وفي الكتاب سلسلة متصلة الحلقات من الأحداث ، إذ يعقد الأمراء مجلساً ، ويتوسل رجال الكنيسة إلى المحاربين بأن يقاتلوا ، وكل شيء أوردته المؤلف في اسهاب واضح . وامتاز المؤلف في هذه الناحية بموهبة نادرة ، إذ أن كل فقرة من الفقرات لم تجر صياغتها عفواً ، أو جرى نقلها عن أحد ، بل صدر عن المؤلف سيل متدفق من الأوصاف الحية المنسقة . ومن المستحيل أن ننكر أننا صادفنا في هذا الكتاب ، جموعاً من الناس ، كانت ترى وتشقى وتتصرف على النحو الذي ورد في الكتاب . ومن المستحيل أن ننكر أيضاً أننا لم نتصل بحسب بصوت أمة واحدة ، بل بأصوات أمم عديدة ، أخذت تتحدث إلينا بمختلف الألسنة ، فأضحى لدينا صورة واضحة للعالم المسيحي المتحد ، هزت أسسه وقواعده ، حادثة شغلت عقول الناس جميعاً من أعلام إلى أدنانهم مكانة^(١٤) .

ومع ذلك فالكتاب رائع وجدير بكل مدح وثناء ، على الرغم من أنه لم يتوافر من الأدلة ما يكفي لتقرير قيمة البرت على أنه مؤرخ . أما مسألة ما إذا كان هذا الفيض من التفاصيل يلقي ضوءاً كبيراً على الغرض الأصلي ، وما إذا كان في وسع المؤلف أن يزعم لنفسه الصدق والصواب ، فإن ذلك كله لم يجر التعرض له مطلقاً . فلو أننا خصصنا الطريقة التي سلكها البرت لجمع مواده واستخدامها ، فسوف تظهر شكوك عديدة ، وهذه الشكوك سوف لا يؤكدنا بحسب ما يجرى من عقد مقارنة بين هذا الكاتب وسائر المؤلفين ، بل يؤيدها أيضاً ما يجرى من فحص لعباراته ورواياته^(١٥) .

ففي كل رواية تاريخية ، ينبغي أن تكون الحقائق دقيقة من الناحيتين الزمانية والمكانية ، وينبغي ألا يدمر ما لها من قيمة ما يرد في أجزائها من التناقض . ومن ثم لا تستطيع أن تقول أن البرت أوفى بهذا الشرط

الجوهري الذي لا بد منه ؛ إذ أن البرت لم يحفل بما يربط حقائقه من صلة ظاهرة ، أو بما تنطوي عليه من صلابة في جوهرها ، فالطريقة السهلة الحرة ، التي أسعفت مواهبه في الوصف ، هي نفسها التي جعلته يسرع ، دون اكتراث أو اهتمام ، في تأليف الكتاب . والصدفة وحدها هي التي ، فيما يبدو ، حددت ما إذا كان ما أورده من روايات منفصلة أو مستقلة ، تتفق الواحدة مع الأخرى ، أو أنه ليس بينها اتفاق وتطابق مطلقا . هذا الاعتبار لم يخطر على بال البرت ، ولم يثر اهتمامه . إذ أن هذه الاختلافات تردت في مئات الفقرات ، ولا بد لنا أن نعرض لبعض هذه الاختلافات .

فن الأمثلة على ذلك أنه أشار إلى أن الإمبراطور الكسيوس وجودفري نشب بينهما القتال في شهر يناير سنة ١٠٩٧ ، ولم تتوقف الأعمال العدائية إلا أثناء عيد الميلاد لما لهذا العيد من احترام وتبجيل ^(١٦) . فهو يربط هذا الحادث ، بملحوظة أخرى يقول فيها ، دون اكتراث واهتمام ، أن الإمبراطور البيزنطي (الكسيوس) كان يرسل يوميا الهدايا إلى الفارس اللوريني (جودفري) ، منذ يوم عيد الميلاد ، حينما تقرر الصلح بينهما ، حتى يوم أحد العنصرة Whitsuntide ^(١٧) .

ويروى البرت أيضاً أن روبرت النرمندي ، وستيفن بلوا ، ويوستاس البولوني ، كانوا مجتمعين بالكسيوس في القسطنطينية ، بينما كان جودفري يحاصر نيقية ^(١٨) . ولم يلبث البرت أن أشار نقلا عن مصدر آخر إلى أن من الصليبيين من اشترك في أول هجوم على نيقية ، أمثال ستيفن ويوستاس وغيرهما ^(١٩) .

وبعد أن أورد البرت ذكر معركة دوريليوم ، التي وقعت كما هو معروف ، في أول يولية سنة ١٠٩٧ ، مضى في روايته على النحو الآتي ^(٢٠) :
« لما توقفت الهجمات العدائية ، وعند بزوغ فجر اليوم الرابع ، سار الفرنج قدما ، وأمضوا تلك الليلة على قمة الجبل الأسود ، حتى إذا طلع النهار

هبط كل الجيش إلى وادي مالابيمواس Malabyumas ، ولم يوقف مسيرهم في النهار ، إلا ضيق الدرب وكثرة عدد العساكر ، وحرارة الشمس في شهر أغسطس . ولما لم يزل في هذا الشهر يوم أحد آخر ، اشتد ظمأ الجيش . فالاستخفاف التام وعدم الاهتمام بكل التواريخ ، بلغ من الوضوح ما لا يتطلب المضي في الفحص .

أورد البرت عن الحادث المشهور الذي وقع للدوق جود فرى أثناء الصيد ، خبرين مختلفين تمام الاختلاف . فيشير أحدهما إلى أن ما أصاب جود فرى من جراح إنما نجم عن صراع مع دب قرب أنطاكية ولم يتماثل للشفاء إلا بعد شهرين ، وفي الوقت ذاته كان لمرضه تأثير خطير على الجيش^(٢١) . أما الرواية الأخرى فتشير إلى أن الترك بادروا بهجمة الجيش المسيحي^(٢٢) على حين أن أدهيرم رتب أمر مسير الجيش ، وجعلت الرواية من جود فرى قائداً لمؤخرة الجيش^(٢٣) .

وأورد البرت خبر سوين Sweyn ، ابن ملك الدانمراقة ، على الصورة الآتية : « لا بد من ملاحظة أن سوين اقتنى أثر الجيش الرئيسي الذي كان وقتئذ يجد في حصار أنطاكية . وبعد الاستيلاء على نيقية ، توقف عن مواصلة السير بضعة أيام ، ثم استقبله الكسيوس في حفاوة ، ومن ثم سار مجتازاً رومانيا ،^(٢٤) .

ومن الواضح أن المؤلف اعتمد في هذه النقطة على روايتين مختلفتين تمام الاختلاف ، فمن إحداهما نقل خبر الاستيلاء على نيقية ، ومن الرواية

* «Caedem et strages operantur Boemundus et Godefridus (٢٢) praeterea illuscente die, dux Godefridus, Boemundus, et universi capitanei, exurgentes armis Ioricis induti, iter intermissum iterare Jubent .» Albert 111. pp.35 - 36.

الثانية استمد خبر الإمبراطور السكسيوس . والخلاصة أن العبارة في وضعها الراهن ، خالية من كل معنى (٢٥) .

ثم يمضى البرت فيشير إلى أن سويين لقي مضرعه على يد قلعج أرسلان في قونيه ، غير أنه أعقب ذلك بما رواه بالتفصيل من أن السلطان كان طوال حصار أنطاكية ، مقيماً بداخل المدينة ، أو كان مع كربوغا في الموصل ، كيما يعمل على اشتداد المقاومة ضد المسيحيين (٢٦) .

ومن الواضح أنه حرص على أن يشير في كل موضع إلى أن السلطان كان يشهد القتال ، وذلك لأن السلطان يعتبر أكبر عدو للحجاج المسيحيين . وعلى هذه الصورة أيضاً جرت الإشارة إلى جود فرى على أنه أكبر مدافع عن الحجاج المسيحيين ، وبهذه الصفة صار يقاتل العدو برغم ما أصابه من الجراح (٢٧) .

سارت الرها في حوزة بلدين ، الذي امتاز على سائر الأمراء ، على حد قول البرت ، بأنه تزوج من ابنة تافنوز Taphnus ، شقيق الأمير قنسطنطين . ثم تلى ذلك الإشارة مرة أخرى ، (ومن الواضح أن هذه الإشارة استمدتها من مصدر آخر) إلى أنه تزوج من ابنة أمير الرها المتوفى (٢٨) .

ووقع البرت أيضاً في متناقضات من حيث ترتيب الأحداث التاريخية ، وذلك فيما يتعلق بسفارة قلعج أرسلان إلى كربوغا . إذ أن ياغى سيان أرسل إلى قلعج أرسلان في شهر مارس ، يطلب منه العون والمساعدة (٢٩) * ، وقال كربوغا : « لن تمنى ستة شهور ، حتى أييد من وجه الأرض هؤلاء المسيحيين ، » (٣٠) . ومن الواضح أن البرت نقل عن مصدر آخر ، ما تلى ذلك من الإشارة إلى أن الجيش التركي (٣١) احتشد في اليوم المحدد ، وأنه أخذ في الزحف وأنه وصل في بونية إلى أنطاكية (٣٢) .

(٢٩)* جرى القتال في فبراير ، ثم تجدد ، ثم حدثت السفارة ، أنظر -

وأما خبره عن حصار بيت المقدس ، فإنه اشتمل على روايات متناقضة أيضاً . ويتضح ذلك من الرواية التي تشير إلى أن المسيحيين أثناء حصار المدينة ، أقاموا خطاً من الاستحكامات والمعازل على جبل الزيتون . وفي موضع آخر ، صار يصف جبل الزيتون على أنه مكشوف . وأن المحاصرين كان لهم مطلق الحرية في أن يجوسوا خلاله ، ولم يوصد إلا بعد أن تلى ذلك وقوع حادث كبير (٣٣) .

ومن الأمثلة أيضاً على متناقضات البرت ، ما يتعلق بإشارته إلى أحد القراصنة الفلنديكيين واسمه جينيمير Guinimer ، فعلى الرغم من أنه شخصية ضئيلة الأهمية ، فإن خبره تكرر في تاريخ البرت . وما أورده عنه ، اعتمد البرت فيه على روايات متعارضة متناقضة : فيذكر أنه استولى على اللاذقية ، وفي موضع آخر يشير إلى أنه بينما كان المسيحيون يحاصرون أنطاكية ، أخذه البيزنطيون أسيراً ، ولم يطلقوا سراحه إلا بناء على طلب جود فرى . وفي فقرة أخرى يشير إلى أن جينيمير لازال يسيطر على اللاذقية ، بينما صارت أنطاكية في أيدي المسيحيين ، وتخلي جينيمير عن اللاذقية ، إلى كونت ريموند صاحب طولوز (٣٤) .

وحينما حاصر الدوق جود فرى ، مدينة أرسوف ، تشير الرواية إلى أن جيرهارد أفسين Gerhard d'Avesnes ، وقع في أيدي المحاصرين فأوثقوه إلى عمود ، فتعرض بذلك لسهام رفاقه المسيحيين . ثم أشار البرت إلى تأثير المسيحيين في عسقلان ، فيذكر أن هذا التأثير بلغ من الشدة ، أن أمير عسقلان ، أرسل عن طيب خاطر إلى بيت المقدس الأخوين لامبرت Lambert وجيرهارد أفسين ، وهما اللذان جرى ربطهما إلى العمود (٣٥) .

وفي تاريخ الحرب الصليبية التي وقعت سنة ١١٠١ ، وردت حالات كثيرة من هذا القبيل ، غير أنه لا نستطيع الجزم بما إذا كانت هذه الحالات ترجع إلى ما في الروايات من اختلافات ، أو أنها ترجع إلى غفلة البرت وإهماله (٣٦) .

وحفمت تواريخ البرت أيضاً بمتناقضات عديدة ، فهو يشير مثلاً إلى أن جيش أنسلم أمير ميلان ، غادر القسطنطينية في ٩ يونيه ، والتقى بالترك لأول مرة في ٢٣ يونيه (٣٧)* . وتلى ذلك مباشرة الإشارة إلى أن جيش أنسلم سار ثلاثة أسابيع متتالية دون أن يلتقى بالعدو ، بل كان يسير في هدوء شامل (٣٨) .

ويروى عن كونت بواتو Poitou ، أنه وصل إلى حدود بلغاريا (٣٩) ، بعد أن انقضى ثمانى أيام على هزيمة الكونت نيفرز Nevers ، أى فى أواخر شهر أغسطس . ووفقاً لذلك ، لا بد أن يكون بالقسطنطينية حوالى منتصف سبتمبر أو أواخره . ومع ذلك فإنه يشير فى موضع آخر إلى أنه أمضى بضعة أسابيع فى القسطنطينية ثم غادرها إلى آسيا عند اقتراب موسم جمع المحصول (٤٠) .

ولم يكن البرت أيضاً دقيقاً فى رواياته التى تتعلق بالناحية الطبوغرافية . وفى الأسبوعين أو الأسابيع الثلاث ، التى سبق ذكرها ، سار أنسلم من نيقوميديا إلى انقره ، ثم إلى جرجره Gargara (هى جنجره Gangara فى Galatia ، التى لا تبعد كثيراً عن نهر هاليس) . وامضى أياماً عديدة فى اجتياز فلاجانيا Flaganina ، ثم أشار إلى وصوله إلى مرعش ، قبل يومين من وقوع الهزيمة ، ومن مرعش هرب الفارون إلى Synoplum ، والواضح أن المقصود بها سينوب . وما وقع من الأحداث بين جنجره وسينوب ، خالطته الحرافة والخيال . فاذا جرى الارتداد إلى البحر الأسود (بوتوس) ، فلا داعى لذكر مرعش الواقعة على الفرات ، والراجع أن هذا الاسم (مرعش) تسرب إلى الرواية من مصدر آخر . وكيفما كان الأمر ، فالمنظر كله جعله فى إقليم اسطورى ، كالذى سبق أن وصفه بأن أميالا عديدة منه غطاها ، بعد الهزيمة ، اكداس من الذهب والفضة (٤١) .

(٣٧)* ورد فى الكتاب الثامن ، أنه لما اقترب أحد عيد العنصرة (٩ يونية) ، بادروا الى التفاوض مع الإمبراطور البيزنطى فترة من الزمن ، ثم ارتحلوا بعدئذ . وفى الفصل الثامن اقتحموا انقره فى اليوم السابق ليوم القديس حنا (٢٣ يونية) .

وسبق أن أشرنا إلى أن انسلم بلغ أنقره بعد مسير استمر ثلاثة أسابيع .
أما الكونت نيفر فاتخذ إلى هذا الموضع طريقاً أكثر سهولة ويسراً ، إذ أن
مسيره من Kibotus (على خليج القسطنطينية) إلى أنقره لم يستغرق أكثر
من يومين . ولما لم يكن ثمة ما يجعل هذا الموضع يختلط بموضع آخر بهذا
الاسم ، فإن البرت يؤكد مطابقة الاسم لأنقره التي احتلمها أنسلم^{(٤٢)*}

على أن الاضطراب والخلط بلغ أقصاه ، حين أشار إلى مسير جيش
كونت بواتو من نيقوميديا إلى ستانكونا Stankona (قونية) ، ومنها إلى
فينيمينا (Philomelium) ثم إلى ريبكلى (Archalla) ، فكأه ارتحل إلى
كل نقط محيط آسيا الصغرى ، ومن المستحيل أن نستخلص من هذا الاضطراب
في التفاصيل معنى من المعاني ، أو ندرك ما بينها من الصلات^{(٤٣)**}

وفي الكتاب الحادى عشر ، أخطأ ألبرت في سنة بأسرها ، فجعل الاستيلاء
على طرابلس سنة ١١٠٨ ، والاستيلاء على صيدا سنة ١١٠٩^(٤٤) ، وهجوم
بلدوين على عسقلان في سنة ١١١٠^(٤٥) . وعلى هذا النحو يذكر ما حدث في
سنة ١١١٠ من الهجوم الذى قام به مودود أمير الموصل على أنطاكية ، على حين
أن هذا الهجوم وقع فعلاً سنة ١١١١ ، ويعتبر انتقاماً لما حدث من استيلاء
تانكرد على الأنارب يوم الثلاثاء السابق على أربعماء الرماد سنة ١١١١^(٤٦) .
وهذا الحادث ورد عند البرت في موضع آخر ، وجعله في تاريخه الصحيح
واستمده من مصدر آخر . وبهذه الوسيلة ، قلب رأساً على عقب الترتيب
الزمنى للأحداث فجعل تانكرد يهاجم الأنارب انتقاماً لما قام به الترك من
الهجوم على أنطاكية^(٤٧) .

(٤٢)* الواقع أن ثمة موضع آخر بهذا الاسم على مسافة يومين من القسطنطينية .

Sybel op. cit. P. 169

(٤٣)** المقصود بريبكلى ، ايركل Erkle الحالية ، والواقعة وقتذاك بأطراف

قلية الأرمنية - انظر 3.p.111 Albert:op.cit

هذه الطائفة من الأمثلة المستمدة من أجزاء متفرقة من كتاب البرت ، وتعلق بأحداث هامة ، تعتبر كافية للدلالة على الطريقة التي سلكها البرت في تأليف الكتاب . فألبرت وما اعتمد عليه من المصادر ، لم يحفل كثيرا في كتابته ، بالترتيب والربط والوحدة . إذ أن تاريخه ليس إلا سلسلة من تنف وشذرات لا حصر لها ، لا صلة بينها ، ولا تتفق أحداها مع الأخرى في الزمان والمكان ، فإذا ظن الشخص أنه عثر على بعض الصلة ، لم تلبث هذه الصلة أن تفلت منه ، إذ تترامى وتظهر الشخصيات المختلفة المتغيرة ، ثم لا تلبث أن تختفي ، ومن المحقق أنها لو مثلت أمامنا في صورة بالغة الوضوح ، فسوف نضل السبيل . فإذا اخترنا من هذه المادة الوفيرة ، حقيقة معينة قائمة بذاتها ، وأخضعناها للنقد الدقيق ، فسوف ندرك مباشرة ، أن ما سبق الإشارة إلى ما يغلب عليه من الطابع العام ، هو الصفة الصادقة الصحيحة .

وسبق الإشارة إلى ما امتازت به أوصاف البرت من تفصيل مسهب ، ومن خصائص لا حد لها ، تنفرد بها هذه الأوصاف ، ثم أدركنا أن هذه الأوصاف تسكاد تكون متماثلة ، وأنها لم تسهم إلا قليلا في مساعدتنا على معرفة الحقائق الصحيحة . إذ جرى وصف مسير الجيش ، وكيف تقدم خلال الوديان الغنية بالأشجار المثمرة ، واجتاز الدروب الجبلية الوعرة ، وكيف بدأ العدو هجومه ، ثم كيف هرب ، وكيف تم الاستيلاء على مدنه ونهبها وما إلى ذلك . أما النظام الذي التزمه الجيش في مسيره ، والفترة التي استغرقها سير الحملة ، والهدف الذي قصدت إليه ، فكل ذلك لا نعلم عنه شيئا مطلقا ، وإذا تصادف أن ورد عنه شيئا فلا يعتمد عليه ولا يركن إليه ^(٤٨) . والمثال الوحيد الذي أورده عن ذلك ، هو ما أشار إليه من أن أدهيمر أسقف بأى ، أمر الجيش بالزحف على انطاكية ، على أن يتقدم جانب منه للقيام بالهجوم على المدينة ، بينما يتولى الجانب الآخر حماية المؤخرة . ثم أورد قائمة طويلة بقيادة الجانبين من الفرنسيين والايطاليين والألمان والنرمان ، الأمراء منهم والفرسان ،

وبلغ من الخلط بينهم ، أننا لسنا في حاجة إلى دليل من المصادر الأخرى .
يدهونا إلى عدم تصديق كل ذلك . وينطبق هذا أيضاً على ما أورده من وصف
المعارك والحصارات ، والمفاوضات الدبلوماسية . وقد غمر كل الأبطال بالمدح ،
فالأسلحة تلعب ، والسيوف تتقارع ، والأسوار تبدو في فخامتها وجلالها
الرهيب . ومع ذلك لم نعلم كيف تحقق الانتصار ، ولم نقف على الخطة التي
جرى اتخاذها للهجوم والدفاع .^(٤٩)

ويصح أن نورد هنا بعض الحالات على سبيل المثال لا البرهان : فنجد
الاستيلاء على نيقية ، لا بد لنا أن نتصور أن مؤرخاً لهذا الحادث ، لاسيما
إذا كان البرت ، الذي اشتهر بالأسهاب في الوصف ، ينبغي أن يورد بالتفصيل
وعلى وجه الدقة ، كل ماجرى من المفاوضات بين الصليبيين والبيزنطيين ، عن
وضع المدينة بعد الاستيلاء عليها ، وأن يشرح الأثر الذي تركته عند الصليبيين .
غير أننا نعلم نعر على إشارة من هذا القبيل ، بل إنه بدلا من اهتمامه بتلك الأمور ،
أشار إلى راهبة جرى انقاذها من يد المسلمين ، بعد أن قامت بمغامرات عديدة ،
غير أنه لم يجر حثها على أن تتخلي عن عشيقها المسلم .^(٥٠)

فاذا تدبنا مسير الجيش الصليبي إلى دوريليوم ، تبين لنا أن المصادر لم
تورد معلومات دقيقة عن الطريق الذي سلكه الجيش ، والمواقع التي توقف
فيها . ولذا انعقد الأمل على ما أورده البرت من التفاصيل ، لعلنا نجد تفسيراً
لما ورد من أسماء بعض المواقع . وعلى الرغم من أن البرت أسهب في وصف
مسير الجيش ، وكيف سار أياما خلال الأخاديد والصخور ، وكيف اجتاز
النهر على جسر ، وعسكر في مروج ظليلة ، فأننا لم نحصل على معلومات صحيحة .
فاذا أردنا أن نلتمس من المصادر الأصلية ، فكرة عن أهم حوادث الحرب ،
فلا بد من استبعاد البرت ، على أنه مصدر أصلي .^(٥١)

وسبق الإشارة إلى أن سقوط أنطاكية تم بالتدرج ، بما جرى من تشييد
أبراج حول المدينة . غير أن هذه المنشآت لم تنل في تاريخ البرت من الاهتمام

ما لقيته المبارزات بين الفرسان، والمغامرات العاطفية التي لم تؤد إلى نتيجة من النتائج. وما هو أسوأ من ذلك، أن البرت، حتى في هذه المغامرات والمبارزات، وقع في أخطاء فاحشة فيما يتعلق بالزمان والمكان (٥٢).

ونشير من جديد إلى سفارة سليمان إلى باركياروق وكربوغا، لما لهما من أهمية في تقدير مكانة كتاب البرت، إذ توجه سليمان وصحبه إلى سمرقند عاصمة خراسان، فألقى الخليفة جالسا على العرش، في أبهة وجلال. فعمد السفراء إلى تمزيق ملابسهم، وأخذوا يصيحون، ويندبون ما كابدوه من المسيحيين من عذاب وشقاء، على حين أن الخليفة صار يضحك في بلاهة، ولم يصدق قولهم، وأخذ يسخر من سليمان، الذي لم يسهه إلا أن أبرز له شكوى ياغى سيان. أما كربوغا الذي اتخذ مجلسه إلى جوار العرش، فإنه نهض قائما وأعلن بصوت مرتفع بأنه لن تمضى ستة شهور، حتى يبيد جميع المسيحيين وأنه سوف يدعو لمساعدته أتباعه الذين لا حصر لهم (٥٣).

الواقع أن البرت لم يورد رواية مقبولة، عن حالة ملائكة السلاجقة، والأمراء المسلمين في أنطاكية، وعلى الرغم من أنه أشار بالتفصيل إلى أخبار الشرق في مواضع عديدة^(٥٤)، فإنه إذا فكرنا في أنه جعل ياغى سيان والخليفة يتحدثان عن السفارة كما لو أنها وقعت قبل أربعة شهور، لم تكن القصة بأسرها سوى مشهد أو منظر رائع، يناقضه ما سبق وقوعه من الأحداث. إذ كيف يساور الخليفة الشك في قوة الصليبيين بن وفي قدومهم، مع العلم بأن السفارة أوقفته على أمرهم منذ زمن طويل؟. الإجابة على ذلك، نستطيع أن نقرر، مثلما قررنا في الحالات السابقة، أن البرت أورد، عن جهل وإهمال، روايتين مختلفتين عن حادث واحد. أما ما يتعلق بالقصة ذاتها، فإنه طالما تكررت في كتابه، تصوير المسلمين بالقوة والعظمة والوقاحة أيضا. وشاعت هذه الصورة وقتذاك في أنحاء العالم، وترددت أيضا أوصاف مماثلة نبعثت من أحاديث الناس السائرة^(٥٥).

أما أخلاق البرت الشخصية ، فلم يتوافر لدينا عنها من كتابه دليل من الأدلة . فن خصائص البرت أن في وسعه أن يخفي انفعالاته وعواطفه ، وما استطعنا أن نكتشفه من طباع البرت وميوله سبق الإشارة اليه . وما كان له من ميل ونزوع ، لم يكن في جانب ما ارتبط بالقدر (الله) من المعجزات ، ومن تدخل خفي ، وذلك كما يضاف على أعمال البطولة البشرية العظيمة الزائدة والروعة الباهرة . فعلى الرغم من أنه استهل كتابه بالأسطورة الرائعة عن بطرس الناسك ، مبعوث العناية الالهية للحروب الصليبية ، فإنه لم يورد في كل تاريخه ، إلا النذر القليل من هذا القبيل . فلم يورد إلا اسطورا قليلة عن الحربة المقدسة ، مع أنها تعتبر مصدراً خصبياً للأساطير مماثلة في الشرق (٥٦) . والواضح أن ذلك من عمل البرت ، لا المصادر التي استقى منها هذه الأسطورة ؛ لأنه من المستحيل أن ندرئ ان ما ارتبط بأسطورة الحربة المقدسة من عجائب ، ومن كشف الهى ، غاب عن إدراك البرت وملاحظته . والواقع أن كثيراً من قصص البرت استمدها أصلاً من الآثار الروحانية ، ومن الدليل على ذلك أنه جعل للبابا أثراً كبيراً في الحروب الصليبية (٥٧) ،

واشتمل كتاب البرت على قدر كبير من الروايات المستمدة من الذين شهدوا الحروب الصليبية ، ومن المشتركين في هذه الحروب ، ومن سائر المعاصرين لها ، فوصلت إليه صحيحة دون تغيير ، ولم تجر محاولة لالباسها طابع المصدر التاريخى . ولم تتناول هذه الروايات إلا الصورة الظاهرية للأمور ، وفي تفاصيل بالغة الاسهاب ، دون اعتبار بما لها من صلة بمادة الموضوع ؛ فلم تكن ثمة محاولة للتعميم أو استخلاص أحكام عامة . فإذا كان بالكتاب شيء من الوحدة ، فلا نلتمسها في صحة الحقائق ، أو في الطريقة المنطقية لمعالجتها (٥٨) .

على أن الدراسة النقدية تتطلب أن نفحص هذه الأحداث في مصادر

أخرى ، حتى نقف على ما قد يكون من اتفاق بين هذه المصادر وبين البرت ، وإلى أى حد جرى هذا الاتفاق . فالنشابه بينهما يعتبر خير برهان على صحة ما أورده البرت من تفاصيل . لقد رأينا أن البرت أعلن صراحة أنه اعتمد أساساً على الروايات الشفوية التي أمده بها شهود العيان ، وأنه على الرغم من أنه وصل إليه قدر كبير من مادة مدونة ، فالراجح أن ما استمده من مادة من الرسائل أو المحادثات ، يفوق ما استمده من شواهد ، بقصد استخدامها لغرض تاريخي^(٥٩) . على أن التباين بين الرواية الشفوية والرواية المدونة ، يعتبر ثانويًا وطارئًا وفي أحوال كثيرة امتزجت مع الروايات الشفوية والمدونة ؛ ولهذا الملاحظة أهميتها ، إذ أنها تفسر لنا هذا القدر الهائل من الروايات والأخبار التي زخر بها كتاب البرت^(٦٠) .

لم يذكر جيبرت تاريخ فولشر إلا مقترنا بالنقد الشديد الذي لم يكن له في كثير من الأحوال ما يبرره ، إذ يقول :

(٦١)* "Fulcherium quaedum scabro sermone fudisse comperimus"

ثم يقول في الفقرة التالية :
"Dicitur, in sui, ni fallor, opusculi referre principio etc..."
على أننا لانستطيع ، بناء على ذلك ، أن نفترض أن الكتاب كان معروفًا عند جيبرت ، أو أن جيبرت ارتكن في حكمه إلى وثائق مدونة . ومع ذلك فمن الملحوظ أن جيبرت عمد بعدئذ مباشرة ، إلى أن ينقل حرفياً من فولشر القصة الطويلة للمعجزة ، والواضح أن هذه القصة لا تعتمد على رواية شفوية^(٦٢) .

(٦١)* للمعروف أن فولشر بلغ في كتابه سنة ١١٢٧ (أو سنة ١١٢٤ في بعض النسخ) وهذه الفقرة الواردة في جيبرت، جرت كتابتها بين سنتي ١١٠٨ ، ١١١٠ ، ووفقاً لهذا التوقيت يصح التسليم بما ورد في المتن .

أنظر. Guibert: op. cit. P. 552.

أما وليم الصوري، فإنه ألف الشطر الأول من كتابه، من المصادر والكتب المعروفة وقتذاك، إذ استمد مادته من كتاب أعمال الفرنجة، ومن ريموند أجيل، ومن فولشر، ومن البرت. وبلغ التوافق بينه وبين هذه المصادر، أن المطابقة تكاد تكون كاملة في الألفاظ والعبارات، وبلغ التطاق من الشمول ما لا يخفى على القارئ العادي^(١٦٣).

وعلى الرغم من كل هذا، يذكر وليم الصوري في مقدمته (بعد أن أشار إلى كتاب مستمد من المصادر العربية) ما يأتي:

“In hac vero nullam aut Graecam aut Arabicam habentes praedicam Scripturam solis traditionibus instructi, exceptis paucis quae ipsi oculata fide conspeximus”.

ومن الدليل على أن عبارة Graecam aut Arabicam لم تكن لها إلا أهمية ضئيلة، ما أشار إليه وليم الصوري في وضوح، في عبارة قصيرة عن موضوع مصادره^(١٦٤)، وهذه العبارة تتعلق بأحداث سنة ١١٤٣:

“Hactenus aliorum tantum, quibus prisci temporis plenior adhuc famulabitur memoria, collegimus relatione — et scripto mandavimus. Quae sequuntur deinceps, partim nos ipsi fide conspeximus oculata, partim earum, qui, rebus gestis praesentes interfuerunt fide nobis patuit relatione”.

والواضح أنه لن يتحدث الشخص عن مؤلفات جرى تدوينها منذ خمسين أو ستين سنة. مثلما يتحدث عن سير وتواريخ أولئك الذين لازالوا يحتفظون بأثر جديد لما حدث في الأزمنة الحالية. والواقع أن الفقرات التالية تنفي هذا الغرض، إذ أنه (وليم الصوري) يقول أنه تحدث مع بعض الأفراد الذين توجهوا بصحبة جود فرى إلى بيت المقدس، وحينما يشير إلى المصادر المدونة في أمور التاريخ، يتحدث أيضا في نعمة بالغة الاختلاف. إذ اتخذ من أعمال الملوك والبطاركة في بيت المقدس موضوعا خاصا لدراسته، فيتحدث عنهم^(١٦٥):

“Haec omnia etsi aliorum relatione comperta et etiam quorundam opera scripto mandata, presenti interseruimus narrationi”.

فجعل هنا لفظة ، relatio ، بدلا للفظة Scriptum (٦٦) .

وليس ثمة إلا وسيلة واحدة للأفلات من هذه المتناقضات ؛ فن الواضح أن تاريخي جيبتر ووليم الصوري ، مستمدان من تواريخ فولشر والتواريخ الأخرى . غير أنه ليس من السهل أن نجرح تماما جيبتر ووليم فيما أوردها من أدلة إيجابية . وما يبدو معقولا ومقبولا من الاقتراضات ، أن هذه الكتابات شاع خبرها ، وجرى تداولها تارة على أجزاء وتارة بأكملها ، إما على هيئة شذرات وإما في صورة فقرات ، وأن ما جرى صياغته منها من التواريخ ، لم يلبث أن تعرضت بالتدرج للتغيير والتبديل بسبب التكرار المستمر ، ثم وصلت إلى الأجيال التالية في أجزاء تختلف صغراً وكبراً عما كانت عليه ، وذلك إما عن طريق الرواية الشفوية أو الرواية المدونة ، دون الإشارة إلى المصادر الأصلية (٦٧) .

فيصح أن جيبتر اقتبس هذه الروايات ، مع الإشارة إليها بعبارة « روى ، ut dicitur » ، على حين أن وليم الصوري أوردها على أنها من الذكريات القديمة .

ومن اليسير أن ندرك أنه متى جرى استخدام هذه العملية ، كان ذلك في صالح الإبقاء على الرواية القديمة وما ارتبط بها من إضافات . فالسير الأصلية تفتتت إلى أجزاء صغيرة ، وصارت تبدو في مظهرها الخارجي بمائلة لما ساد من الأشاعات اليومية . وبهذه الوسيلة ، ليس من العسير أن تندمج سوا الروايات الشفوية والمدونة (٦٨) .

(٦٦) * الواقع أنه ليس للقصد بذلك الزامه بأن يتقيد بالمصطلحات ، على أنه لا بد من الاهتمام بدراسة ماورد في كتابه من الفقرات التي أشار فيها الى الروايات السابقة أنظر (W. T. IX. 17. XX 40 XXI. 26.)

وفي الوقت ذاته تدل الفقرة الأخيرة على أنه ليس في وسعنا أن نفكر في شاهد مباشر مدون ، مالم يتوافر لنا فقرات أخرى دقيقة . فالواضح من الفقرة أن عبارة بمائلة تشير الى حوادث معاصره ، ولذا لا تعرض لها في هذا للوضع .

(Sybel : Op. Cit. P. 178.)

وبذا اتضح لنا قدر كبير من الروايات ، فلم يمضى نصف قرن حتى صار
وليم الصورى فى وسط روايات حية ، استمد منها معلومات وفيرة ومتنوعة .
على أن هذا التفسير لا ينطبق على المؤلفين المعاصرين للحرب الصليبية الأولى ،
لأن جانباً كبيراً من أعمالهم إنما اعتمد على الروايات الشفوية . إذ يصرح
كل من جيبيرت و بولدرىك ، أن ما لم يشاهده أو ينقله من كتاب أعمال الفريجة
(الجستا) ، وصل إلى عليه بغير ذلك من الطرق . وهذا الزعم يؤكده
أيضاً فولشر فيما يتعلق بتواريخ السنوات الثلاث الواقعة بين سنتى ١٠٩٨ ،
١١٠٠ . ويعترف بذلك أيضاً كل من أوردريك ، وكتاب Gesta Expugn.
Hieros. فيما يتعلق بما أضافه كل منهما إلى بولدرىك وفولشر ، وسبق الإشارة
إلى أنه حدث ذلك أيضاً عند فولكو وجيلو وروبرت الراهب (٧٠)

على حين أن جيبيرت هو الوحيد ، من دون هؤلاء ، الذى حصل
على مادة تاريخية أصلية ، فضلاً عما استمده من الجستا . أما الإشارة إلى غيره
من الكتاب ، فإنما توقف فحسب على صدق ما وصل إليهم من الروايات ، على
الصورة التى سبق شرحها ، ولذا من العسير أن نحدد صفة الكتاب الذين
نقلوا عنهم (٧٠)

فأول ما يظهر من كتاباتهم ، الميل إلى التفاصيل التى يغلب عليها الطابع
البشرى والشخصى ، وشاع هذا عندهم ، لاسيما عند البرت ، حتى أنهم حذفوا
كل الاعتبارات العامة . على أن بولدرىك لم يضيف إلى « الجستا » ، إلا إضافة
واحدة ، وهى ماتعلق بالقتال ضد كربوغا : « تساقط أثناء الصباح ، الندى
المنعش ، فأثار فى العساكر النشاط » (٧١)

وسبق الإشارة إلى ميل أوردريك إلى القصص والنوادر ، ويعتبر
أكثر المؤلفين ذكراً للروايات المخالفة للمعايرة . و يروى جيبيرت
خبر قيام بلدوين فى الرها ، بما نقله عن شهود عيان ، وبما أورده
من وصف مسهب للاحتفال بتولية بلدوين حكم الرها ، فيشير إلى ما حدث
من أن الممثلين فى هذا الاحتفال ، تجردوا من ملابسهم ، وأخذوا

يتعاقبون^(٧٢). غير أن ما كان للمدوين من مكانة بين الناس، وأنه كان محبوبا، على حين أن الأمير السابق كان مكروها من قبل سكان الرها، كل ذلك شمله الاضطراب. فمعظم ما ألحقه «بالجستا» من إضافات تتعلق بحصار انطاكية لم تكن مقبولة، مثال ذلك أن الأمراء صاروا يعملون بأيديهم في تشييد حصن^(٧٣)، وأن الأسقف أدهيمر، أمر العساكر بأن يخلقوا لحاهم كما يجرى تمييزهم عن الترك^(٧٤). وكلما افترق فولشر عن جيبترت نصادف هذا اللون من الخرافات، فحينما توجه فيروز لمقابلة بوهمند، اجتاز متسللا، المعسكر المسيحي (٧٥)

ويروي فولشر عن بلدوين كيف أنه قطعاً أحد الأتراك، بينما يشير «الجستا» إلى أن ضربة واحدة احترقت التركي وحصانه، وعلى هذا النحو يجرى فولشر. وفي بعض الأحوال نصادف عند كثير من هؤلاء المؤلفين حقيقة هامة، غير أنها لم تكن دائما إلا من قبيل ما يثير خيالهم^(٧٦).

وكما نتعرف في وضوح إلى ماورد في هذه الروايات من ضروب الخيال والاختراع، لا بد لنا أن نوازن ماورد من وصف حادث معين عند أفراد عديدين. ففي حالات عديدة، نصادف إلى جانب الخبر الصحيح الوارد في المصادر الأصلية، رواية أخرى مختلفة تمام الاختلاف، لا تعتمد إلا على الرواية الشفوية. ويورد البرت أمثلة كثيرة عن هذا الأسلوب في المعالجة والعرض، وتارة تعدد الصور المختلفة للرواية.

مثال ذلك، أن الحادث الذي وقع للدوق جودفري أثناء الصيد، ورد في أربع روايات مختلفة^(٧٧)، ووردت ثلاث روايات عن خبر وفاة روجر بارنيشيل Roger of Barneville، وأشارت أربع روايات إلى خيانة فيروز^(٧٨). أما وفاة جودفري فورد ذكرها في أربع روايات لا تمت إلى الحقيقة بصلة ومن اليسير أن نذكر أمثلة عديدة من هذا القبيل. غير أننا نعرض هنا لأمثلة جرت على نهج مخالف، ولها أهمية كبيرة في معرفة هذه المصادر.

أورد ايكارد ، في حوادث سنة ١١٠٠ . أو سنة ١١٠١ . خبر ما حل من هزيمة بجوتشالك في بلاد المجر ، غير أنه لما تبين له سنة ١١٠٦ أن هذا الخبر غير صحيح ، لم يتردد في إنكاره وتكذيبه . على أن هذه الأخطاء ذاتها وردت بالتفصيل وفي اسهاب في كتاب البرت على الرغم من أنه كتب سنة ١١٢١ . فعلى الرغم من أن الرواية كاذبة ، فإنها تردت بعد مضي عشرين سنة^(٧٩) . وما أورده البرت من خبر معركة دوريلوم ، كان جيلو قد سمعه في باريس ، منذ سنوات سابقة على البرت^(٨٠) .

أما رادولف الذى كتب تاريخه في أنطاكية بعد سنة ١١٣٠ ، فإنه أورد معلومات متعارضة مع البرت ، ويضيف إلى ما ذكره : « ومع ذلك ، فواقع أن العكس لا زالت روايته تتكرر ،^(٨١) . وعلى الرغم من أن هذا الخبر لا أساس له من الصحة ، فإنه ذاع وقتذاك في ألمانيا وفرنسا ، فضلا عن انتشاره في سوريا وفلسطين . أما الخبر الذى أشار إليه رادولف عن الشجار بين بلدين وتانكرد في طرسوس ، فيصح تصويبه بالرجوع إلى « الجستا »^(٨٢) . على أن هذا الخبر جاء أيضاً عند البرت ، ومن اليسير أن ندرك أنه استمدته من مصادر لورينزية^(٨٣) . هذا هو جوهر الرواية ، لم تكن مقيدة بقواعد ، فتارة تستطرد إلى أحداث وقصص لا حصر لها ، بأن تجمع سويا أشخاصا عديدين وبأن تجرى تغييرا في العبارات ، وتارة تتخذ نقطا معينة ، وتحرص أشد الحرص على الاحتفاظ بها فتنتشر في سائر الأنحاء طولا وعرضا ، حتى إذا ظهرت من جديد ، بعد سنوات عديدة ، في جهة من الجهة من الجهات ، كانت بعيدة كل البعد عن المصدر الأصلي ، ولم تحفل بالزمن أو المكان أو الحقيقة . إذ قد يجرى عند بعض المؤلفين أن تختلط سويا أحداث مختلفة دون اكتراف ، ويجرى أحيانا الإشارة إلى نفس الحادث في موضع آخر ، كأنه لم يحدث من قبل . ومن الأمثلة عن النوع الأول ، الخبر الوارد عن بطرس الناسك عند جيبرت

وفولكو ، فقيه نشهد حملة والتر وبطرس وثورلكمار وجوتشالك وقد تشابكت واختلطت . فتألف هذا الخليط الخرافي ، في أوله من مصدر ، وفي وسطه من مصدر آخر ، وفي خاتمته من مصدر ثالث ، ويعتبر جانب من هذا الخليط تليفاً خالصاً ، كما أن جانباً منه لم يكن إلا صدى لما ورد في البرت من روايات . والخلاصة أن هذا الخبر ليس إلا حلماً مفزَعاً معقداً محيراً^(٨٤) .

أما المثل التالي فهو من طبيعة مختلفة ؛ فما اشتهر به بوهمند من عداوة للإمبراطور الكسيوس كان أمراً معروفاً عند المعاصرين ، فما من أحد يتصور أن الزمان اجتازوا الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٠٩٧ ، تحذوهم النوايا الطيبة . فمن التقارير التي أرسلها بوهمند إلى سائر الأمراء ، ما يشير إلى إنارتهم وتحريضهم على قتال الكسيوس . وأدرك البرت هذه الحقيقة ، فيروي أن الدوق جود فرى رفض دعوة بوهمند إلى قتال الكسيوس^(٨٥) . وأورد أوردريك أيضاً نفس الحقيقة غير أنه أشار إلى أن بوهمند لم يرسل الدعوة إلا إلى كل من الدوق روبرت والكونت ستيفن^(٨٦) .

هذه الملاحظات تعتبر كافية لتوضح ما بلغته الدائرة التي نفكر فيها من اتساع شاسع . فالنقطة الجوهرية في خبر البرت ، والتي شاعت عند سائر المؤلفين ، تتلخص في أننا لا ننظر إلى هذه الأخبار ، على أنها لشخص معين مشهور ، له من الأخلاق والمسكينة ما يجعلنا نتعرف إلى قيمة عمله ، بل ينبغي أن ننظر إليها على أنها أجزاء لقصة واحدة طويلة ، ذاعت في أنحاء الغرب ، فينبغي أن نخبر في كل مرحلة من مراحلها مدى صدقها وصحتها . ويتصافد أن قدراً كبيراً من هذه الرواية يصل إلينا باسم البرت^(٨٧) .

على أن ما اتخذ البرت في روايته من طريقة مضطربة ، شديدة الغرابة والتناقض ، لم تهيبه الفرصة لفرز مادته واستخلاصها ، على النحو الذي ينبغي أن نتوقعه من مؤلف ، مثل البرت ، فلا يسعنا إلا أن ننظر إلى محتويات كل جزء من الرواية على حده ، وأن نتساءل ، دون الإشارة إلى نصيب البرت

في الموضوع، إلى أي حد تبلغ من الصدق أخبار المؤلفين الذين اعتمد عليهم البرت . وينبغي أن نفعل ذلك أيضاً في كل الروايات، فعلينا أن نعرض من بعض النواحي ، إلى وصف صفات هذه الروايات ، وينبغي أن نكتشف مقدار ما تحتويه عباراتها من الصدق ، ومقدار ما تشمله من الخيال والاختراع^(٨٨) .

فالواضح أنه ليس في وسعنا أن نعتمد لإفليلا على صحة هذه الروايات وصدقها . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن من الروايات الثلاث أو الأربع المختلفة ، روايتين أو ثلاثة يغلب عليها حتما الخيال والخرافة^(٨٩) .

فما يتعلق بتاريخ الحرب الصليبية ، نستخلص من الدراسات المختلفة عن البرت ومعاصريه ، أنهم قلداً التزموا الصدق . ونستطيع أن نلتصم الدليل على ذلك من الشطر الأخير من كتاب البرت ، فنختار على سبيل المثال فترة من عهد بلدوين ، فإنها حوت من الاختلاف في التفاصيل ما يؤدي إلى التناقض في النتائج^(٩٠) .

فمن الاختلافات المعروفة بين البرت ووليم الصوري، ماورد في تاريخيهما عن النزاع بين بلدوين والبطريك داجوبرت . فالرواية عند أحدهما مختلفة أشد الاختلاف عن رواية الآخر . إذ أن وليم الصوري ، الذي يصرح بأنه أولى هذا الموضوع اهتماماً خاصاً وبذل جهداً كبيراً في استجلائه ، يبرئ البطريك من كل ما تعرض له فيقول : والواقع أن داجوبرت عارض في أن يتولى بلدوين العرش ، غير أنه (داجوبرت) لم يفعل ذلك إلا لأن الحزب اللوريني رفض أن يبذل للبطريك ما جرت به العادة من الولاء ، المعروف في النظام الاقطاعي . وكيفما كان الأمر ، فإن ما حدث من الشقاق المكشوف ، إنما يرجع إلى أكاذيب عدوه اللدود أرنولف . غير أن هذا الشقاق لم يلبث أن جرت تسويته في هدوء ، قبل عيد الميلاد سنة ١١٠٠ . وظل مركز داجوبرت

قوباً ، لا يتازعه فيه أحد ، حتى أرغمه أرنولف بما لجأ إليه من الضغط على رجال الدين ، على الفرار إلى أنطاكية سنة ١١٠٣ ، (٩١) . ثم أشار البرت إلى الموضوع مرة أخرى ، غير أنه أغفل ما كان للبطريرك من سيادة على الملك ، وبذلك قضى على كل سند شرعى يرتكبن إليه داجوبرت فى خصوصته ضد بلدوين . فيشير إلى أن بلدوين أعد منذئذ أدواته وأساليبه ، بعد أن غادر مملكة بيت المقدس تانكرد ، الذى يعتبر حامياً لداجوبرت . فاستجد بلدوين بالبابا فى روما ، فأرسل إليه البابا بناء على طلبه ، مندوباً من قبله وهو الكاردينال موريس . ووفقاً لرواية البرت ، صار الكاردينال موريس يفحص المسألة ويحقق فيها أثناء شهر مارس سنة ١١٠١ ، ثم أعلن إيقاف داجوبرت عن العمل . وفى عيد القيامة ، بذل داجوبرت للملك بلدوين رشوة قدرها ثلاثمائة قطعة ذهبية كيما يعيده إلى منصبه ، ووطد صداقته بالكاردينال موريس ، ولم يلبث الاثنان أن دَمرَا موارد المملكة ، بما انغمسا فيه سرا من مبادل وفجور (٩٢) .

ثم يمضى البرت فى روايته فيقول أن الملك (بلدوين) ، كان فى أشد الحاجة إلى المال ، ويشير إلى أنه قدم فى شهر أغسطس (٩٣)* من يافا إلى بيت المقدس ، فطلب من البطريرك مبلغاً من المال ، فأعلن البطريرك عجزه عن أن يبذله ما يريد . على أن بلدوين لم يلبث ، بناء على ما تلقاه من أرنولف من أخبار ، أن دهم داجوبرت وموريس وهما يتعاطيان الشراب . ثم تلى ذلك مشهد من المشاهد العنيفة حينما أرغم البطريرك على مغادرة بيت المقدس إلى يافا ، ومنها إلى أنطاكية ، فى مارس سنة ١١٠٣ ، حيث يقيم تانكرد . أما بلدوين فإنه بقى مع المندوب البابوى فى بيت المقدس ، وقد احتفى به وأحاطه بمظاهر

(٩٣)* ليس هذا التاريخ مؤكداً ، إذ أن بلدوين ظل فى قيساريه حتى يوم حنا للعمدان ؛ ثم توجه إلى يافا ، حيث مكث بها ثلاثة أسابيع سار بعدها لقتال المسلمين ، وظل يرقبهم بمض الوقت ، ثم صرف عساكره وعاد إلى بيت المقدس ،
Sybel : Op. Cit. P. 185.
Albert : Op. Cit. P. 331.

التشريف والتكريم . وفي أول سبتمبر، وحينما بلغه خبر أعمال حرية معادية، حشد جيشه وتقدم نحو يافا (٩٤).

ثم أورد البرت أنه بعد أن أنزل بلدوين الهزيمة بالمسلمين في يولية سنة ١١٠٣، استدعى تانكرد وبلدوين يرج (اميرالرها) في سبتمبر، ليساندها في صد هجوم جديد، فقدم (تانكرد وبلدوين) إلى يافا، ويصحبتهما ولیم بوتو. وقدم معهم البطربرك داجوبرت، وانفقوا على أن يساعدوا الملك، بشرط أن يعيد الملك النظر في مسألة داجوبرت. ولما تم الاتفاق على ذلك توجهوا معه لمهاجمة عسقلان. على أن أمر داجوبرت جرى التصديق عليه وإقراره من قبل السكاردينال (٩٥).

ورغم ما تعرض له تاريخ تلك الأزمنة من الاهتمام الشديد، من قبل النقاد المحدثين، إلا أنه فشلت كل المحاولات للتوفيق بين الآراء المتناقضة. ففي معظم التواريخ، وردت الروايتان جنباً إلى جنب، وترك للقارىء، أن يختار أيهما يشاء.

وجرى في أحوال كثيرة، أن أثار ولیم الصورى الشكوك فيما يرويه على الرغم مما اشتهر به من عدم التحيز عند وصفه هذه الأحداث، وما عرف به من الاهتمام باستقصاء الأخبار وتحريها، على حين أن ما أورده البرت من تفاصيل كانت ممتعة وطريفه، ولذا لم يتعرض لما يتعرض له ولیم من النقد الشديد (٩٦).

أما فولشر فانه، فيما يبدو، تعتمد أن يغفل في يومياته كل ما يتعلق بهذا الموضوع، وكل ما أورده أن تانكرد توجه في مارس سنة ١١٠١، من بيت المقدس إلى أنطاكية (٩٧). فكيف يتسنى إذن لبلدوين، بعد رحيل تانكرد، أن يشرع في النضال ضد داجوبرت، وأن يستعدى عليه روما؟ وكيف يتسنى للبابا أن يختار مندوبا عنه؟ وكيف يتسنى المندوب البابوي أن يصل إلى فلسطين؟ وأن يمضى في تحرياته والتحقيق مع داجوبرت، ويعلن لإيقاف داجوبرت؟ وكيف يتم كل هذا قبل نهاية شهر مارس؟

تختم على البرت أن يجعل بدء هذا النزاع يرجع إلى تاريخ سابق ، ومع ذلك لم يستطيع أن يدعم روايته ، إذ أننا نعلم من شاهد عيان محايد مشهور بعدم التحيز^(٩٨) ، أن موريس (المندوب البابوي) كان فعلا في سوريا قبل أن يهبط بلدوين إلى فلسطين ، وأن موريس قدم إلى الشرق في صحبة أسطول جنوى^{(٩٩)*} . ويتبين من كل ذلك أن الشطر الأول من الرواية لا يستند إلى أساس سليم ، ولا صحة له من الحقيقة .

يشير البرت إلى أن بلدوين استولى على قيسارية في يوم الأحد السابق على عيد الميلاد Whitsunday (٩ يونية) ، وظل مقبلا بها حتى يوم ٢٤ يونية (عيد ميلاد حنا المعمدان) . والمعروف أن قيسارية سقطت في ٧ يونية وفقا لما أورده فولشر ، الذي شهد سقوطها في يد بلدوين . ثم سار بلدوين بعد سقوطها إلى الرملة ، حيث أقام بها أربعة وعشرين يوما ، وقد توقع هجوما من قبل العدو ، فلما لم يحدث الهجوم ، عاد إلى يافا^{(١٠٠)**} ثم يمضى فولشر فيقول :

cum autem postea auribus semper ad eos intentio per septuaginta dies quieti sustinuissemus, intimatum est regi Balduino, adversarios nostros permoveri, et jam parati nos appetere accelerabant. Hoc audito fecit gentem suam congregari, de Hierosolyma, videlicet Tyberia de quoque, Caesarea et Caipha.

(٩٩) * قدم موريس إلى اللاذقية في خريف سنة ١١٠٠ ، في صحبة أسطول من جنوه ، ثم سحب الجنوبيين أيضا إلى بيت المقدس أثناء الصوم الكبير سنة ١١٠١ . ففي أكتوبر سنة ١١٠٠ ، كان موريس لا زال باللاذقية ولم يذهب مع الملك ، كما يستخلص ذلك من سكوت فولشر . فهل اتخذ موريس طريقه برا في منتصف الشتاء ؟ لم يحدث هذا مطلقا ، نظرا لاضطراب أحوال تلك البلاد وقتذاك انظر :

(Sybel : P. 186 note 3)

(١٠٠) ** ما أورده فولشر من ترتيب زمني للأحداث التاريخيه ، يثبت ذلك . إذ حدثت المعركة في ٧ سبتمبر ، فلو أحصينا ٢٤ يوما منذ ٧ يونية ، فأننا نبلغ أول يولية . ومنذ أول يولية حتى ٧ سبتمبر ، يقع ٦٩ يوما .

(Fulcher : P. 410, C. 25, 26.)

فإذا قارنا هذا بما أورده البرت، لأدركنا أنه ليس معقولا ماجرى من فرار داجوبرت إلى يافا وإقامته بها . إذ أنه كان شديد الحرص على أن يتجنب بلدوين ، على حين أنه سوف يلتقى به في سبتمبر، وقد قرر ذلك البرت أيضا. وبعد كل هذا لا داعى للتردد في عدم تصديق وجود بلدوين في بيت المقدس في أغسطس ، وأنه شهد العيد وكل ما تلى ذلك بها . وليس في استطاعتنا أن نفسر التناقض في هاتين الروايتين ، بأن نفترض أن فولشر أغفل الإشارة إلى مسير بلدوين وعودته، رغبة منه في ألاّ يمس الأمور الكنسية . فيقول في صراحة ، أن ما قام به بلدوين من حشد الجيش حدث في يافا لا في بيت المقدس ، ويتفق ذلك مع وجود الملكة في يافا^(١٠١) . إذ يصح أن نتأكد من وجودها في يافا ، لو أن بلدوين بقي في يافا شهرين . غير أنه من المستحيل أن ندلل وجودها بيافا وبقاها أورده البرت من رواية عن هذا الموضوع ، وذلك لأنه قلب الحقائق رأسا على عقب ، فجعل بلدوين في بيت المقدس ، وجعل داجوبرت يهرب إلى يافا ، على حين أن بلدوين كان بيافا ، وبقي داجوبرت مطمئنا في بيت المقدس ، لا تزعجه مطالب الملك^(١٠٢) .

ومن هذا القبيل أيضا ، خبر كونت بلوا ، الذى يهبنا شيئا من الإدراك والبصيرة ، لتصديق ما وقع سنة ١١٠٢ من الأحداث . وأورد فولشر في هذا الموضوع العبارة البسيطة التالية :

“ Cum prope Pascha esset, Hierusalem perrexerunt, qui postquam cum Rego Balduino Pascha celebrando pranissent, Joppen omnes regressi sunt. Tunc Comes Pictavensis navum ascendeus et Franciam remeans a nobis discessit ” (١٠٣) *

وما كاد يمضى بعدئذ زمن قصير ، حتى اشتبك الأمراء (الصليبيون) مع الترك في معركة عنيفة . وهذا الكونت بواتو ذاته ، الذى سبق أن أبحر في

(١٠٣) * المقصود بذلك ، وليم بواتو ، وستيفن بلوا ، وسائر الأمراء الصليبيين بالجيش ، الذين ساروا من يافا سنة ١١٠١ . (أنظر Fulcher: Op Cit. P. 414).

يوم عبد القيامة راجعاً إلى فرنسا، يقدم فجأة من انطاكية في سبتمبر، وينحاز إلى سائر الصليبيين أمام عسقلان، ثم لا يلبث أن يختنق فجأة مثلما ظهر. ومع ذلك لم يشرك كل من فولشر، قسيس الملك، ورادولف رفيق تانكرد، وماتياس Matthias من رعايا بلدين، إلى ما حدث من احتشاد جيوش تانكرد وبلدين برج أو ولیم بوانو، بل إن فولشر صرح عكس ذلك، حين قال:

• Expleto bello Rex Joppen reversus est. Postea quievit terra bellorum immunis tempore sequenti autumnali atque hiemali. (١٠٤، ١٠٥)

ولا نستطيع أن نغلل أيضاً في هذا الموضوع السر في حرص فولشر على إغفال كل شيء يتعلق بداجوربت، إذ لم يذكر شيئاً يتعلق بداجوربت، إنما تناول أموراً مختلفة كل الاختلاف (١٠٥).

ومن ذلك، يقين لنا أن روايات ولیم الصوري، تنفق في التفاصيل وفي النقاط الأساسية الجوهرية، مع ما وقفنا عليه من المصادر الأخرى، من الأحداث التي وقعت في تلك الأزمنة. وما أورده من تواريخ، قد ثبت صدقها، وتأكدت صحتها، ولا سبيل مطلقاً لأن يتعرض ولیم الصوري لأقل اتهام بالتناقض أو انعدام التوافق والتناسب، أما البرت فاشتهر بعكس ما اشتهر به ولیم الصوري. فإذا حاولنا أن نفحص رواية متصلة، فسوف نجد أوصافه تختلف تماماً مع سائر الروايات، فلا نستطيع أن نتق في خلاصة ما أورده من حقائق. أو نقبل مثلاً ما أورده من دليل عن كل ما يتعلق بالامكنة والتواريخ، أو فيما أثبتته من صفات الأشخاص والأحداث، بل نرى عكس ذلك، فما أورده من الحقائق إنما صاغها لتسند نتيجة سبق أن انتهى إليها. فالروايات التي ارتكن إليها تاريخ البرت، حفلت بما اشتهر به بلدين من الآبهة والعظمة. ولندعيم هذه الفكرة، ابتكر أخيلة وتصورات عديدة كالتى سبق الإشارة إليها (١٠٦).

ألقى ريموند أمير تولوز ، من جبل الحجاج ، الحصار على طرابلس سنة ١١٠١ ، أو في مسهل سنة ١١٠٢ . فأتخذ موضعاً منيعاً في الجهات المجاورة ، واحتل جبله الصغيرة lesser Gibellum في سنة ١١٠٢ ، لا في سنة ١١٠٤ كما يشير البرت ؛ إذ توافر لدينا من الوثائق عن سنة ١١٠٣ ، ما يشير إلى أن ريموند بذل نصف المدينة مكافأة أو هبة (١٠٧) ، ثم لم يلبث أن مات سنة ١١٠٥ . وما حدث من شقاق ونزاع على الحكم بين خليفته وليم سيردان William of Cerdagne ، وبين ابنه برتراند ، كاد يدمر ما ترتب على أعماله من ثمار . فيتمول ألبرت (١٠٨) ، ان برتراند لجأ إلى بلدوين ، يطلب منه المساعدة ، وقد وعد بأن يبذل للملك (بلدوين) الولاة . إذا تلقى منه المساعدة ، وقبل بلدوين هذا العرض عن طيب خاطر . وحدث وقتذاك أن اشتد النزاع بين تانكرد ، وبلدوين أمير الرها ، وجوزلين كورتناي . ونظراً لحرص بلدوين ملك بيت المقدس على تسوية المنازعات والاختلافات ، دعاهم جميعاً إلى أن يجتمعوا به في معسكره بطرابلس ، فحضروا في أحسن هيئة وبصحبتهم حواشيهم ، فاجتمع سوياً كل أمراء الفرنج بسوزيا ، كيما يحكم بينهم الملك بلدوين .

على أن مقارنة ما يتعلق بهذه النقطة من الروايات ، يتطلب فحصاً شديداً . ويمكن للتدليل على ذلك ، أن نلقت النظر إلى روايتين تعتبران فوق الشبهات ، وتفسران تماماً النقطة التي هي موضوع البحث . ذلك أن فولشر أورد خبراً مفصلاً عن النزاع الذي نشب بين وليم سيردان وبرتراند (١٠٩) ، فوجه الهمما اللوم على ما وقع بينهما من نزاع على امتلاك المدينة (طرابلس) مع أنهما لم يستوليا عليها بعد . ويضيف فولشر إلى ذلك قوله :

“ Ad nutum Dei, momenta transvolant et cogitationes hominum vanae subvertuntur. Et non fuit mora : postquam Rex Balduinus ad illam obsidionem venit, causa deprecandi Januenses, ut eum juvarent eo anno ad capiendum Ascalonem et Beruthum, necnon Sydonem, et ordiebatur concordiam fieri de duobus comitibus memoratis interiit Gulielmus ille Jordanus ” .

فإننا نجد سبباً مختلفاً لقدم بلديين ؛ إذ أنه لم يقدم على أنه ملك ، على الشأن ، عظيم القدر ، يتطلع سائر الأمراء إلى ما يصدره في قضاياهم من أحكام قضائية ، بل جاء على أنه أحد الزعماء ، يلتمس المساعدة ، فأغتموا هذه الفرصة وطلبوا إليه أن يتوسط لحل مشاكلهم (١١٠) .

على أن هذه المفاوضات لم تجذب التفات فولشر ، على الرغم من أهميتها وذيوع أمرها. غير أنه لتسوية المشكلة ، يصح أن نعتمد على رواية مستمدة من Eretz of Edessa (١١١)* أورد أخبار أحداث عديدة في طرابلس ، غير أنها تخالف ما جاء في المصادر الأخرى . على أنه أشار في موضع آخر ، إلى أنه حدث في صيف سنة ١١٠٩ ، أن قام كونت الرها وجوزلين كوتناي ، بحملة متكررة الطالع ، إلى حران في إقليم الجزيرة ، وأسهب في وصف هذه الحملة ، بما لا يدع مجالاً للشك والريبة فيها . أما ماثياس فإنه قضى على كل ما طرأ من فكرة انعقاد مؤتمر الأمراء الذي أشار إليه البرت . والواقع أن هذا دليل على ما ظهر في الشرق من رأى عن مكانة الملك بلديين وسلطته وطباعه . إذ أن الناس لم يكونوا يعتقدون أن الملك ليس له على الأمراء الا نفوذ ضئيل ، ولم يساورهم الشك في أن البطريرك داجوربت أذعن لما ادعاه الملك لنفسه من الحقوق ، على أن خيال البرت الخصب ، لم تقلت منه هذه الفكرة إذ اتخذها وصار يكسوها بمختلف القصص والاساطير التي لا أساس لها من الصحة . سبق أن أشرنا إلى أن بلديين يعتبر النواة التي تجمعت حولها من المخترعات الخيالية ، ما يجعلها بعيدة التصديق . وسوف نرى فيما يلي أن جوذفرى ، شقيق بلدين ، الذي يفوقه شهرة وصيتاً ، تعرض لمثل هذه المخترعات ، غير أنها اقترنت بقدر كبير من الصدق .

وسبق أن نقلنا ما جاء في تصدير تاريخ البرت :

«Incipit liber primus expeditionis Hierosolymitaniae urbis,
ubi Ducis Godefridi inclyta gesta narrantur, ejus labore et
studio Civitas Sancta sanctae Ecclesiae, filius est restituta.»

(١١١)* اشتهر هذا المؤلف بصدق أخباره عن كل ما يتعلق بأرمينيا ، وفيما عدا أرمينيا لم تكن معلوماته بالغة الصحة والسلامة .

هذه العبارة سوف تدهش كل من ألقى نظرة عاجلة على المصادر الأصلية، إذ سوف لا يستطيع أن يستخلص منها أدنى دليل على أن جود فرى قام بالشرط الأكبر في تخليص القبر المقدس. هذا التصدير الذى أورده ألبرت، كىنا توقع بعده أن نجد جود فرى، هو الروح المسيطرة فى الجيش الصليبي . غير أنه إذا فحصنا كتاب ألبرت، لأدهشنا أن نكتشف أنه لم يرد فيه ما يؤكد شهرة الدوق جود فرى . على أن كفاية جود فرى وقدرته، أثبتتها حقائق عديدة .

فى الشرط الأول من كتاب ألبرت، لم يتجاوز جود فرى فى الشهرة ما كان لسائر الأمراء، حتى إذا مضت الرواية، لم يرد مطلقاً ذكر اسم جود فرى فى أخبار أهم ما وقع من الأحداث والمناقشات. على أنه يسترعى نظرنا ما ورد فى سياق القصة من فقرات، وردت فى صيغة حادة مفردة. ذلك أن جود فرى الذى لم يسهم إلا بنصيب ضئيل فى نجاح الحملة الصليبية الأولى، كما ورد فى كتاب ألبرت ذاته، تردد ذكره فى عبارات بالغة القوة على أنه رأس الجيش، وانبأ الأمراء وأشرفهم، ودعامة الحملة وسندها. فلما أصابه المرض، خبر العساكر راکعين، يدعون له بالشفاء. ولما أراد الله له أن ينهض من مرضه، أسبغ عليه نعمة الشفاء، وتكرر ذلك فى مواضع عديدة. غير أنه من العبث أن نتظر من ألبرت، أن يربط ما سبق أن رواه، بما يلى من قصته، ولذا خاب سعينا فى أن نلتمس عنده سبباً لشهرة جود فرى؛ إذ أن الدوق ارتفع فجأة إلى هذه الشهرة اللامعة، بعد أن كان متساوياً فى المكانة مع سائر الأمراء، بل كان أدنى منهم مكانة. على أن هذا المجد الفائق لا يلبث أن يخفى، ولم يصدر عن هذه العظمة الذائعة، سوى بعض ما جرى من مبارزات من الفرسان لم تؤد إلى نتيجة من النتائج^(١١٢).

أما أساس شهرة جود فرى، التى لم يكف فى تقريرها أحداث علمانية، فإنه يرجع إلى ما اشتهر به جود فرى من التصوف والروحانية. فما صدر من

الله مباشرة من أمر ، قضى بجعل جود فرى ، محور الحملة وأساسها ، وهذه الحقيقة اختلط بها من المعجزات ، مثلما تراءى لبطرس الباسك من الأحلام ، وما كان من ظهور القديسين يحاربون إلى جانب العساكر في دوريليوم . ولو جرى التسليم بأن ما حازه الدوق من الشهرة وعلو الشأن ، إنما يرجع إلى أمر الله ، فلا أهمية اذن لطبيعة الحياة الدنيا ، ولن يتوقف كل شيء على ما يقوم به من أعمال . وأقر البرت في سداجة تامة ، ما ورد في كتابه من المعجزات ، دون أن يهتم بأنها قد لا تتفق مع الأمور الدنيوية ^(١١٣) . وفي هذه الصورة ألا يصبح أن تنتقل للأجيال التالية صورة صادقة عن الأفكار السائدة وقتذاك ؟ . وسوف نرى الآن ذهننا صافيا ناقدا ، يعالج هذه الأفكار . وسوف نلاحظ أيضاً ما سوف يكون له من تأثير على هذه الأفكار .

الواقع أنه ليس في وسعنا أن نستخلص من كتاب البرت الفحوى التام لهذه الأسطورة أو القصة ، غير أن البرت كان أول من جعل الرواية التي سبق وصفها ، صورة معنوية ، وصفة متناسقة ، ونبغى أن نستعرض كل ما تدور حوله هذه الرواية ، كيما تصبح طبيعتها نقية خالصة أو مفهومة وسوف يؤدي هذا إلى إدراك كل أجزاء الأسطورة وفهمها فما انطوت عليه الرواية من عناصر ذاتية ، تفرقت وتناثرت ، بينما تعرضت بعض أجزاء للشرح التفسيري ، بما ورد في كتاب ولیم الصوري من اشارات استمدتها من مصادر سابقة عليه ، وضاعت منذ زمن بعيد .

على أن الأساس العام الذي استندت إليه هذه الأخيلة والمخترعات ، أصبح الاحساس به وإدراكه ، حتى بعد سنوات عديدة ، وفي أقصى البلاد بعدا . فهما تعرض الأشخاص الظاهرون ، للاضطراب والتفرق فلا زال المبدأ الجوهري راسخا لا يهتز ، رغم ما يتعرض له من مؤثرات مختلفة . فما اشتهرت به الأمم من قوة شاعرية ، جمعت في هذه الشهرة الحصوية والدرام ^(١١٤) . وإذا انتقلنا إلى أزمنة كان العالم فيها ناشئا ، أخذت الديانة والشعر وروح الجماعة ، ترتبط فيما بينها - دون أن تحس - برباط وثيق . فلم يكن ثمة وقتذاك فنانون

محترفون . أو أعمال فنية ذات صور معينة أو محددة ، أو وحدة ظاهرة في التصميم أو الخطة ، غير أن ما نبض به الألو ف من قرة الخيال ، لم تلبث أن وجد متنفسا في صور امتلأت بالحياة والتنوع ، وفي تعبيرات عديدة لفكرة بسيطة واحدة^(١١٥) . أ كان جودفرى وحده هو الذى أوحى إلى المعجبين به بهذه الصور الشعاعية ، على الرغم من أنه ثمة من الآثار العديدة ما يدل على تمجيد غيره من الأبطال البروفنساليين والنرمان ؛ الواقع انه لم يبلغ أحد منهم ما بلغه جودفرى من اكمال التمجيد . ولا يرجع السبب في هذا إلى قصور المصادر ، بل إلى طبيعة الموضوع ذاته ، إذ أن جود فرى نفسه ، وما حازه من مسكاته ، هيا الفرصة بوجه خاص . لاخترع هذه الأساطير . غير أنه لم يتجرد مطلقا من هالة المجد الشعاعى ، كل من بوهمند ، أو روبرت النرمنى ، أو روبرت فلاندرز ، أو ريموند^(١١٦) .

سبق أن لاحظنا أن ألبرت دل في كل سياق كتابه ، على أن طبيعته يغلب عليها الميل إلى ما يتعلق بالأرض فهو يحاول أن يرسم في ألوان زاهية رواء الفروسية وجلالها ، فلم يشر إلا في عبارات قليلة إلى الغرض الأصيل من كتابه ، وهو تمجيد جودفرى . ونظرا لما غلب على طابعه من الصوفية والروحية ، عرضه في صورة تشع منها الروعة الشعاعية الدنيوية . فلو أننا اعتبرنا أن ألبرت ليس إلا جامعا للأساطير الجارية المتناثرة ، وأنه حذف منها قصصا عديدة رائعة ، وأنه اكتشف فيما استخدمه منها طابعا انسانيا ، كان لزاما علينا أن نتطلع إلى أن هذه الأساطير إنما نبعت من مصدر عظيم المسكاته . على الشأن^(١١٧) .

لما توجه الجيش المسيحى إلى الشرق ، وقد أثاره الحماس الدينى ، كانت الكنيسة قد قطعت شوطا كبيرا في سبيل إخضاع العالم لسيطرتها . فلا زالت الكنيسة منغمسة في منازعات عنيفة ، لاسيما حينما اصطدمت أطماعها بمحاولات الإصلاح . فعلى الرغم من أن جريجورى السابع ، قد تأثر بأفكار أخرى ، أكثر عمقا ، فإن معظم رجال الدين اعتبروا المخلصين المنفذين لما

(م ٧ - الحروب الصليبية)

تداعى من الأخلاق ، واعتبروا أنفسهم مخلصين للكنيسة من القيود الجسدية (البشرية) ، وكل ما تلى الايمان وقداسة الحياة من الطموح والنزوع ، اتخذ صفة التنسك والزهد ، فظهرت طوائف الفرسان الرهبان ، التي التزمت بأشد الطرق تقشفا ، وارتفع شأن مذهب تعذيب الجسد . أما الخلجات السارة للفن والرسم ، فقد جفت عند منابتها ، فذوى معين الشعر ، لأن تربته الخصيبة ، وما ادخرته من القوى والسلامة ، ما يستحث الحواس ويشيرها ، كانت تعتبر خاطئة آثمة . ويدل تاريخ الأدب على ماسادوقتهذاك من الجود ، وكيف أن ما تلى ذلك من ظهور عوامل جديدة أدى إلى نمو جديد في قوة الأدب . فمهما يكن عدد الشعراء قليلا ، لازال عنصر الشعر قائما ، متى تلقى دافعا أو حافزا نبض بكل ماله من قوة (١٧٨) .

على أن الحروب الصليبية ، التي تعتبر إلى حد كبير ثمرة لروح التنسك لم تخل من الروح الشعاعية . إذ لم يمض زمن طويل ، حتى ظهر من خلال هذه الحلقة الكبيرة من الشعراء المغمورين ، أفراد أمدوا الموضوع (الحروب الصليبية) بصورة فنية ، وأدخلوه في نطاق الدائرة السليمة للشعر .

وعلى الرغم من أن مؤلفي القصائد المتعلقة بالحروب الصليبية ، غلبت عليهم الحرية في معالجة تفاصيل الحروب الصليبية ، برغم ما غلب عليها من الصفة الدنيئة ، فإن هؤلاء المؤلفين ينتمون إلى طائفة المؤلفين الذين اعتمدوا على الروايات والذين سبق الإشارة إليهم .

الفصل السّادس

وليم الصوري (١١٣٠ - ١١٨٤)

William of Tyre

لا زالت الحروب الصليبية تحتل من المكانة عند مفكرى الغرب ،
مالا يقاربها فيها إلا قصة اكتشاف العالم الجديد. فتواريخ الحروب الصليبية
أضافت إلى سجل الحروب الصليبية الحافل بالمغامرات ، من الأخبار العاطفية
ما يتصل بالسعى لتحقيق المثالية الدينية . والواقع أن الهدف الأخير لهذه
المغامرة لم يكتمل تحقيقه ، برغم ما تراعى في أوقات عديدة من أنه
كاد يتحقق .

ومع ذلك فإن ما جرى نيله نتيجة المحاولات لبلوغ هذا الهدف ، لم يقع
هباء مطلقاً . ذلك أن الحضارة الأوربية قطعت ، أثناء الحروب الصليبية ،
شوطاً كبيراً في سبيل الرقى المادى والفكرى والروحى ، إذ اشترك كل غرب
أوروباً في المحاولة التى جرت للاستيلاء على الأراضى المقدسة . فإذا كانت
الأقاليم الفرنسية أسهمت بالجانب الأكبر من هذه المحاولة ، فإن سائر الأقاليم
لم تتخلف كثيراً عنها ، فاشترك فى هذه المحاولة من إنجلترا ، رتشارد قلب
الأسد ، ومن ألمانيا أمثال فردريك بربروسه . ومن إيطاليا أمثال بوهمند
وتانكرد ، ومن الأراضى المنخفضة أمثال جودفرى وبلدوين وروبرت
فلاندرز ، ومن سكدينافوه چور سالفار . فضلاً عما أسهمت به أسبانيا
وايرلنده وسكتلنده فى هذه الحركة الصليبية التى امتدت نحو مائتى سنة .

وما انطوت عليه الحروب الصليبية من قصة الانتصارات والهزائم ،
وأخبار البطولة والمآسى ، إنما لقيت اهتماماً كبيراً عند سكان الغرب المسيحى .
والمعروف أن هذا الاهتمام نشأ منذ الحملة الصليبية الأولى ، حين أخذ الناس
الذين عادوا إلى أوطانهم ، يترقبون فى لهفة وشوق ، أخبار أقاربهم ، الذين

مضوا في طريقهم إلى الأراضى المقدسة . ومنذئذ ازداد الاهتمام بأخبار الحروب الصليبية ، وتدرجت من الخيال الرائع ، والغناء ، والشعر ، ورواية المآسى ، إلى التاريخ المبني على النقد والتفسير الفلسفى .

واحتل كتاب وليم الصورى ، مكانة فريدة ، بين هذه الوفرة من مصادر التاريخ ، إذ يعتبر أول تاريخ شامل للحروب الصليبية . فالمعروف أن الحرب الصليبية الأولى ، لم يصنفها لحسب جماعة من الذين شاركوا فيها ، والذين لم تكن تواريخهم شاملة ، بل وصفها أيضاً جماعة من رجال الأدب ، حاول فريق منهم أن يلخص التواريخ السابقة . ومن هذه المصادر الأصلية ، استمد وليم الصورى ، جانباً من مادته فى الفصول الأولى من كتابه .

ونظراً لأنه اتخذ بيت المقدس ، أساساً لموضوعه ، أضاف إلى المؤلفات السابقة مقدمة رجع بها إلى ما حدث سنة ٦١٤ م من ضياع بيت المقدس من يد المسيحيين ، وانتهى بها إلى قبيل سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين سنة ١١٨٧ .

وما اتخذ وليم من طريقة فى تأليفه ، عبر عنها أحسن تعبير ، أحد المؤرخين المحدثين ، عند اشارته للحركة الصليبية : « هذه الحركة الضخمة ، صادفت مؤرخها الجدير بها ، وهو وليم الصورى ، وهو مؤرخ كاد يفوق سائر مؤلفى العصور الوسطى ، لما انسم به كتابه من التناسق الفنى ، ولما انطوى عليه موضوعه من اهتمام شديد ، واكتمال مثير ، » .

ولم يكد هذا الكتاب يذيع ويشتهر ، حتى اتخذه الكتّاب الآخرون أساساً لما أوردوه من الأحداث المتأخرة . وهذه الاضافات التى تناولت أخبار أهم قرنين فى تاريخ الحرب الصليبية ، توالى على كتابتها مؤلفون عديدون حتى نهاية القرن الثالث عشر . وبذلك يعتبر كتاب وليم الصورى ، جذع ما جرى من الكتابات عن الحروب الصليبية ، وامتدت جذوره فى الكتابات المتقدمة ، أما فروعه فنلتمسها فى المؤلفات المتأخرة .

ترجمة حياة وليم الصوري

المعروف أن وليم الصوري ، شغل منصب رئيس أساقفة صور من سنة ١١٧٥ إلى سنة ١١٨٤ أو سنة ١١٨٥ . وظل مستشاراً للملكة بيت المقدس منذ سنة ١١٧٤ حتى وفاته . فكأن جانباً كبيراً من حياته في الوظيفة يصح أن يستند إلى أساس من الشواهد والأدلة الموضوعية . أما ما تبقى من المعلومات عن حياته ، فمنتهى من الشذرات والأشارات العارضة ، التي وردت في تاريخه عن العصر الذي عاش فيه .

تعرضت حياة وليم الصوري من قبل ، إلى دراسات عديدة ، استند معظمها إلى فروض خاطئة ، اختلطت فيها الحقائق بالأخطاء ، وترتب على ذلك أن بعض الكتاب أخذوا الأخطاء على أنها حقائق (١) .

كان وليم من سكان مملكة بيت المقدس ، حيث ولد حوالي سنة ١١٣٠ . والراجح أنه ولد في بيت المقدس ذاتها ، والراجح أن أبويه نزحوا من الغرب إلى هذه الجهات ، غير أنه لم يتحقق صفة والديه ، وأي الجهات قدما منها ، ومتى ارتحلا إلى بيت المقدس . إذ اختلفت الروايات في ذلك ، فأشارت في مجموعها إلى أن أسرة وليم قدمت من إنجلترا ، أو ألمانيا أو إيطاليا ، أو فرنسا ، على الرغم من أن وليم ذاته لم يشر إلى شيء من هذا القبيل في كتابه (٢) .

ومع ذلك فإن من الدواعي ما يؤدي إلى رفض الزعم بأن أسرة وليم إنما جاءت من إنجلترا أو ألمانيا . فما يتعلق بإنجلترا ، نشأ الزعم من الخلط بين وليم الأول رئيس الأساقفة بصور ، الذي كان إنجليزياً ، وبين وليم الصوري المؤرخ . وعلى الرغم من أن وليم الصوري أشار في مواضع عديدة إلى الإنجليز الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ، فإن نزوعه وميله لا يدل على أنه إنجليزي ، فهو يقدر روبرت النرمندي ، ويحتقر هنري الأول ، ويمدح ستيفن ، ويزدري الملكة إليانور ، ويكره البابا هادريان وهو من

أصل انجليزى ، ويرجع ارتقاء رالف إلى وظيفة أسقف بيت لحم، إلى أنه كان من مواطنى البابا هادريان ، الذى سبق الإشارة إليه (٣) .

أما الزعم بأن أسرته نزحت عن ألمانيا فلا زال يفتقر إلى دليل . فما أورده من أخبار عن الأمور الألمانية ، لم تكن من الوفرة ما يكفي للأخذ بهذا الرأى ، بل إن ما وقع فيه وليم من مجانبة الدقة عن أمور ألمانيا ، يزيد على ما ارتكبه فى هذه الناحية عند سائر الأقاليم . يضاف إلى ذلك ، أن وليم لم يشر إلى من أقام فى زمنه بالأراضى المقدسة من النبلاء الألمان (٤) .

وما أورده من اشارات عن فرنسا وأقاليمها ، امتازت بوفرتها ، وغلب عليها الدقة ، وهذا هو السر فى أن كثيراً من المؤرخين يجعلون وليم ينتمى إلى أصل فرنسى ومن هؤلاء بروتز Prutz ، الذى تعتبر دراسته عن وليم الصورى من أحسن ما كتب عنه حتى الآن (٥) .

على أن ثمة من الأسباب ، ما يدعوننا إلى أن نناقش هذا الرأى . وأن نشك فيه . فمنها أن وليم اشتهر بدرايته ومعرفته التامة بإيطاليا ، ومع ذلك فإنه عند الإشارة إلى تاريخ صقلية ، أورد من التفاصيل العديدة ما لا يمت بصلة جوهرية بتاريخه ، يضاف إلى ذلك أنه جعل من تانكرد بطلا يضارع فى المكانة جودفرى . ولم يخص فرنسا وحدها بأنها هى الواقعة وراء الجبل Ultramontane ، بل إنه أشار إلى هنرى شامبين ، لا على أنه من كامبانيا فى إيطاليا ، بل كامبانيا Campania الواقعة وراء الجبل . وهذه الاشارات لا تتوقدها من رجل فرنسى ، أو رجل ينحدر من أبوين فرنسيين . يضاف إلى ذلك أن من الحقائق الأخرى المرتبطة بحياته ، ما يؤيد ترددنا فى أن نعتبره من أصل فرنسى ، بل يجعلنا نميل إلى أنه من أصل ايطالى أو أصل ايطالى رمانى (٦) .

ولم نقف على شىء محدد يتعلق بمكانته والديه وممنهما ، ويشير Pastoret اعتماداً على كتاب تاريخ مفقود ، إلى أن وليم ارتبط بصلة القرابة مع معظم الأسرات النبيلة فى مملكة بيت المقدس . على أن هذا الاستدلال يقابله ،

من جهة أخرى ، ما هو معروف من أنه كان لوليم أخ ، اسمه رالف ، ورد ذكره ، في وثيقة ترجع إلى سنة ١١٧٥ ، على أنه أحد الشهود على عقد انتقال ملكية ، في بيت المقدس . ولما لم يرد اسم رالف إلا بعد سائر أسماء الشهود ، جرى الزعم بأن أباه لم يكن من طبقة الأشراف أو الفرسان ؛ وفي هذه الحالة يصح أن يكون من التجار أو الموثقين .

والمعروف أن هاتين الحرفتين كانتا ، وقتذاك ، سائدتين في الأراضي المقدسة . والمعروف أيضاً ، أن أرباب هاتين الحرفتين ، إذا جاءوا من الغرب ، ينتمون إلى أصل ايطالي ^(٧) . ويؤيد هذا الفرض ، جهل وليم الصوري بالأمور الحربية ، واهتمامه بنشاط التجار . يضاف إلى ذلك ان السكان اللاتين المقيمين في بيت المقدس ، كانوا من القلة ما يجعل آحاد التجار لا سيما الموثقين ، يرتبطون بعلاقات ودية مع نبلاء البلاط الملكي ^(٨) .

أمضى وليم السنوات الأولى من حياته ، في فلسطين ، والراجح أن معظم هذه الفترة ، قضاها في بيد المقدس ؛ إذ أن ما أورده في تاريخه عرضاً ، عن هذه الذكريات القديمة ، إنما تركزت في تلك الجهة ، فيكشف كتابه عن روايته الوثيقة بشوارع المدينة . يضاف إلى ذلك ، ما اشتهر به من البراعة النادرة في اتقان اللغات ، وهي صفة فاق بها ، غيره من الشبان في الشرق . وهذه الرواية تتمثل في المامه باللغة الفرنسية ، لغة البلاط ، واللغة العربية ، التي تشارك اللغة الفرنسية في النشاط التجاري ، ثم اللغة اليونانية التي ساد استعمالها في الشرق . يضاف إلى ذلك أنه كان ، على أقل تقدير ، يلم بعض الإلمام باللغات الشرقية كالعبرية والفارسية . ومن الدليل على أن وليم الصوري نال قسطاً كبيراً من التعليم ، ما ذاع من اجادته للغة اللاتينية ، التي تعتبر لغة الكنيسة والمدارس ^(٩) . وهذه الحالة تثير فكرة طريفة . تتمثل فيما إذا كان وليم تلقى تعليمه مع الأمير بلدوين ، الذي يناهزه في العمر . ولتأييد هذا الفرض ، يصح أن نثبت هنا ما وقع فيه وليم من خطأ يعتبر غريباً ، ويتعلق بوالد بلدوين ، وهو الملك فولك أنجو ، الذي

جعلله يزيد عشرين سنة على عمره الحقيقي ، وهو تقدير خاطيء ، ظل عالقا بذهنه منذ طفولته . (١٠) .

والراجح أن وليم دخل منذ مستهل حياته في خدمة الكنيسة ؛ إذ لم يلق منه أحد من ذكرهم في كتابه من المحبة والاحترام ، مالم يقه بطرس البرشلونى الذى كان كبير القسس بكنيسة القيامة ، من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١١٥٨ . وهذه الفترة تقابل الثمانى والعشرين سنة الأولى من حياة وليم . والمعروف أن رجال الدين بالكاتدرائية التى برأسها بطرس ، أعدوا من التعاليم ما يصلح لتدريب القسس وتعليمهم .

وما اشتهر به وليم فيما بعد من الجِدِّ والدأب على البحث ، يحملنا على أن نستخلص ، أنه أظهر منذ زمن مبكر من حياته من الميل الشديد للعلم ، اجذب اهتمام مدرسيه . ولعل هذه الحقيقة ، هى التى أدت إلى صداقة وثيقة بين وليم و بطرس ، وكان لها أهميتها فى مستقبله (١١) .

وعلى الرغم من أنه لم يتوافر فى أطراف بيت المقدس ، المعرضة للحروب المستمرة ، من الأطفال ، ما يدعوا إلى إنشء ونمو مدارس هامة ، فإنه نشأ فى غربها بعض المدارس ، حيث توافر كثير من الدارسين . غير أن معظم هؤلاء الدارسين ، لم يكونوا فى الواقع سوى حجاج ، قدموا لزيارة مشاهد البلاد المقدسة ، ولم يقصدوا الإقامة بها . ومع ذلك ، فإنه ترتب على استقرار الحجاج القدماى بالبلاد ، أن قامت أديرة ، اشتهر كثير من رجالها بالعلم ، ومنهم جودفري رئيس دير هيكل السيد المسيح ، الذى اشتهر بتفوقه فى دراسة اليونانية . ولا بد أن وليم المشهور بمواهبه الفكرية ، وشغفه بالدراسة تهيأ له من الفرص ما يدعوا إلى تقدمه فى الدراسة ، بالتقائه بأمثال هؤلاء الناس ، سواء أثناء زيارتهم للمشاهد المقدسة ، أو بداخل الأديرة والكنائس . ولا شك أن بطرس البرشلونى أشرف على تعليم تلميذه الأثير عنده (١٢) .

ومن الحقائق البارزة ، أن وليم لم يشر الا قليلا ، إلى الأحداث الحربية التى وقعت فى أواخر العشرات ، وأوائل العشرينات من عمره ، بل إن حادثا

خطيراً ، مثل حصار الصليبيين لعسقلان والاستيلاء عليها سنة ١١٥٣ ، لم تثره مظاهره الحربية . مثلما أثاره عزم البطريك فولشر ، واصراره على المطالبة باستمرار الحصار ، بعد أن يئس الملك من الاستيلاء على المدينة (١٣) .

وهذا البطريك الذى شغل منصبه ، منذ أن كان وليم فى السادسة عشرة من عمره كان من رجال الكنيسة ، الذين يكن لهم وليم المحبة والاحترام . فكل الأدلة تشير إذن إلى أن وليم عزم منذ مستهل حياته على أن يسلك طريق الكنيسة ، وعلى أنه واصل دراسته دون انقطاع ، كيما يصبح قساً (١٤) .

على أنه ليس معروفاً ، ما إذا كانت رسامته قسماً ، تمت على يد البطريك فولشر ، الذى ظل عائشاً ، إلى أن بلغ وليم الثامنة والعشرين من عمره ، أو على يد بطرس البرشلونى ، الذى صار رئيس أساقفة صور ، حينما كان وليم فى الثامنة عشرة من عمره . ومن المحقق أن صداقته مع الرجلين استمرت حتى وفاتها ، كما أن إعجابه بهما ومحبته لهما ، ظل محافظاً عليهما حتى وفاته . وكيئتما كان الأمر ، أضحي وليم من رجال هيئة رئيس أساقفة صور ، بل يكاد يكون من المحقق أنه كان من أعضاء الكاتدرائية المسئولين فى صور ، ومن الدليل على ذلك ما ورد عنه فى وثيقة ترجع إلى سنة ١١٦١ ، وفى وثيقة تتعلق بمنحة ، حريها بطرس رئيس الأساقفة فى سنة ١١٦٣ (١٥) .

غير أنه حدث فى زمن سابق على سنة ١١٦٣ ، أن اجتاز وليم البحر المتوسط لمواصلة دراسته . وحرص وليم على أن يصف هذه الرحلة من تعليمه فى كتابه ، غير أنه لم يتبق إلا عنوان الفصل الذى جعله لهذا الغرض ، ولا ندرى ما إذا كان هذا الفصل لم يكتب أصلاً أو أنه قد ضاع . إذ أن الإشارة الوحيدة لتعليمه إنما وردت عرضاً فى عبارة ، عن انفصال أمورى عن زوجته اجنيس Agnes ، وذلك سنة ١١٦٣ قبل تنويجه ، حينما اعتذر وليم عن جهله بهذا الحادث وقت وقوعه ، « لأنه لم يكن قد عاد من وراء البحر ، حيث كان منصرفاً إلى دراسة الفنون الحرة فى المدارس » (١٦) .

ولما كانت باريس قد اقترنت وقتذاك بدراسة الفنون الحرة ، جرى الزعم أن هذه الإشارة إنما يقصدها فرنسا ، وأقر المؤرخون المحدثون هذا التفسير^(١٧). كان ولیم وقتذاك في الثالثة والثلاثين من عمره ، أى أنه في عمر يبلغ من التقدم ، ما لا يتلام مع دراسة الفنون الحرة العادية ، فلا بد أن هذه الفقرة تشير إذن ، إلى نوع خاص من الدراسة مثل القانون ، الذى أخذ وقتذاك يفترق عن الفنون الحرة ويصير علما مستقلا^(١٨). ولما لهذا العلم من أهمية في أمور الكنيسة ، درج رؤساء الأساقفة على أن يبعثوا إلى الخارج من يتلقى هذا العلم من رجالهم ، وعادة من رؤساء الشمامسة^(١٩).

على أن هذه الدراسة إنما يتلقاها في إيطاليا لا في باريس . والراجح أن بطرس البرشلونى ، الذى لازال يقوم على تنشئة ولیم وتعليمه ، أرسله من صور ، في الفترة الواقعة بين تاريخ الوثيقتين ، اللتين سبق الإشارة إليهما (١١٦١ ، ١١٦٣) ليتزود بما يجعله يضطلع بالشئون القانونية المتعلقة بالأبروشية ، أى أن ولیم لم يشهد تولية أمورى للعرش لتغيبه عن المملكة . على أن ولیم الصورى رجع إلى صور ، فيما يبدو في خريف سنة ١١٦٣ ، وقد تجمّز للنظر في أمور الأبروشية من الناحية القانونية^(٢٠).

لم نعرف إلا قليلا عن حياة ولیم ، في السنوات الأربع التالية ، إذ مات صديقه وسيدته بطرس رئيس أساقفة صور ، وخلفه على رئاسة الأسقفية ، فردريك ، الذى يختلف تمام الاختلاف عن بطرس . فهو أشبه ما يكون بالنبله من حيث المظهر ، ومن الحرص الشديد على الاهتمام بالشئون العسكرية ، وهو أمر لا يليق على حد قول ولیم الصورى . برجل للكنيسة^(٢١). فكان لا بد أن يحدث بين الرجلين ، نزاع وشقاق شديد . أما ولیم فإنه انصرف وقتئذ إلى مباشرة ما يتعلق بوظيفته من الواجبات القانونية . غير أنه ليس من المحقق ، ما إذا كانت هذه الواجبات ، تشمل كل ما عينه له بطرس ، رئيس الأساقفة ، من الشئون القانونية ، أو أنها لم تكن أعمالا شديدة التخصص .

والراجح أنه لم يقصد من وراء الدراسة القانونية ، سوى أن تهيأ له الفرص ،
للترقى في سلك إدارة الكنيسة . ولا شك أن وليم كان حريصا على أن
يتخذ من صديقيه وسيديه ، بطرس رئيس الأساقفة ، وفولشر البطريرك ،
أموذجا يسير على نهجه ، ويصح إذا تهيأت الأحوال والظروف ، أن يصير
رئيسا للأساقفة ، بل كان يأمل بأن يصبح بطريركا (٢٢٢) .

وتعتبر سنة ١١٦٧ ، بالغة الحرج والأهمية في حياة وليم الصوري ؛ ذلك
أنه حدث طوال حياة وليم ، أن آمال مملكة بيت المقدس أخذت تتحقق ،
إذ امتدت حدودها ، وجرى تدعيم رقعتها بما تشيد من الحصون ، وسد الثغرات
الواقعة بين استحكاماتها ، فاستولى الصليبيون على عسقلان سنة ١١٥٣ ،
واهتموا بتحصينها حتى لا يستردها المسلمون (٢٢٣) .

والواقع أن أحوال مملكة بيت المقدس ، بلغت فيما يبدو من الاستقرار ،
ما جعل الملك آمورى يفكر في القيام بمغامرات جديدة في مصر ، كالتى
قام بها من قبل بلدين الثالث قبيل وفاته (٢٢٤) . وتعتبر حملة آمورى على
مصر سنة ١١٦٧ ، أكثر حملاته توفيقاً ، وازدادت دهشته لما أصابه
من نجاح (٢٢٥) .

آمورى ووليم الصورى :

المعروف أنه حدث في زمن سابق على هذا التاريخ أن آمورى أدرك
شدة حاجته إلى المساعدة لمهاجمة مصر ، فدارت المفاوضات بينه وبين
الإمبراطور البيزنطى لأجراء تحالف بينهما ، وأن يتزوج آمورى من
أميرة بيزنطية (٢٢٦) . فلما عاد آمورى من مصر ، بعد حملة سنة ١١٦٧ ، لقي
في انتظاره بمدينة صور ، هذه الأميرة البيزنطية ، ماريه ، مع حاشيتها
فتم الإحتفال بزواجهما في ٢٨ أغسطس سنة ١١٦٧ . وترلها لآمورى أن
فتح مصر بات محققا (٢٢٧) .

ولما اشتهر به آمورى من الميل إلى الدراسة التاريخية، أدرك أن فتح مصر والاستيلاء عليها من يد المسلمين، إنما يلى فى الأهمية ما حدث من قبل من فتح بيت المقدس . فقرر آمورى أن يلتمس مؤرخاً ليسجل ما يحرزُه من الانتصارات . ولا بد أن هذه الفكرة طرأت على ذهنه ، عند عودته من مصر، إذ أن هذا الأمر بدا كأنما أقره . فلم يكد ينقضى على زواجه ثلاثة أيام ، حتى عين وليم رئيساً للشمامسة بكنيسة صور، وجعل له من الدخل ما يزيد على ما هو مخصص عادة لتلك الوظيفة من راتب (٢٨).

لم يرد فى موضع من المواضع ما يشير إلى السبب الذى جعل آمورى يختار وليم لكتابة هذا التاريخ . هل كان ذلك نتيجة حافز شخصى ؟ أو أن ذلك الاختيار قد تم بعد دراسة دقيقة ؟ . لا شك أن وليم ادخر وقتاً من الصفات والخصائص ما تجلت وبرزت بعدئذ فى كتابه . إذ أنه نال قسطاً من التعليم العالى ، لم ينله سائر زملائه وأقرانه ، بل إنه تفوق عليهم أيضاً بدرابته وإلمامه ، باللغات . وامتاز وليم أيضاً بمهارته ولباقة فى الكلام والحديث ، وبممارسة الكتابة . ومع ذلك لم يبلغ وليم من التدريب ما يجعل منه مؤرخاً، كما أنه فيما هو معروف ، لم يمارس من قبل عملاً من هذا القبيل . يضاف إلى ذلك، أن وليم لم يكن ، فيما يبدو ، حريصاً على أن يقوم بمثل هذا العمل . ولعل السر فى ذلك ، أنه رأى أن هذا العمل يصرفه عن الحياة التى كرس نفسه لها . والواقع أنه لم يتخل عن إباته ورفضه ، إلا بعد أن تأكد له عطف آمورى عليه ، ومن الدليل على ذلك ، أن ترقية وليم إلى وظيفة رئيس الشامسة تمت بناء على طلب الملك آمورى وفى مجلسه (٢٩) . ولو أن آمورى اتبع من الحكمة والتعقل فى سائر المشروعات ، مثلما أتبعه فى اختيار وليم ليكون مؤرخاً له ، لصار يعتبر أعظم ملوك بيت المقدس دون منازع (٣٠) .

وما كاد وليم يتولى هذا الأمر ، حتى مضى فيه بحماس شديد ، ونشاط

قوى . أخذ وليم يناقش الملك وقادته فيما ينبغي أن تكون عليه الحملة التي سوف يوجهها ضد مصر ، من اكمال التجهيز والإعداد ، ما يليق بمولاه الملك . وازداد تقدير الملك لمؤرخه وليم ، بما قام بينهما من صداقة وطيدة . وبلغ هذا التقدير أقصاه ، حينما عهد إليه آمورى بأن يتوجه إلى القسطنطينية ، ليحصل على توقيع الإمبراطور البيزنطى ، ما نوبل ، على المعاهدة التي جرى إبرامها بينهما من أجل التعاون في فتح مصر^(٣٢) . وأتاحت هذه السفارة لوليم الصورى الفرصة لأن يشهد لأول مرة العاصمة البيزنطية ، وهيأت له أول لقاء وتعارف مع الإمبراطور ما نوبل ، الذى اجتمع به فى معسكره بالبلقان ، بعيدا عن القسطنطينية . ثم عاد وليم بعد شهر ، إلى بيت المقدس ، يحمل المعاهدة بعد توقيع الإمبراطور البيزنطى عليها . غير أنه اكتشف ارتحال آمورى ، منذ عشرة أيام ، بحملته إلى مصر ، وذلك بعد أن خضع آمورى لرأى من يقول بأنه ينبغي أن ينفرد بهذا العمل وحده . ولعله كان من حسن الحظ لوليم أنه لم ير الملك مرة ثانية لمدة تزيد على سنة . لأن رأيه فى الحملة ، كما دونه فى تاريخه لا يرضى الملك . على أن وليم تحتم عليه قبل عودة آمورى من مصر ، أن يتوجه إلى روما ليرد على ماوجه إليه من التهم ، فردريك رئيس أساقفة صور . ومن الواضح أن وليم استطاع أن يقنع المجلس البابوى ببراءته من التهم الموجهة إليه ، والتي لا تتعدى ما أصر الملك عليه من تعيين خراج وموارد للتورخ وليم . وفى أثناء إقامته بروما ، ازداد علما وخبرة بالمجلس البابوى . وأضى وليم معظم سنة ١١٦٩ بعيدا عن مملكة بيت المقدس ، ولم ير الملك آمورى مرة أخرى ، إلا بعد عودته للمرة الأخيرة من مصر بعد عيد الميلاد سنة ١١٦٩^(٣٣) .

ولما التقى الملك آمورى بوليم ، أخذ وليم يستوضحه فى لباقة من أمر الحملتين الأخيرتين ، غير أن ما أصاب مغامرة الملك فى مصر من الفشل الذريع ، أغناه عن الحاجة إلى أن يعلن بسخطه وإنكاره لتصرف الملك ،

وبذا استمرت الصداقة بينهما سليمة ، وظلت العلاقات طيبة . والواقع أن إعجاب الملك بمؤرخه بلغ من الشدة والقوة ، وأنه طلب إلى وليم أن يتولى أمر تربية أكبر أبنائه ، وهو بلدوين الذى أنجبه من زوجته الأولى أجنس كورتناى ، وتقرر الاعتراف ببنوته الشرعية سنة ١١٦٣ ، بعد أن لجأ الملك إلى أن يطلق أجنس لما يربطه بها من صلة قرابة وثيقة تمنع هد الزواج (٣٣) .

لم يتجاوز بلدوين . ولى عهد المملكة ، التاسعة من عمره ، حينما عهد أمورى أوائل سنة ١١٧٠ ، إلى وليم الصورى ، بالقيام على تربيته وتنشئته . والواقع أن وليم نفر من هذا التكليف مثلما كره من قبل ما كلفه به الملك من كتابة التاريخ ، بل أن نفوره لتربية بلدوين كان أكثر وأشد ، نظرا لأن كتابة التاريخ ، برغم أنها لم تزد فى مكانته الكنسية ، لم تمنعه من مواصلة مهنته ، ولم تمنعه من الاتصال الوثيق بالرجال والأعمال (٣٤) .

أما هذا الواجب الجديد ، تربية بلدوين ، فيتطلب من وليم أن يلزم بصحبة الأمير سنوات غير محدودة ، فيحول بذلك دون أن يترقى فى سلك الوظائف الكنسية . ولما اشتد الحاح الملك ، وبذل لوليم وعودا مجزية ، قبل وليم آخر الأمر أن يحقق رغبة الملك . فى سنة ١١٧٠ تولى تأديب الأمير الصغير ، وظل أربع سنوات يودى هذا الأمر على أكمل وجه ، وبما يقتضيه ضميره من الاخلاص برغم أنه لم يكن متحمسا لذلك (٣٥) .

ومن الطبيعى أن يكون الأمير بلدوين أصدقاء عديدون ، من أبناء النبلاء ، ولاشك أنهم حظوا بنصيب من اهتمام وليم . ولم يقصر وليم تعليمه على تدريس الآداب ، لأنه على حد قوله لم يغفل الاهتمام بالجانب الأخلاقى والرياضى (الجسمانى) من مهمته . إذ أن وليم كان يفخر دائماً بما اشتهر به بلدوين من المهارة فى الفروسية . ويتبين من الإشارات العديدة أن وليم طالما صحب هؤلاء الصبيان فى رياضتهم على ظهور الخيل ، إلى ريف صور .

ومن للتدرب الرياضية التي كان يمارسها بلدوين ، اكتشف ولیم ما يعانیه بلدوين من مرض ، شخصه آخر الأمر بأنه جذام ، فبادر إلى نقل هذه الملحوظة إلى الملك^(٣٦) . فصار يواصل علاجه الذي امتد ، حتى مات بهذا الداء . ومن الطبيعي أن يترتب على هذه الأحوال أن ازدادت محبة ولیم لبلدوين ، الذي أثبت من التقدم في سائر نواحي المعرفة ما أقر به ولیم في كتابه ، هذه الصلة أدت إلى ما يمكنه بلدوين لولیم من الاحترام والإعجاب^(٣٧) .

وعلى الرغم من أن هذه الأعباء والواجبات ، فرضت على ولیم الاعتكاف الشديد ، فإنها لم تستنفذ كل تفكيره ووقته . صار الملك آمورى يتردد كثيراً على صور ، ولا شك أنه كان يلتقي بولیم عند زيارته . وما جرى بينهما من الحديث ، لم يلبث أن تحول إلى اقتراح بكتابة التاريخ . والراجح أنه حينما تطرقت المناقشة إلى أمر الأصول ، التي سوف يبنى عليها كتابة التاريخ ، أو التمهيد لهذا التاريخ ، وهو المعروف بأعمال أمريك Gesta Amalrici ، اكتشفاً أنه لا بد أن يكون ثمة تاريخ سابق على هذا العصر^(٣٨) . والواقع أنه لم يكن لأى عهد من عهود الملوك السابقين ، على أمريك في بيت المقدس ، تاريخ منتظم منذ أن وقف فولشر شارتر بكتابه عند سنة ١١٢٧* (٣٩) . والمعروف أن طائفة من التواريخ عالجت الفترة المبكرة من تاريخ مملكة بيت المقدس ، غير أن هذه التواريخ ، لم تعد في سنة ١١٧٠ وافية بالعرض ، ولم تكن ملائمة لتطور الأحوال . والراجح

(٣٩)* حدث في زمن الملك بلدوين الثالث ، أن ظهر الاحتياج إلى تاريخ يعالج ماجرى من الأحداث بعد سنة ١١٢٧ ، التي وقف عندها فولشر . وتولى مؤرخ مجهول ، سواء بتشجيع الملك أو من تلقاء نفسه ، كتابة تاريخ يبدأ من سنة ١١٢٧ وينتهي بمهد بلدوين الثالث . واستهل المؤلف دراسته ، بتلخيص تاريخ فولشر ليكون بداية لكتابه ، غير أنه ما كاد ينتهي من هذا التلخيص ، حتى توقف عن اللضى في الكتابة واشتهر كتابه باسم :

أن آمورى رأى أنه لابد من كتابة تاريخ شامل لمملكة بيت المقدس منذ قيامها . وأظهر وليم الصورى اهتماماً كبيراً بهذا الرأى ، ووافق على أن يقوم بتأليف هذا التاريخ . وبناء على اتفاقهما ، طرح وليم جانباً ، كتاب أعمال أمريك ، ولم يحتفظ إلا ببعض الملاحظات التى جمعها عن الأحوال السائرة ، على أساس أنه متى انتهى من كتابة أخبار السنوات السابقة على أمريك ، يمضى فى الكتابة عن السنوات الأولى من عهده (٤٠) .

ولذا كان لزاماً على وليم أن يبدأ فى كتابة تاريخ المملكة *Gesta regnum* ، ابتداء من مجمع كلير مونت فى سنة ١٠٩٥ ، أو منذ سنة ١٠٩٤ ، وهو التاريخ الذى شاع بأن بطرس الناسك أدى فيه الحج إلى البيت المقدس .

شرع وليم فى جميع كل ما استطاع جمعه من المصادر المدونة ، وطائفة كبيرة من الروايات الشفوية المتنوعة . ثم عكف على تأليف الكتاب ، فلم يمضى إلا زمن قصير ، حتى صار فى وسع الملك ، عند زيارته إلى صور أن يقرأ أجزاء كثيرة منه أو يستمع إلى قراءتها (٤١) .

وعلى الرغم من أعباء وليم فى تربية بلدين ، فإنه بلغ من سرعة تقدمه فى التأليف ، أن طلب منه آمورى أن يؤلف كتاباً آخر . إذ أن الملك لم يقتنع بالمقدمة التى ترجع إلى سنة ١٠٩٤ ، بل حرص على أن يزداد معرفة بالتاريخ الإسلامى ، الذى يرتبط بقدم الصليبيين ، ولا شك أن شغف الملك ورغبته فى هذه الدراسة ، زاده ما شاهده فى مصر من ازدهار الحضارة الإسلامية ، ولذا ألح على وليم بأن يكتب تاريخاً عن أمراء الشرق . وكما يسر لوليم هذا العمل ، أمده بطائفة من التواريخ العربية ، يصح أن يستعين بها فى معالجة هذا الموضوع . والراجح أنه حصل عليها من مكتبة أسامة بن منقذ ، التى صادرها بلدين الثالث ، بعد أن تحطمت قرب عكا سنة ١١٥٤ ، السفينة التى كانت تحمله (٤٢) . لم يشر وليم الصورى إلا إلى كتاب

واحد منها ، وهو كتاب سعيد بن البطريق ، ولما لم يعالج هذا الكتاب هذه المرحلة من التاريخ الإسلامى إلا حتى سنة ٩٣٧ ، فالراجح أن وليم استخدم مصادر أخرى . إذ أن كتاب سعيد ، أو سيث أو أوتيجا ، على ما رواه وليم ، إنما يكفي لمعالجة الفترة المتقدمة من تاريخ الشرق ، ويستطيع وليم أن يكتب بترجمته . وبذا أضحي في وسعه أن يحرز من التقدم في كتاب التاريخ الشرقى *Gesta orientaliu principum* ، مثلما أحرز في كتاب تاريخ المملكة *Gesta regnum* . وكلما زار أموري بعدئذ مدينة صور ، أعلن رضاه عن كلا الكتابين . على أن وليم لم يفعل في الوقت ذاته ، واجباته باعتباره مؤدبا لبلدوين (٤٣) .

ولو استمرت الأحوال على هذا النحو ، فإنه لا بد من مضي أربع سنوات أخرى ، قبل أن يفرغ وليم من تأليف الكتابين . إذ أنه أنجز حوالى ذلك الوقت ، ما لا يقل عن نصف كتاب تاريخ المملكة ، ولعله فرغ أيضاً من تأليف نصف الكتاب الآخر . على أن الأقدار لم تلبث أن تدخلت ، وتأثر بذلك نشاط وليم في التأليف ، إذ اشتد المرض بالملك أموري ، ولم يلبث أن مات ، ولم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، فحزن عليه وليم حزناً شديداً عبر عنه بأنه جعل الأطباء مسئولين عن وفاة الملك في هذه السن المبكرة ، نظراً لجهلهم وعدم كفاءتهم (٤٤) .

ولا شك أن وفاة الملك أموري كان لها أثر كبير في وضع وليم الصورى ومكانته . إذ كان لزاماً أن يتولى العرش تلميذه المريض ، بلدوين ، الذى تلقى عليه جانباً من التعليم ، والذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره . وما كاد بلدوين يتوج ملكاً ، حتى تولى الوصاية عليه وعلى المملكة ، ميلون دى بلانسى *Milon de Plancy* ، الذى يمتقه وليم الصورى ، لأنه كان أسوأ مستشار لاملربك (٤٥) .

وتوافر بذلك من الأسباب ، ما يدعو إلى الاعتقاد بأن وليم عزم على أن يتوقف عن كتابة التواريخ ؛ إذ أن ما تعاهد به من تأليف الكتاب ، إنما كان بناء على طلب الملك آمورى ، وبناء على ما حياه به الملك من العطف ، فلم يعد لهذين العاملين وجود (٤٦) .

وإذا حرص وليم على أن يسترد ما فاته من الترقية فى سلك الوظائف الكنسية ، كان لزاما عليه أن يودى من الأعمال والواجبات ، ما صرفه عنها الانهاض إلى كتابة التاريخ ، وتعليم الأمير الصغير (بلدوين) . ويصح عندئذ أن ننصوّر أن وليم جعل الشهور القليلة التى تلت وفاة أمريك وتتويج بلدوين الرابع ، لينجز فيها ، كتاباته التاريخية عند النقطة التى بلغها وقتذاك (سنة ١١٧٤) (٤٧) * .

فإذا كان ذلك هو غرضه الأسمى ، وإذا كانت تلك هى جهوده ، فإنها توافقت فجأة مثلما جرت فجأة . إذ حدث فى خريف سنة ١١٧٢ ، أن لقي ميلون دى بلانسى مصرعه فى شوارع عكا ، وأعقب ذلك اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصياً على المملكة ، حتى يبلغ الملك سن الرشد (١٥ سنة) . هذا الانقلاب فى الأوضاع ، أدى إلى تغيير كبير فى مستقبل المملكة وليم الصورى . إذ تقرر استدعاء وليم ليشغل الوظيفة الشاغرة ، وهى وظيفة مستشار المملكة ، ولا شك أن هذه الوظيفة سوف توطد صلة وليم بالملك الجديد وتليذه السابق . على أن المستشار السابق كان يشغل وظيفة أسقف بيت لحم ، وكانت شاغرة أيضاً ، كما أن وظيفة رئيس أساقفة صور كانت شاغرة ، وهاتان الوظيفتان كانتا من الوظائف المرموقة يسعى إليهما الناس . وبلغ التنافس عليهما من الشدة ، أن الوصى لم يكن

(٤٧) * الراجح أن وليم اكتفى بأن يجعل كتابه عن تاريخ أمراء الشرق ينتهى عند سنة ٥٧٠ (١١٧٢م) ، وهى السنة التى تكرّر ورودها فى مقدمته انظر :

مستعداً لأن يستخدم نفوذه في أن يشغل المستشار وليم أحدهما ، ولا شك أن وليم كان يؤثر أن يفوز بوظيفة رئيس أساقفة صور . ومع ذلك فإن دخله قد ازداد ، بعد أن صارت له رئاسة شمامسة الناصرة ، بالإضافة إلى وظيفته التي كان يشغلها في صور ، وهي وظيفة رئيس الشمامسة . على أن المشاكل الكنسية لم تتم تسويتها إلا بعد ستة شهور ؛ إذ لم يتم التصديق على تعيين وليم رئيساً لأساقفة صور ، إلا في ٦ يونية سنة ١١٧٥ . وبذلك أضحي وليم ، في أقل من سنة ، يشغل وظيفة عظيمة المسكنة والسلطان في أمور الدولة والكنيسة ، بعد أن كان من آحاد رجال الكنيسة بعد وفاة أمربك وفي زمن وصاية ميلون دي بلانسي (٤٨) .

والراجح أن وليم ، ظل نحو سنة ونصف سنة ، بعد أن تولى وظيفة المستشار ، يمضى معظم وقته في البلاط ، واستأنف بصفة غير رسمية ، تنشئة الملك وترتيبه ، بعد أن انقطع عن ذلك فترة من الزمن . ولا شك أنه وقف أثناء هذه الفترة على تفاصيل سير الأمور بالملك ، نتيجة اتصاله بريمووند أمير طرابلس وسائر رجال البلاط ، ولا شك أن طول فترة اتصاله بأمربك وشدة صلته به ، جعلته يقف على مشا كل سياسة الدولة ، وكيف يتصرف فيها . واحتاج وليم لهذه التجارب سنة ١١٧٦ ، حينما أضحي المستشار الأول للملك بلدوين الرابع ، بعد أن بلغ سن الرشد ، وبعد أن تخلى ريموند عن الوصاية (٤٩) .

على أن المشاكل الخطيرة بالدولة ، جرت تسويتها قبل ان يتخلى ريموند من الوصاية ، إذ أن حكومة بلدوين الرابع ، إنما صانها وحفظها ما حدث عن زواج سبيللا ، أكبر اخوات الملك ، من وليم مونتفرات ، المعروف بقربته الوثيقة للأسرات الملكية بفرنسا وألمانيا ، وما كان من التحالف بين بيت المقدس والقسطنطينية ، وما وقع من الاضطرابات في الدول الإسلامية المجاورة عقب وفاة نور الدين ، كل ذلك أثار الأمل في نجاح مغامرة توجه إلى مصر . ولم تكن الامارات اللاتينية الأخرى في حاجة إلى

مساعدة عاجلة ، ولذا أضحت مسؤوليات وليم الصوري ، باعتباره مستشاراً للملك ، تقوم أساساً على إهداء النصح للملك^(٥٠) .

على أن وليم إذا أقام مهمته على هذا الأساس ، فلا بد أن تتعرض آماله للانحيار في فترة لا تتجاوز سنة واحدة ، بما ظهر من أحداث لم تكن متوقعة . إذ أن وليم موثفترات مات في يونية سنة ١١٧٧ ، وترك من ورائه زوجته حاملا ، وقدمت إلى بيت المقدس ، سفارة من القسطنطينية تلح في تنفيذ التحالف من أجل فتح مصر ، غير أن الملك بلدوين ، اشتدت به العلة والمرض . وفي ذلك الحين أيضاً ، قدم من الغرب فيليب كونت الفلاندر ، في قوة حربية ضخمة ، وأثار وجود هذا الجيش أطباع الإمارات اللاتينية الأخرى ، إذ أن كلا منها أعدت خططها لمد اطرافها . ولما لم تكن حالة الملك تسمح له بالافادة مباشرة من هذا الجيش ، حرصت كل الإمارات على أن ينهض بجيشه لتحقيق أغراضها . وزاد من القوضى والأضطراب ما سعى إليه أحد أتباع فيليب فلاندر ، وهو بيتون Bethune ، من اغتنام هذه الفرصة لتحقيق أغراض لأسرته ، ولذا ألح على فيليب في أن يسعى لزواج ابنه من شقيقة الملك ، وأخت أخرى له غير شقيقة . لم يلق هذا الاقتراح القبول من بارونات المملكة ، لأن هذه الزيجات المقترحة لن يترتب عليها ازدياد في قوة المملكة وارتفاع شأنها واشتداد نفوذها . وكان لزاماً على وليم الصوري ، ازاء هذه المشاكل ، أن يكون وسيطاً بين الملك المريض ، ومجلس الملك ، وفيليب فلاندر ، ورسل بين نطة^(٥١) .

ولا شك أن هذه المسائل الدبلوماسية ، التي نجمت عن أغراض عديدة متعارضة ، تعتبر اختباراً لما اشتهر به وليم من المهارة والخبرة السياسية . فأول ما قام به وليم ، أنه سعى لتنفيذ المعاهدة البيزنطية ، وأنه جعل فيليب فلاندر قائداً للقوات العسكرية . وفي الوقت ذاته ، توسل بالقانون الكنسي والقانون العام لمقاومة ما جرى من اقتراحات بشأن الزواج من أخت الملك ، حتى يمضى عام على وفاة زوج سبيللا ، وهو وليم موثفترات . هذا القرار أوقع

فيليب فلاندر في مازق ، جعله يغرم آخر الأمر على أن ينهض لمساعدة كل من أنطاكية وطرابلس (٥٢) . وصحب فيليب في هذه الحملة جانب من جيش مملكة بيت المقدس فضلا عن قواته ، غير أن صلاح الدين اغتنم فرصة مسير الجيش الصليبي لحصار حلب بشمال الشام ، وقام بغارة كبيرة على مملكة بيت المقدس . وفي هذه الأزمة ، كان وليم الصوري في صحبة الملك حينما خرج لرد هجمات صلاح الدين ، وقد عهد الملك بلدوين إلى ريجنالد شاتيون بقيادة ما تبقى في بيت المقدس من القوات . وعلى الرغم من أن صلاح الدين أوغل في غاراته حتى بلغ أسوار بيت المقدس ، فإنه لم يلبث أن تعرض للهزيمة (٥٣) . هذه الأحوال إنما تدعو إلى أن نلتهمس العذر لوليم الصوري ، حين اعتبر هذا النصر من المعجزات ، كما أنه اعتبر ما لحق بحملة فيليب على حارم من الفشل ، عقابا وقصاصا من الله ، وذلك لما اتسمت به أعمال الملك ووليم من السلامة والاستقامة (٥٤) . وإذ خشى وليم الصوري ، ما يصح أن يقدم عليه فيليب فلاندر ، بعد عودته إلى الغرب ، من إثارة روح التعصب ضد ملك بيت المقدس ، بادر بإرسال خبر تلك الأحداث إلى زعماء الغرب . ومن حسن الحظ ، أن كبار المؤرخين في إنجلترا ونورمانديا ، قبلوا رواية وليم لهذه الأحداث ، وما أورده من الدليل على قضاء الله وحكمه (٥٥) .

وشعر وليم الصوري بالارتياح ، بعد الحملة التي قادها الملك ضد صلاح الدين وبعد رحيل فيليب فلاندر ، ولم تلبث الأحوال أن تحسنت في السنة التالية إذ أن الملك بلدوين استرد صحته وعافيته ، ولم تتعرض مملكة بيت المقدس لهجوم جديد من قبل صلاح الدين ، وتهيأت الفرصة لأن يمد الملك الطرف الشرقي لمملكته ويحصنه ، وعندئذ صار في وسع وليم الصوري أن يلتفت إلى الأمور الكنسية (٥٦) .

تهيأت الأحوال لأن يحقق وليم الصوري أسمى ما يصبو إليه في حياته ، وهو أن يتولى بطريركية بيت المقدس ، إذ أن أمريك « Amalrick » الذي شغل كرسي البطريركية ، أكثر من عشرين سنة ، تقدم في السن وساءت

صحة، فناب عنه وليم الصوري في تشييع جنازة صهر الملك، (وليم مونتفرات) وكان في ذلك من الدلالة على أن وليم يخلفه في منصبه . وازداد الاحساس حينئذ لم يستطع البطريك أن يلجى الدعوة الموجهة إليه لحضور مجمع اللاتران (في روما) ، الذى دعا إلى عقده البابا اسكندر الثالث سنة ١١٧٨ . اذ تقرر أن يتولى رئاسة الوفد الذى يمثل مملكة بيت المقدس وليم الصوري ، الذى رأى في هذا الاجتماع فرصة ، لأن يرفع من شأن كنيسة ومملكة بيت المقدس (٥٧) .

لم يكن جنوب ايطاليا والمجلس البابوى ، من الأشياء المجهولة عند وليم الصوري ، ولا شك انه أمضى وقتا طيبا في الفترة الواقعة بين زمن وصوله ، وبين موعد افتتاح المجمع في الربيع التالى . ومن المحقق أنه اتخذ أصدقاء عديدين ، من بين رجال الكنيسة ، الذين قدموا من جميع أنحاء العالم المسيحى لحضور المجمع ، لأنه وقع عليه الاختيار لسجل أسماء أعضاء المؤتمر وأعماله . وقام وليم بدور كبير في مناقشات هذا المجمع ، وكان من بين الزعماء الذين جاءوا في فرض قيود على استقلال الطوائف الدينية العسكرية ومحاولتها الانفصال عن الحكومات التى تعمل في بلادها . وما أحرزه وليم الصوري من النجاح في هذه الحالة ، لم يؤد فحسب إلى ارتياحه ورضاه، بل يعتبر أيضا نوعا من العزاء عن الفشل الذى أصاب نصيره البطريك فولشر، بأنه لم يحصل من البابا هادريان الرابع ما حصل عليه وليم الصوري من الامتياز من البابا اسكندر الثالث . ومن الدليل على ما ناله وليم الصوري من عطف البابا اسكندر الثالث ، أن البابا عهد إليه ، بعد انقضاء المجمع ، أن يقوم بسفارة خاصة إلى بلاط القسطنطينية . ولا شك أن هذا الطلب تضمن اجراء محادثات تمهيدية، تتعلق بتوحيد الكنيستين اليونانية (البيزنطية) والرومانية ، وهذا المشروع يسره مرة أخرى ما كان من صداقة الامبراطور البيزنطى مانويل للغرب . ومع أن هذه السفارة منعت وليم من أن يعود مبكرا إلى بيت المقدس ، فإن وليم أدرك أنها هيأت له فرصة جديدة ، كما يرفع من شأن

مملكة بيت المقدس وكنيستها^(٥٨) ولم يعتبر وليم نفسه غريبا في القسطنطينية، والواقع أنه لقي ترحيبا كبيرا في العاصمة البيزنطية، حيث استبقاه الامبراطور سبعة شهور، شهد أثناءها خطبة ابن الامبراطور لابنة لويس السابع ملك فرنسا، كما شهد زواج ابنة الامبراطور مانويل، من كتراد، شقيق وليم مونتفرات. ثم أذن الامبراطور، لوليم بمغادرة القسطنطينية، بعد أن عهد له بالقيام بسفارة إلى أنطاكية^(٥٩).

عاد وليم إلى صور سنة ١١٨٠، بعد غيبة استمرت سنتين، وبعد أن اطمأن إلى أنه أفاد من رحلاته. ولمس وليم تغييرا محسوسا في بيت المقدس لم يكن معروفا له عند مغادرته لها سنة ١١٧٨.

لم تتغير مشاعر الملك بلدوين نحوه، غير أن صحة الملك ازدادت سوءا، إذ اشتدت وطأة المرض عليه، وأثار ذلك مأساة الوصاية، وكذا ولاية العرش. واختلفت الآراء حول هذين الأمرين، ولم تلبث أن تطورت إلى ظهور حزبين؛ إذ أن سبيلا أخت الملك، والتي تعتبر وقتذاك عاملا سياسيا هاما في حل هذه المشكلة، قررت أخيرا أنه لا ينبغي لأحد أن يتدخل في أمر زواجها. وعلى أساس هذه النظرية، تعلق قلبها بمغامر وسيم صغير السن، اسمه جاي لوزيجنان، على الرغم من أنه يقل مسكاته عن ابن بيتون. وشجعها على هذا العزم والتصميم، ازدياد نفوذ أمها أجنس Agnes وشدة تأثيرها على الملك أثناء مرضه. غير أن هذا الزواج لقي معارضة من قبل طبقة النبلاء الذين استقروا بالمملكة منذ قيامها، لاسيما من ريموند أمير طرابلس. ولو كان وليم الصوري حاضرا وقتذاك، لانحاز أيضا إلى المعارضين، فضلا عن أن صداقته للملك بلدوين يصح أن تحول دون تحقيق هذا الزواج^(٦٠).

غير أنه حدث أثناء غياب وليم الصوري، أن قوى نفوذ أجنس ولما ذاع أن ريموند أمير طرابلس، وبوهمند أمير انطاكية، نفذوا بجيوشهما إلى المملكة، جرى اقتناع الملك بلدوين بأن لهما نوايا سيئة ضد العرش، ولن يحول دونهما إلا المبادرة بزواج سبيلا من جاي لوزيجنان. ولذا وافق الملك

على عقد الزواج الذى تم فى أثناء الأسبوع المقدس ، فى وقت لم تجر السوابق بعقد الزواج فيه ، وذلك قبل قدوم ريموند إلى بيت المقدس . وبذلك أضحي جاي لوزيجنان وصيا قويا ، وخليفة للملك بلدوين على العرش وأيده فى دعاويه كل القادمين الجدد والمغامرين ، الذين جاءوا إلى الشرق بلمتمسون فيه الأراضى والوظائف . أما الأرسقراطية القديمة الذين أسس اقطاعاتهم أجدادهم وآباء أجدادهم ، فأنهم كانوا يؤثرون أن يتولى الوصاية ريموند أمير طرابلس . وبفضل أجنس أم الملك بلدوين ، اضحي لحزب جاي السيطرة فى البلاط . وكأنما أراد القدر ذلك ، إذ أن البطريرك أمريك مات وقتذاك ، ووفقا لكل الروايات والتواريخ ، أيد الملك بلدوين ورجال الدين ترشيح وليم الصورى ليخلف البطريرك فى منصبه . واذ جرت العادة بأنه لا بد أن يعرض اسمان على الملك ليختار أحدهما ، تقرر أيضا ترشيح هرقل رئيس أساقفة قيسارية ، وأهم ما امتاز به هذا المرشح من صفات ، ما اشتهر به من شخصية جذابة ، وما يربطه بأجنس من صداقة (٦١) .

ونظرا لأن الحزب الذى يسيطر على أمور البلاد ، رفض أن يؤيد انتخاب وليم الصورى ، لماله من صلة وطيدة بالحزب المعارض ، تقرر انتخاب هرقل بطريكا . ولم يستطع الملك أن ينتصر لمؤدبه ، وفى ١٦ أكتوبر سنة ١١٨٠ ، صار هرقل بطريكا لبيت المقدس (٦٢) .

هذا الاجراء . أوصد فى وجه وليم الصورى باب الارتقاء فى السلك الكنسى ، نظرا لأن خدمة هرقل سوف يطول أمدها لأنه أصغر سناً من وليم ، كما أن عدااء حزب البلاط أضحي من الصراحة والعنف ، ما أدى إلى غروب نفوذ وليم الصورى . فظالما سيطر أعداؤه على الملك ، فإن ما حازه من خبرة فى الأمور الدولية ، فى روما والقسطنطينية ، ضاع هباء . وعلى الرغم من أن وليم لازال مستشاراً للملك ، فإن الحاجة لم تعد ماسة إلى خدماته إلا فى بعض المناسبات الرسمية . ولا شك أن ما حدث من تغيير فى الأوضاع ، كان ضربة خطيرة لأحاسيسه وعواطفه . وفى سنة ١١٧٨ ، كان وليم أقوى

موظف بالمملكة تقرر إنفاذه إلى عواصم العالم ، ليرعى مصالح دولة بيت المقدس وكنيستها ، غير أنه ما كاد يعود حتى وجد نفسه قد تجرد من كل نفوذ وسلطان (٦٢) . غير أنه حينما فكر فيما التزم به من وعد ، وارتبط به من عهد ، أبى أن يجيد عن ولائه لبلده ومملكته . فإذا لم يستطع أن يخدمهما مباشرة بما يبذله من نصيحة ، وبما يقوم به من نشاط ، فلا زال يؤدي ذلك بطريق غير مباشر ، وذلك بالمضى في كتابة تواريخه (٦٤) .

ظل وليم الصوري متفرغاً لهذا الأمر مدة سنتين ونصف سنه ، فإذا فرغ من الكتابة ، انصرف إلى القراءة ، وتناول قراءته معظم المؤلفين القدامى ، الذين درسهم أثناء تلمذته ولم يعد السامعون له الملك أو البلاط ، وأدرك وليم الآن ، أنه يكتب لجميع العالم المسيحي ، وبهذا الغرض الكبير الذي استقر في ذهنه أعاد النظر فيما سبق أن كتبه ، وأضاف إليه من النقط الجغرافية والأثرية ما لم يكن يحتاجها سامعوه الأذنون (الملك والبلاط) . ولا شك أنه حينما راجع وليم بعض الفقرات التي سبق أن كتبها في تاريخه ، أعاد كتابتها في ضوء ما حدث من ازدياد علمه وتغير نظره (٦٥) .

على أن وليم الصوري لم يغفل مطلقاً الأمور الجارية ، فليس ثمة من هو خير منه في إذاك وضع المملكة ومكانتها في الأمور الدولية . رأى أن كل ما يقوم به حزب البلاط من أعمال ، تعتبر خاطئة وضارة بالمملكة . ونظراً للهدنة المعقودة بين الملك بلديون وبين صلاح الدين ، الذي انصرف إلى معالجة أمور المسلمين في الشرق والشمال ، توهمت المملكة أنها بنجوة من الخطر . غير أن وليم أدرك تماماً أهمية ما يبذله صلاح الدين من جهود لتوحيد العالم الإسلامي ، وما يترتب على ذلك من نتائج . إذ تطلب الموقف بذل أقصى الجهود لحشد كل القوى لمواجهة الهجوم المقبل الذي سوف يشنه صلاح الدين . غير أن وليم رأى أن الأمور في بيت المقدس تجري عكس ذلك : إذ دأب حزب البلاط على أن يغفل أمر البارونات القدامى ، وحرص على الاستغناء عن ولائهم ، وبلغت الأزيمة ذروتها في ربيع سنة ١١٨٢ ،

حينما اشتد ضغط المستشارين على الملك ، حتى أوشك أن يعلن الحرب على تابعه القوى ، ريموند أمير طرابلس ، وأدرك وليم الصوري أن الحرب الأهلية إذا نشبت ، فسوف تعصف بالمملكة^(٦٦) . وعندئذ توقف وليم عن الكتابة واستطاع هو وجماعة من العقلاء ذوى رأى من الحزبين ، أن يقنع الملك بالصفح عن ريموند واسترضائه . ولعل المنحة التى بذلها بلدوين لرئيس أساقفة صور ، وليم ، فى أبريل سنة ١١٨٢ ، والتى كان ريموند من شهودها ، تعتبر دليلاً على ما حدث من التوفيق بين الملك بلدوين وريموند ، وعلى نصيب وليم فى ذلك . ومع ذلك ، لازالت السلطة فى يد رجال البلاط ، ولا زال حزبهم يرتكب أخطاء فاحشة . وما حدث من اشتباكين ضد صلاح الدين فى الصيف والخريف من تلك السنة (١١٨٢) ، نجم عنهما هزيمة الصليبيين^(٦٧) . ثم ارتحل صلاح الدين إلى شمال الشام ، دون أن يحفل بعقد هدنة مع مملكة بيت المقدس^(٦٨) . وما لحق سياسة البلاط من الاهانات والتحقير ، تركت أثراً سيئاً فى نفس وليم ، فتوقف عن تسجيل هذه الأخطاء الفاضحة ، وحاول أصدقاؤه أن يحملوه على الماضى فى الكتابة ، غير أنه ظل فترة من الزمن يقاوم توسلاتهم^(٦٩) .

وأضحى فى وسع الملك بلدوين ، فى أواخر سنة ١١٨٢ ، أن يتحرك بجيشه ، فتوقف فى صور كيما يحتفل بعيد الميلاد . وعلى الرغم من أن وليم لم يسجل ما دار بينه وبين الملك من أحاديث ، فلا شك أنها لم تنطو على الثناء على سلوك جاي لوزيجمان وشيعته^(٧٠) .

ولما أغار صلاح الدين مرة أخرى على المملكة سنة ١١٨٣ ، حشد الملك بلدوين أكبر جيش لمقاومته ، وتولى قيادة الجيش جاي ، لما حل بالملك من المرض مرة أخرى . كثر اللجاج والنقاش بين قادة الجيش الصليبي ، غير أنهم لم يقوموا بعمل من الأعمال ، بل أن قوات جاي تعرضت للتطويق من قبل جيش صلاح الدين . فلما انسحب صلاح الدين^(٧١) ، تفرق الجيش الصليبي ، دون أن يضرب ضربة واحدة ، فاشتد سخط الناس ، لما تبين لهم

من ضعف القيادة الصليبية. ولما نهض صلاح الدين مرة أخرى ، لحصار الكرك ، تولى بلدوين القيادة ، غير أنه عهد إلى ريموند بتوجيه العمليات الحربية وتسييرها . لم يخسر جاي فحسب ثقة الملك بلدوين ، بل إن سلوكه ازداد سوءا ، حتى أن الملك نزعه من الوصاية واتخذ من التداير ما يكفل عدم توليه الحكم بل إن الملك حاول أيضاً أن يرغم أخته، سبيلاه، على أن تعلن طلاقها من جاي، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل. ومع ذلك ، ألزم الملك ، بارونات مملكة بيت المقدس ، بأن يعترفوا بابن وليم هونفترات (من سبيلاه) وريثاً له في الملك ، وجعل ريموند أمير طرابلس وصياً لمدة عشر سنوات . ويعتبر ذلك آخر ما حدث في عهد بلدوين الرابع من الأعمال الهامة (٧٢).

أحس وليم الصوري، بعد أن صار ريموند وصياً ، أن المملكة أضحت في أيد قوية . يضاف إلى ذلك أن ماجرى من عقدهدنة بين صلاح الدين وريموند، أدى إلى الهدوء والسلام ، وأضحى المستقبل يبشر بالأمل عند وليم الصوري، فكان ذلك حافزاً له ، لأن يعود إلى الكتابة من جديد . ومع ذلك ، لا بد أنه حدث وقتذاك أن انتاب وليم المرض ، لأنه جرى سنة ١١٨٤ ، حينما أخذ وليم يراجع أو يكتب تصدير مؤلفه ، تعرض لوصف الخطة التي اتخذها في كتابه ، والتي تقوم على أساس تقسيم الكتاب إلى ٢٣ فصلاً ، وأشار إلى أنه سوف يضيف إلى هذه الفصول ما استجد من الأحداث ، ثم ختم هذا التصدير بالعبارة المشهورة *vita comites* (٧٣) . على أن وليم لم يكتب إلا بداية الفصل الثالث والعشرين ، وكان اختيار ريموند وصياً ، آخر ما أورده وليم في كتابه قبيل وفاته (٧٤) . أما ظروف وفاة وليم وتحديد زمنها ، فليست معروفة تماماً ، غير أنها لا بد أن حدثت قبل مايو سنة ١١٨٥ ، وهو التاريخ الذي حل بدلا عنه في المستشارية نائبه في هذه الوظيفة . ولم يعش وليم ، ليشهد أن آماله الذهبية كانت سراباً ، وأن أخطاء الحزب الذي يعارضه ، لا بد أن تؤدي إلى سقوط بيت المقدس ، وكان يخشى أن تقع المدينة قبل أن يتم صلاح الدين توحيد العالم الإسلامي .

وما وقع في السنتين التاليتين من أحداث ، أيد سلامة حكم وليم . ففي سنة ١١٨٥ ، هلك بلدوين الرابع ، تحت ضغط البرص ، واتخذ ابن وليم موثفات ، اسم بلدوين الخامس ، لمدة سنة تقريباً ، إذ أنه لم يلبث أن مات سنة ١١٨٦ . أما الحزب الذي جرى طرده من الحكم ، بقيادة جوزلين ، أخى أجنس (أم بلدوين الرابع) ، وسديلا ، فأخذ بعد انقلاباً ، ترتب عليه أن صار جاي ملكاً على بيت المقدس ، وانتهت وصاية ريموند ، بعد أن اقترنت بالكراهية المريرة . فلما استأنف صلاح الدين العداة والنضال ، سنة ١١٨٦ ، تكرر الموقف الذي حدث سنة ١١٨٣ . غير أن جاي في هذه المرة ، هو الذي اختار الحرب ، فمياً بذلك الفرصة لأن يتخذ صلاح الدين حطين ساحة للمعركة الفاصلة . ونظراً لأنه حشد في هذه المعركة جميع قوات المملكة ، فان ما حاق بهذه القوات من هزيمة ساحقة ، أدت إلى أن يسترد صلاح الدين ما استولى عليه الصليبيون من أملاك ، فلم يبق في أيديهم إلا مدينة صور ، التي أصبحت قاعدة الأعمال الحربية ، التي أدت إلى الإستيلاء على عكا في الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩١ . فما جرى من الحوادث سنة ١١٨٧ ليس إلا حلقة واحدة في الملحمة التي سطرها وليم سنة ١١٨٣ ، والتي تبدأ فيها بسقوط المملكة اللاتينية (٧٥) .

مؤلفات وليم الصوري

هذه هي سيرة وليم ، رئيس أساقفة صور ، وعلى الرغم مما اشتهره وليم من أنه من رجال الكنيسة ، ومن رجال السياسة ، فالواقع أن ما أحرزه من شهرة ، إنما يرجع إلى كونه مؤرخاً .

على أن كل مؤلفات وليم الصوري لم يجر الاحتفاظ بها . فالأوراق الرسمية التي حررها أساساً في هيمة مراسلات صادرة عن الملك بلدوين الرابع ، لم يبق منها إلا ما ورد عنها من اشارات في التواريخ المعاصرة ، وفي التاريخ الذي ألفه . أما الوثائق التي أصدرها باعتباره مستشاراً ، فلم يبق منها إلا

القابل الذى لا يتعدى انتقال ملكية ، أو التصديق على امتيازات . وكل هذه الوثائق إنما يغاب عليها الصفة الشكلية المألوفة ، ومن الواضح أن جانباً منها ، من إنشاء ديوان الرسائل ، ولم يحفل بها وليم الصورى ، على الرغم من أنها تحمل توقيعها (٧٦) .

وضاع أيضاً السجل الذى حرره وليم الصورى عن مجمع اللاتران الثالث ، وذلك بناء على طلب زملائه الذين شهدوا المجمع ، وقد أودع نسخة منه فى محفوظات صور . فاذا كان من أخبار هذا المجمع مازال باقياً ، فالراجح أنه مستمد من هذا التقرير أو السجل (٧٧) .

أما الكتاب المعروف باسم *Gesta orientaliū principū* (تاريخ أمراء الشرق) ، فإنه اختفى وضاع . وعلى الرغم من أن نسخة من هذا الكتاب ظلت معروفة بعد مائة سنة من تأليفه ، ومنها نسخة كانت محفوظة فى كاتدرائية *St. Albans* بإنجلترا ، فإن هذه النسخ ، بما فيها نسخة *St. Albans* ، ضاعت أيضاً . وكل ما نعرفه عن هذا التاريخ يصح أن نلتمسه فى النقرات ، التى نقلها عنه جاك فيترى *Vitry* ، ووليم الطرابلسى ، ووليم الصورى نفسه (٧٨) .

والكتاب الوحيد الذى لازال معروفاً من مؤلفات وليم الصورى ، هو المشهور باسم :

Historia Rerū in Partibus Transmarinis Gestarū. * (٧٩)

ولحسن الحظ أن هذا الكتاب بلغ من الشمول ما يجعلنا نقف على صفات وليم باعتباره مؤرخاً ومن رجال الأدب .

ولا نعلم ما إذا كان وليم الصورى هو الذى جعل للكتاب هذا العنوان ، ومع ذلك فمن المحقق أن العنوان الذى يحمله الكتاب الآن ، هو الذى اشتهر به فى غرب أوروبا .

(٧٩)* وهو الذى جرت ترجمته بعنوان

A History of Deeds Done beyond the Sea.

وقام على ترجمته *Krey, Babcock* ونشرته جامعة كوليبيا سنة ١٩٤٣ فى جزئين .

وسبق الإشارة إلى أن وليم الصورى شرع فى كتابة ثلاثة تواريخ ،
لاتاريخ واحد ، وذلك بناء على طلب الملك آمورى . وأول هذه التواريخ هو
الكتاب المعروف باسم *Gesta Amalrici regis* ، الذى شرع فى كتابته
فى سنة ١١٦٧ . غير أن هذا العمل توقف سنة ١١٧٠ ، وذلك لأن الملك
آمورى طلب إلى وليم أن يؤلف كتابا عن التاريخ السابق للملكة ، ويعتبر
مدخلا للكتاب السابق . واتخذ وليم لهذا الكتاب الجديد عنوان :
Gesta Hierosolymitanorum regum . ويعالج من التاريخ الفترة التى تبدأ
بالحملة الصليبية الأولى ، أى منذ سنة ١٠٩٤ أو سنة ١٠٩٥ ، وتنتهى ببداية
عهد آمورى سنة ١١٦٣ .

أما الكتاب الثالث ، فإنه يبدأ بعد هذا التاريخ (سنة ١١٦٣) ، بفترة
وجيزة ، وهذا الكتاب المعروف باسم : *Gesta orientaliu principum* :
الذى أراد وليم منه ، الالمام بتاريخ الشرق الإسلامى منذ زمن النبى محمد صلى الله
عليه وسلم ، إلى زمن وليم (٨٠) .

عكف وليم على تأليف هذين الكتابين معاً فى وقت واحد ، ومضى
فيهما حتى سنة ١١٧٥ . وعلى الرغم من أنه حدث فى السنوات الخمس التالية
من المشاغل ، ما صرفه عن الانقطاع للكتابة ، فإنه لم يتخل مطلقاً عن كتابة
تواريخه . فى سنة ١١٨٠ أستأنف الكتابة من جديد ، وفى سنة ١١٨٢ ،
سأه ما وقع من الأحداث بمملكة بيت المقدس ، فعزم على أن يفرغ من
تاريخه . وحرص على أن يعمل على التقارب بين كتابى *Gesta regum*
و *Gesta Amalrici* كما يجعل منهما تاريخاً واحداً متصلاً .

على أنه حينما نظر إلى عمله فى مجموعه ، أدرك أنه لا يشبع رغبة جمهور
القراء ، الذين ازداد عددهم ، والذين قصد أن يوجه اليهم هذا العمل . إذ
تطلب منه إضافة مادة للتوضيح ، فضلاً عن إجراء تهذيب شامل لما كتبه .
ولتحقيق ذلك اختار من *Gesta orientaliu principum* بعض المواد ،
وأرد تهديداً مختصراً ليربط بين ضياع بيت المقدس من يد المسيحيين سنة

٦١٤ (فتح القدس لبيد المقدس) ، وبين العزم والتصميم على استردادها في سنة ١٠٩٤ أو ١٠٩٥ ، وفي الوقت ذاته اختار من ذلك الكتاب أيضاً من النصوص ما يشرح ما وقع فيما بعد من الأحداث المرتبطة بالحملة المصرية (٨١) .

والراجع أن الكتاب الذي رأى وليم الصوري أن يجعله ينتهي في سنة ١١٨٢ ، لم يبلغ به إلا نهاية سنة ١١٧٩ أو أوائل سنة ١١٨٠ . غير أنه يجوز أنه أجرى بعض التعديل حينما استأنف الكتابة من جديد أو آخر سنة ١١٨٣ أو أوائل سنة ١١٨٤ . إذ أن التصدير الذي كتبه وليم في سنة ١١٨٤ ، يشير إلى ما تضمنته خطته من تقسيم الكتاب إلى فصول (كتب) ، وإلى ما يأمله من إضافات جديدة حسبما تقتضيها الأحوال والظروف . والراجع أن فاتحة الكتاب ، تعتبر آخر فصل كتبه وليم الصوري ، ويرجع تاريخها إلى سنة ١١٨٤ (٨٢) .

وليم الصوري المؤرخ

عند تقدير عمل وليم ، باعتباره مؤرخاً ، ينبغي ألا يغيب عن خاطرنا ، أنه لم يتلق تدريباً خاصاً لتأدية هذا النوع من العمل . إذ لم يكن المقصود من تعليمه سوى أن يتولى إحدى الوظائف الكنسية . وحينما طلب منه آورى كتابة التاريخ ، كان وليم في أول عهده بالوظائف الكنسية . والمعروف أن دراسة وليم اقتصرت على القانون ، وأنه ظل سنوات عديدة ، قبل الشروع في كتابة التاريخ ، يؤدي ما يتعلق بكنيسة صور ، من الأمور القانونية ، يضاف إلى ذلك أنه كان وقتذاك قد تقدم في العمر . وهذه الحقائق تتجلى في كتابه حيث أن ما ورد بكتابه عن الأشخاص وسائر الأمور ، إنما تأثر بما لرجل الكنيسة من حكم أخلاقي ، وبما لرجل القانون من النظرة الموضوعية . وكلما اجتمع سوياً الأمور الكنسية والقانونية ، ازداد اهتمامه (٨٣) .

على أننا لا نعلم ما اتخذته وليم الصوري من خطوات ، للتعرف إلى

ما يتطلبه عمله الجديد من احتياجات ، وذلك حينما وافق على أن يشرع في كتابة تاريخ أمربك *Gesta Amalrici* ، سنة ١١٦٧ . غير أن ما قام به ولیم من اجراءات وتدابیر ، ليست خافية ، بل تبدو واضحة جلية . فكان لزاماً عليه أن يستعرض قادة الحملة التي توجهت أخيراً (سنة ١١٦٧) إلى مصر ، في ضوء أحداث الحملة . والواقع أنه لم يدرس قائداً واحداً ، بل درس قادة عديدين ، واهتم بتقدير براهين كفايتهم ، وذلك بفضل ما اشتهر به من الدراية القانونية ، وظلت هذه هي خطة حتى سنة ١١٧٠ . والراجح أنه متى اقتنع بما اجتمع له من المعلومات ، عكف على كتابة النتائج التي توصل إليها من تحرياته . ومن خصائص كتابه في هذه المرحلة ، مدى ما ارتبط بعمله من المعلومات ، فلم تشمل فحسب التفاصيل عن الحملات المصرية ، بل ما يتعلق بها من تفاصيل المفاوضات الدبلوماسية . بضاف إلى ذلك أنه رأى أنه لا بد له أن يتعرف إلى خصائص البلاد ، التي توجهت إليها الحملة ، وإلى ما اشتهر به سكانها من الصفات ، وأن يحصل على تفاصيل ما يجرى من رسوم في البلاط الفاطمي بالقاهرة ، وأن يقف على نواحي النشاط التجاري بالبلاد وأهمية الاسكندرية . والواضح أن كل هذه المعلومات لم يستمدها من مؤرخ معاصر له ^(٨٤) .

على أن ولیم لم يتعرض إلى ما يواجه المؤرخ من مشا كل إلا حينما شرع في تأليف كتابه الثاني المعروف باسم *Gesta regum* (تاريخ المملكة) . إذ أن جانبا كبيرا من هذا الكتاب ، لاسيما الشطر المتقدم منه ، استمده من المصادر المدونة . غير أنه في إفادته من هذه المصادر ، لم يتخذ أساليب آحاد الناس وعامتهم ، فلم يجر على نهج معظم مؤرخي عصره بأن ينقل خبرا بأسره ويورده في كتابه ، إما بنصه كاملا ، وإما مختصرا .

فمن الواضح أنه في الحرب الصليبية الأولى ، أفاد ولیم من المؤلفات التي كتبها المؤلف المجهول (أعمال الفرنجة) ، والتي ألفها ريموند اجيل ، ووالتر ، وفولشر قسيس شارتر ، وألبرت الأخيني . والواضح أيضا أنه عند شروعه في

الكتابة ، كان يحتفظ بهذه المؤلفات فأفاد منها كلها . فإذا بدا أنه ! كتنى بمؤلف واحد ، دون سائر المؤلفين ، كان ذلك راجعا الى أن هذه المادة التي اقتبسها ، لم ترد إلا في هذا الكتاب الذى استعان به . وما يصل اليه من نتائج ، إنما يستخلصها بعد مقارنة مصادر عديدة ، فإذا حدث بينها تعارض فإما أن يأخذ بحكمه ورأيه ، وإما أن يورد الروايات المختلفة . ويحدث أحيانا أن يرفض من الروايات ما تنطوى على مبالغات ظاهرة ، كالروايات الخيالية التي أوردتها ألبرت الأخيني ، على الرغم من أنه يجوز أن تكون هذه الرواية هي الوحيدة عن الموضوع^(٨٥) .

واعتمد ولیم أحيانا على الروايات الشفوية . والواقع أنه لم يفرق بين ما أثبتته من المعلومات المختلفة ، وبين ما ورد من روايات عند مؤرخى الحرب الصليبية الأولى . غير أنه لم يشر الى اسم واحد منهم ، إنما اعتبرهم جميعا مصدرا للرواية لا بد من تقديرها وخصها . وفي ضوء إدراكه لكل ما هو معقول ومقبول ، احتفظ بحق رفض وإقرار ما يترامى له من رواياتهم ، لأنه يدرك أنه يفوقهم في إلمامه بجغرافية وآثار المنطقة التي عالجوها ، فضلا عن درايته بما حدث بها من التطورات الأخيرة . فكتابه ، الذى نبع من هذه التجربة ، إنما دونه بعبارة هو ، لا بعبارة المصادر التي اعتمد عليها . ومن أوجه الاختلاف بين ولیم وبين مؤرخى الحرب الصليبية الأولى ، أنه كان يؤثر أن يتبع موضوعا معيناً منذ بدايته حتى نهايته ، دون أن يحفل بالزمن الطويل الذى يستغرقه ذلك الحادث . وفي كل هذه الأحوال لم تجر تجربته وخطته وفق أنموذج معين ، بل إنما تكاد تعتبر خطة مؤرخ حديث ، ومن الواضح أن هذه الخطة فاقت ما عند معاصريه من الخطط^(٨٦) .

ومع ذلك يعتبر ألبرت الأخيني المصدر الأساسى الذى استقى منه ولیم الصورى معلوماته في الحرب الصليبية الأولى ، منذ بدايتها حتى الاستيلاء على بيت المقدس ، وما أوردته عن معركة عسقلان ، استمدده ولیم من ريموند الأجيلي ، ثم صار يعتمد حتى الكتاب الثانى عشر من مؤلفه على فولشر قسيس شارتر .

(٩ م - الحروب الصليبية)

أما خاتمة حياة ريموند أمير أنطاكية ، فنقلها وليم عن جوتيه . وكلما طالت الرواية ، ازداد اقتباسه عن مصادر مجهولة ، وما تعرضنا له في بعض الأحوال من الخداع إنما يرجع إلى النجائنه الظاهري إلى شاهد عيان . فيقول مثلا عن القتال بحرا ، أنه وفقا لما قرره أناس كانوا حاضرين من أخبار صادقة ، تخضب ماء البحر بالدماء مسافة غير قصيرة ، على أن الخبر ليس إلا رواية منقولة عن فولشر ، الذي فيما نعلم ، لم يكن يثق في نفسه فيما يتعلق بالبحر^(٨٧).

على الرغم من أن وليم الصوري لم يكن شديد الاهتمام بالكتب (الفصول) المتقدمة من مؤلفه ، فإن ما لوليم الصوري من مكانة رفيعة إنما ترجع إلى الطريقة التي سلكها في دراسته ، واتساع نطاق ما قام به من استقصاء المصادر؛ إذ امتدت مصادر بحثه إلى كل الجهات، فحرص على أن يختار لكل حقيقة مستقلة ما يتعلق بها من مصادر أصلية ، ثم صار يستخلص ما تنطوي عليه من مادة . ومع أن وليم لم يشير إلى أسماء المصادر التي استمد منها معلوماته ، ولم يشير إلا إلى القليل منها ، فإن ذلك كان كافيا لأن يعطى صورة طيبة عن الطريقة التي سلكها ، وعن مهارته وكفايته . مثال ذلك أنه حرص على أن يقف على ما قام به تانكرد من تدابير وتنظيمات في طبرية، التي حكمها سنوات عديدة ، فيشير وليم الصوري إلى أن ما أقامه تانكرد من نظام اداري لتلك المدينة ، بلغ من الاتقان والروعة ، أن ذكراه ظلت عالقة في أذهان سكان طبرية سنوات عديدة^(٨٨) . وسعى وليم أيضا إلى أن يحصل على معلومات تتعلق بمدينة Idumea ، فأشار إلى أن ما بلغه عنها من الأخبار ، إنما استمده من الشيوخ والمقدمون في العمر ، وكلها تشير أنه قام بهذا الموضوع من قديم الزمن قلعة^(٨٩) . ولما انفصل الملك أمريك عن زوجته أجنس ، بسبب صلة القرابة التي تمنع حدوث هذا الزواج كان وليم الصوري متغيبا بأوربا ، ولم يستطع أن يحصل من مصدر من المصادر على مدى القرابة بينهما . وبعد بحث طويل ، لجأ إلى ستيقاني رئيسة دير القديسة ماريا Stephanie of Santa Maria Major ، يستقصى منها ما بين

أمريك وأجنس من صلة قرابة ، نظرا لما يربطها بالملكه أجنس من صلة القرابة^(٩٠). أما هيجو (Hugo) أمير قيسارية ، الذي يعتبر من أقدم البارونات بالملكه ، فانه أمدته بتفاصيل كثيرة عن سفارته إلى الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومفاوضاته مع شيركوه عم صلاح الدين . والراجح أيضا أنه أمدته بمعلومات عن بعض المعاهدات التي جرى عقدها مع صلاح الدين . إذ أن هيجو حاول دائما أن يوجه سياسة ملوك بيت المقدس لصالح صلاح الدين^(٩١) . ولما فشلت حملة أمريك الأخيرة على مصر ، لم يستطع ولیم الصوري أن يخفي دهشته . فمكاد يعود من روما إلى سوريا ، حتى طلب من كل البارونات ، ومن الملك أمريك نفسه ، أن يشرحوا له أسباب هذا الفشل^(٩٢) . وهذه الأمثلة تدل على ما تمهيا لولیم الصوري من المصادر التي استقى منها معلوماته ، سواء كانت من ملاحظاته وتجاربه الشخصية ، أو الروايات المستمدة من شهود العيان^(٩٣) ؛ كالبارونات الذين شهدوا بأنفسهم ما وقع من الأحداث ، أو انشيوخ المتقدمون في السن الذين أسهموا في هذه الأمور^(٩٤) . فإذا حصل على روايتين متناقضتين ، أو ردهما دون تحيز ، وجرى على هذا في كل كتابه ، في كل الأمور صغيرها وكبيرها ، وفي كل الأحوال . ومن الأمثلة على ذلك أنه أورد الروايات المختلفة لأسباب الوباء الذي تعرض له الجيش في الحرب الصليبية الأولى ، في أنطاكية^(٩٥) .

وحصل ولیم الصوري على أخبار حملة لويس السابع وكنراد الثالث ، من شهود عيان ، أخبروه بعدد الجيش ، وأمدوه بأرائهم عن العلاقات بين لويس وريموند أمير أنطاكية^(٩٦) . غير أنه لم يدرأ به صراحة في الأساليب الفاسدة التي أدت إلى فشل حصار دمشق سنة ١١٤٨ ، بل أورد ما تعلق بهذا الحادث من روايات عديدة متباينة^(٩٧) . وبهذه الصورة تحدث ولیم عن الاستيلاء على بانياس سنة ١١٦٥ ، وعن قوة الجيش الذي هاجم به أمريك مصر ، وعن النزاع الأخير الذي حدث بين أمريك والفاطميين^(٩٨) . ويشير ولیم الصوري ، إلى ما أحرزه الملك بلدوين الرابع من انتصار في

معركة الرملة Mount Gisard سنة ١١٧٧^(٩٦). ويذكر أنه لا يعرف شيئاً عن عدد من هلك من الفرنج في هذه المعركة . والمعروف أن ما أورده وليم الصوري عن هذا الحادث من أخبار استمدته من أوثق المصادر . وذلك لأن وليم ، باعتباره مستشاراً للملك بلدوين الرابع فضلاً عن مكانته الدينية ، أسهم فيما يجرى من الأحداث الهامة ، ومع ذلك لم يغفل وليم مواصلة تحرياته ، إذ تحتم عليه أن يشترك في المفاوضات التي وقعت في سنة ١١٧٥ ، مع فيليب كونت فلاندر ، وأشار وليم إلى أن ، ما أورده ، إنما استمدته من تحرياته الخاصة ومن كونت فلاندر ذاته^(١٠٠).

وبذلك تيسر لنا أن نقف على مصادر تضارع في الوفرة مصادر ألبرت الأخيني ، غير أن ما اعتمد عليه وليم من المصادر ، تفوق في مكانتها مصادر ألبرت ، يضاف إلى ذلك ما تجلّى من اهتمام وليم الصوري بإثبات أدلته وشواهد^(١٠١) .

والواضح أن وليم الصوري جرى في الإفادة من المصادر العربية ، على النحو الذي سلكه في المصادر الأخرى . وسبق الإشارة إلى أن وليم لم يذكر إلا مصدرأ عربياً واحداً ، على أن هذا المصدر وقف عند سنة ٩٣٧م ، على حين أن وليم أشار إلى أن كتابه سوف يبلغ على الأقل سنة ١١٨٢ . والمصادر العربية التي استخدمها وليم إنما حصل عليها من مجموعة الكتب العربية التي أمده بها الملك آموري . ويتبين من الفقرات التي أوردها وليم عن التاريخ الإسلامي ، أنه لا بد أنه استمد معلوماته في هذه الناحية من روايات شفوية ، ومن نقوش مدونة على العمار . على أن ما أورده عن بعض الأمور في التاريخ الإسلامي ، تختلف في صورتها عما ورد في المصادر التي اعتمد عليها ، أو أنها تتطلب من يبدأ من البحث . والمعروف أن مدينة صور وقتذاك كان بها أربعة مساجد ، يتردد إليها المسلمون من أهل البلد ومن القادمين إليها . والراجح أن وليم لم يجد عناء في أن يلتمس من علماء العرب أو المصادر العربية ما يحل مشاكه^(١٠٢) .

اقتنى ولیم الصوری أثر فولشر في روايته عن أحوال البلاد المقدسة ، غير أنه فاق فولشر في الإسهاب والتفصيل . وبينما ينكر فولشر ما تعرضت له هذه البلاد من التخريب والتدمير ، وما أصاب الفقراء والمساكين من الظلم ، يرسم ولیم الصوری من نفس هذه العوامل صورة لما ساد من الانحلال العام ، الذي نجم من البؤس الشديد ، لامن مجرد اللصوصية (١٠٣) .

اعتبر فولشر قدوم الحملة الصليبية الأولى ، إنما جرى بفضل تدخل العناية الإلهية ، واعتبرها معجزة بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى . أما ولیم الصوری فاعتبرها حدثاً تاريخياً هاماً ، أدّى إلى الخير ، فكأنه أرجعها إلى الجهود البشرية ، كما أن العناية الإلهية هي التي تولت إرشادها وقيادتها (١٠٤) .

ويؤمن ولیم الصوری بالمجتمع الذي يعيش فيه ، وأن ما يقع من الأحداث إنما يرتبط بالجهود البشرية . على حين أن مؤلف كتاب أعمال الفرنجة ، وفولشر ، يشير إلى ما ورد في الإنجيل من نبوءات خاصة . فلا يمضى ولیم في كتابه خطوة إلى الأمام ، إلا بعد أن يطمئن إلى كل النقط التي يعالجها ، من حيث الزمان والمكان . فحينما يروى خبر خروج أول جماعة من الصليبيين للسير ، يتهنئ الفرصة ، كما يورد عن مملكة الحجر ، ملاحظات موجزة ودقيقة . وقبل أن يصل جودفرى إلى القسطنطينية ، حاول ولیم أن يعطى فكرة صحيحة عن أحوال الإمبراطورية البيزنطية ، ودالماشيا وبلغاريا والصرب . وزاد في خصوصية روايته عن الحرب الصليبية الأولى ، ما أورده من وصف للقسطنطينية ونيقية ، وأنطاكية والرها ، وبيت المقدس وما وقع في تاريخها من أحداث .

وعلى هذا النحو سار في تأليفه خطوة خطوة ، حتى إذا اقترب من عصره ، أمعن في الإسهاب والتفصيل . ففي أخباره عن أموري ، أسهب في وصف أحوال مصر ، إذ أورد تفاصيل كثيرة عن موضع بابلون وتاريخها ، وعن أصل الخلفاء الفاطميين ، وعن عدد مصبات النيل ، وعن اتساع الدلتا ، وعن

التجارة الهندية التي تجتاز برزخ السويس^(١٠٥) . ورجع بأبحاثه الى العصور القديمة ، وكلما وجد اختلافات في الآراء ، لم يهدأ له بال ، إلا بعد أن يسوى هذه الاختلافات .

على أنه كان دائماً يصل الى غرضه ، فهو يلتبس دعامة لما يرويه من الحقائق . وبهذا الغرض نفسه ، لم يسعه إلا أن يذكر أيضاً خبر وفاة البابوات ، ومن خلفهم على كرسى البابوية ، ويشير أيضاً إلى وفاة الأباطرة الرومان واليونانيين ومن خلفهم على الحكم . وفي معظم الحالات ، كان يورد موجزاً لعصورهم ، ويصف أهم ما اشتهروا به من الصفات والطباع ، فليس من الجائز أن يغفل هذه الموضوعات . كما رأى ولیم الصوري ، كيف أن بطاركة بيت المقدس حافظوا على حقوقهم ، وأنهم لم يسلقوا العدالة عند ررما . وما حدث من نزاع بين الامبراطور فردريك الاول والبابا اسكندر الثالث ، امتد أثره ، حتى شعر به المسيحيون في الشام . بل إن ولیم الصوري تولى إجراء مفاوضات لعقد معاهدات ، مع الإمبراطور مانويل البيزنطي ، كيما يحقق بذلك مصلحة لموطنة (البلاد المقدسة) . هذه الأحوال ، لم تيسر لحسب مهمته في بداية عمله ، بل كانت عظيمة النفع له في تحقيق الخطة التي وضعها لتاريخه ، لقد تجاوز أفكار المقاتلين في الحرب الصليبية الأولى ، وأكثرت من ذلك تطلع إلى الربط المنطقي والتماسك التاريخي^(١٠٦) .

على أن الأحوال التي ألف فيها ولیم الصوري كتبه - مثل التغييرات التي تعرض لها وضعه ووظيفته ، والفترات المتقطعة التي عكف فيها على الكتابة ، والتي تبلغ في مجموعها سبع عشرة سنة ، والعجلة التي أتم بها كتابه ، والتي لم تنهيا له بذلك الفرصة لإعادة الكتابة أو المراجعة النهائية - نستطيع أن نقف منها على ما جرى من التحسن في إلمامه بنهج الكتابة التاريخية^(١٠٧) . ذلك أن ولیم كتب أول الأمر على أنه من رجال الملك آموري ، فحرص على أن يرضى الملك والبلاط ، ويبالغ في تقديرهما . وعلى الرغم من أن ولیم بالغ وقتذاك من النضج وإدراك أهمية وظيفته الكنسية واستقلالها ، مالا ينبغي

أن يجعل من نفسه مجرد رجل ذليل من رجال البلاط ، لم يظهر في أعماله المبكرة من الملكية النقدية ما يضارع ما اشتهر به في أعماله المتأخرة (١٠٨).

ولما تولى الحكم تليده، بلدوين الرابع، اتخذت علاقاته مع الملك وضعا مختلفا . فلم يعد وليم مجرد التابع ، بل صار مستشار الملك ، الذي أصابه من المرض ما جعله عاجزا عن تحمل المسؤوليات الكاملة للحكم ، فأضحى لوليم بذلك أهمية كبيرة في هذه المسؤوليات . فعلى الرغم من أن وليم لازال يكتب لإرضاء جمهوره الخاص ، فإن أسلوبه وعبارته أضحى منذ هذه اللحظة يمتاز بالرصانة والجزالة ، نتيجة ما يتحملة من مسؤوليات . وعلى الرغم من أن وليم لازال يعمل على تثقيف الملك ، والترويح عنه ، فإن تعاليمه في توجيه أمور الدولة تعتبر حافزه الأساسي (١٠٩) .

وما ترتب على تغيير سياسة مملكة بيت المقدس ، من إبعاد وليم عن البلاط ، أدى أيضا إلى تطور في تفكيره ووجهة نظره . فلم يعد يكتب لجمهوره الخاص المباشر ، إنما أصبح جمهوره عبارة عن سكان العالم المسيحي اللاتيني . وأضحى غرضه هو الحرص على بناء أمته ، مملكة بيت المقدس اللاتينية . فلم يعد ثمة مجال للألفاظ الجوفاء . فما ادخره في ذهنه من الشئون الدولية ، التي وقف عليها في روما ، والقسطنطينية ، وأراد أن يجعلها تحت تصرف الملك ، لم يلبث أن أثبتها في كتابه ليقف عليها جمهوره .

وعلى الرغم من أن وايم ، حين استأنف الكتابة سنة ١١٨٠ ، أخذ يعالج المادة الواردة في الفصول (الكتب) ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، فإن قدرا كبيرا من الجزء المتقدم، جرت كتابته من الملاحظات التي ترجع إلى عصر مبكر ، إلى سنة ١١٦٧ ، مثال ذلك الفقرات من ١٣ إلى ٣٢ الواردة في الفصل التاسع عشر ، والتي لم تتطلب منه إلا مراجعة بسيطة .

فما بلغه من النضج في كتابة التاريخ ، إنما نلتمسه فيما ألفه وكتبه بعد سنة ١١٨٠ ، لاسيما في الفصول من ٢١ حتى ٢٣ ، وفي فاتحة الكتاب أيضا . على أن وليم الصوري ، ألم في فترة تدريبه على الكتابة بنصيب كبير من المعرفة

عن كتابة التاريخ، فضلاً عن مشا كل علم السياسة. ولذا لم يعد وليم الصوري يحفل في كتابته المتأخرة، بما يصيبه من امتيازات أو وظائف، مثلما كان يفعل في كتابته المبكرة. إذ أن ما حفلت به الكتابة المتقدمة من الأساطير والأمور النافذة، لم تلبث أن اختفت، ليحل مكانها الحكم السديد الناجم عن رسوخه في العلم، الذي يعززه حماس وطني شديد. إذ أن حياة وطنه ورخاهه، تفرض من الالتزامات والواجبات ما ليس في وسع صداقة شخصية أو تقدير المنصب السامى، أن يرغمه على التخلي عنها. يضاف إلى ذلك أن نزوعه إلى ما جرى في العصور الوسطى من تفسير الأحداث وتعليلها على أساس تدخل القدر والعناية الألهية، وهو النزوع الذي نشهده في كتابته المتقدمة، بلغ في هذه المرحلة تطوره التام.

والواقع أننا نجد في عصر من العصور من الكتاب، إلا عددا قليلا يستطيعون أن يعالجوا عصورهم، مثلما عالج وليم الصوري عصره، في نزاهة تامة، وبصيرة نافذة وإدراك سليم. على أن وليم خرج على ما هو مألوف، فإنه بفضل ما التزم به نفسه من معايير صارمة، استمدها من غيره من الكتاب، لم يقبل أن يسيء إلى أولئك الذين يعتبرون مسئولين عما أصابه من فشل. بل إن أجنس كورتناى، التي تعتبر أكبر من أساء إليه، لم تتعرض لنقده إلا مرة واحدة، وذلك بأن وجه إليها النقد عن أمر لم يرتبط بشخصه.

وما اشتهر به وليم الصوري من النزاهة والإنصاف، وهما صفتان قلما ضارعه فيهما أحد من المؤرخين المحدثين، لم يكن بأقل وضوحاً من مهارته في تنقية الروايات الشفهوية التي يستمد منها معلوماته، من كل ما تعلق بها من انفعالات حادة، وما يرتبط بذلك من المحاباة. ولذا فإن تحليله لأسباب تمرد اليونانيين على اللاتين في القسطنطينية سنة ١١٨٢، وانتصار صلاح الدين، لم يتطلب من العلماء المحدثين إلا إضافات وتصويبات ضئيلة.

وينبغي أن نلاحظ أيضاً ما أصاب وليم من التوفيق فيما يحتاجه المؤرخ من فنون أخرى، تعتبر هيئة بالقياس إلى ما جازاه من فضائل قوية. فلم يشتهر

وليم الصوري بالتعصب ضد العنصر أو الدين أو نظام الطبقات . فلم يكن اللاتين وحدهم ، هم الذين يستطيعون أن يؤدوا أعمالاً مجيدة ، بل يشاركونهم في ذلك اليونانيون والأرمن والسوريون والعرب والترك ، وكذلك كان شأن الفلاحين والتجار والنبلاء . بل أنه أقر للمسلمين أيضاً بمستويات رفيعة من الأخلاق والمبادئ . وطالما ردّد وليم ما اشتهر به الغرب من التعصب ، غير أن هذا النزوع للتعصب لم يلبث أن زال نهائياً . أما ادراكه لما ينبغي الأخذ به في رواية أحداث الماضي ، فظل على ما اشتهر به قديماً من القوة والاتساع . وكل ما يصح انكاره عليه ، ما أورده من النوافه التي تتعلق بما ساد البلاط في بيت المقدس من الثثرة والمسامرات ، التي طالما استمع إليها ، فأوردها في كتابه .

ولازال يسترعى اهتمام وليم ، أمور الحياة السائرة ، من الصناعات والعمارة والحياة الاجتماعية ، فضلاً عن الأمور الهامة التي تتمثل في النواحي العسكرية والكنسية والدبلوماسية والحكومية . وكل هذه الأمور ، ما عدا العسكرية منها ، لقيت من وليم في معالجتها من شدة الادراك ما لم تلق من المؤرخين المعاصرين له .

بلغ وليم من الاقتراب من معايير ومقاييس الدراسة التاريخية الحديثة ، ما يجعلنا ندهش أنه لم يخضع في موضوع من الموضوعات إلى قيود عصره . ونظراً لأنه جعل مملكة بيت المقدس أساس دراسته وكتابته ، فإنه افتقر أحياناً إلى اتساع الادراك . فعلى الرغم من أن وليم تعرض لأمور لا تقتصر أهميتها على عالم البحر المتوسط ، بل تمتد أيضاً إلى غرب أوربا ، فإنه اكتفى من هذه الأمور بما يتعلق بالوطن الذي يعيش فيه . فلم يكدهم يحفل إلا بالخصائص الكبيرة للمشاكل التي ينبغي على الملوك والباطرة والبابوات أن يعالجوها . ولذا لم يكن وليم الصوري ، في بعض الأحوال ، منصفاً في أحكامه عن سياستهم في مملكة بيت المقدس .

وعلى هذا النحو أيضاً لم يستطع وليم الصوري أن يتخلى عن صفته الكنسية ، أثناء توليه المناصب المدنية . هذا النزوع الذي جعله يفرد خبراً كبيراً لمشاكل النظام الكنسي بالشرق ، أدى إلى اتهامه بأنه يتعصب ضد طوائف الفرسان الرهبان ، التي حازت قدراً كبيراً من الاستقلال ، عن سائر أعمال ملكة بيت المقدس . هذه الأخطاء تكاثرت وتجمعت بمضى الزمن ، حتى أضحت بالغة الظهور في كتاباته المتأخرة .

ومن عيوب وليم الصوري أيضاً ، افتقاره إلى التدريب اللازم للكتابة التاريخية . فعلى الرغم من أنه لم يتجرد أحد من مؤرخي العصور الوسطى من الخطأ في الترتيب الزمني فيما يعالجونه من الأمور ، فإن أخطاء وليم تجاوزت المألوف . فنلاحظ باستمرار أن وليم الصوري ، كما يحافظ على ما وضعه من خطة لعمله ، عمد إلى تغيير تأريخ الحوادث ، أو جعلها في بعض الأحوال ، غير مقبولة وغير مفهومة . فنعلم من فولشر ، مثلاً ، أنه حينما وقع بلدوين الثاني في الأسر ، صار يوستاس جرنيه Eustace Grenier ، نائباً عن الملك ، وأن أسطول البنادقة وصل قبيل وفاة يوستاس ، وعندئذ تقرر تعيين وليم بوريه Buris نائباً للملك ، وقد شهد معركة بحرية ناجحة . وجعل وليم كل اعتماده على كتاب فولشر ، غير أن غرضه الذي يرمى إليه ، هو أن يروى في خبر متصل أعمال البنادقة^(١١٠) ، ولذا أورد خبر وفاة يوستاس ، وانتخاب بوريه ليخلفه ، ثم أشار إلى وصول البنادقة^(١١١) . قام أحد الحشيشية في سنة ١١٢٩ ، بتسليم مدينة بانياس إلى أيدي المسيحيين ، وبعد ثلاث سنوات تقرر منحها إقطاعاً إلى الفارس راينر بروس Rainer of Brus^(١١٢) . على أن وليم الصوري الذي أسهب في وصف حرب دمشق التي وقعت سنة ١١٢٩ ، أجّل الإشارة إلى سقوط بانياس ، إلى أن استولى عليها راينر ، فلن نستطيع أن نستخلص من الرواية أن ثلاث سنوات تفصل بين الحادثين^(١١٣) .

وعمد فيمكن إلى إصلاح ما وقع فيه وليم الصوري من أخطاء ، تتعلق بالترتيب الزمني للأحداث ، وذلك بأن لجأ إلى المصادر العربية^(١١٤) . ومع

ومع ذلك فإنه يحدث في كثير من الأحوال أن يكون الخطأ قد تسبب فيه الناسخ ، في الأحوال التي أورد فيها وليم الصوري التاريخ ، بأن أشار الى تاريخ عصر الأمير الحاكم . على أن ماهو أكثر شيوعا ، أننا لم نجد دائما من وفرة التواريخ ، مانجده في حكم أملييك ، وأثبت فيمكن بدليل لا يقبل الشك ، أنه لولا مساعدة المصادر العربية ، لصار من المستحيل تقويم التاريخ بالرجوع إلى وليم الصوري^(١١٥) .

كان وليم الصوري حريصا على تتبع الترتيب الزمني للأحداث في كل موضوع من الموضوعات ، وعند الكتابة بالغ بالاهتمام بملاحظة تتابع الأحداث التي ترتبط سويا : على أن ماتعرض له وليم من مشا كل إنما نشأت حينما أورد في تاريخه أحداثا متفرقة لرابطة بينها ، فلا يربطها بما تبقى من المادة إلا الترتيب الزمني^(١١٦) . ولم يجر وليم على أن يحول ماورد في مصادره المدونة والشفوية ، من النظم المختلفة عن المعايير والتقارير ، الى نظام واحد . يضاف إلى ذلك أنه ترتب على تغيبه في الخارج ، بعيدا عن بلاده ، لدراسة القانون ، أنه لم يحصل فحسب على معلومات مباشرة عن السنوات الأولى من عهد أملييك ، بل إن هذا الغياب أحدث فجوة كبيرة تفصل بين كتاب *Gesta Amalrici* وكتاب *Gesta regum* . وأضحت بذلك سنة ١١٦٦ ، صماء لم يدون فيها شيئا . كما أن الأحداث الواقعة بين ١١٦٠ ، ١١٦٣ لم يجر تدوينها على الوجه الأكمل . ولم يدرك وليم الصوري الا متأخرا أهمية الحاجة إلى أطار منظم من التاريخ (الترتيب الزمني للأحداث) ، كما يصبح كتابه متاسكا ، إذ حدث وقتذاك أن اعترض تأليفه وعمله مشكاة كبيرة في البحث التاريخي ، لم يتوافر لدى وليم من المساعدات الضرورية أو وقت الفراغ ، مايجعله يعالجها . وترتب على ذلك أن ماوضع في عجلة وسرعة من إطار للترتيب التاريخي ، لم يؤد إلا الى الأرتباك والأضطراب ، ولم يكن مفيدا . مثال ذلك أن التاريخ العربي (الترتيب الزمني) جرى استخدامه مرات عديدة دون تحديد ، كان

يتعارض مع التاريخي المسيحي . ومثال آخر أن عصور سائر الملوك جرى إيرادها في صور مختلفة ، فأوردتها تارة بجملة ، وتارة بحسب ترتيب سنوات الحكم ، وتارة بحسب فصول التقويم المسيحي . وهذه الصور الثلاثة طالما تعارضت وتضاربت . ومن الأمور الغريبة ، أن تاريخ أمليريك Gesta Amalrici ، الذي أدى إلى أن يؤلف ولیم الصوري كتابه ؛ يعتبر أكثر التواريخ اضطراباً . وحاول كثير من المؤرخين المحدثين أن يوفقوا بين هذه الاختلافات ؛ فيشير ستيفنسون Stevenson ، إلى أن الترتيب الزمني ، أقحمه بعض الأفراد على كتاب ولیم الصوري في عصر متأخر . غير أنه عند قراءة فاتحة الكتاب ، تبين أن ولیم هو المسئول عن الاضطراب الذي أدى إلى ضرورة مقارنة كل نقطة غامضة أو موضع يهارد في المصادر الأخرى .

الصفة الأدبية لكتاب ولیم الصوري :

المعروف أن اللغة التي جرى استخدامها في التأليف ، هي اللغة اللاتينية السائدة في العصور الوسطى ، وقد اختلطت بآثار إيطالية ، وآثار من جنوب فرنسا . ونستطيع أن نضيف إلى ما كان من أثر الدراسات القديمة على ولیم الصوري ، درايته التامة بهذه اللغة المختلطة ^(١١٧) .

ومع ذلك فإن لاتينية ولیم الصوري ، امتازت بالصفاء والنقاء ، ولم يلاحظ ماينتوس إلا مصطلحين يتطلبان شيئاً من السند الكلاسيكي القديم ^{(١١٨)*} . وما ادخره ولیم الصوري من الألفاظ والعبارات ، اتم بالوفرة والاتساع ؛ وهو في هذه الناحية يضارع أكبر معاصريه وأفضلهم ، ومنهم حنا السبورى ، إذ أن كليهما (ولیم الصوري ، وعنها السبورى) ،

(١١٨)* واحد هذين للمصطلحين ، هو Loricatur استمدته من البرت الأخفي .

كان يولى اهتماما كبيرا بالدراسات القديمة ، وبتقدير الآداب القديمة (١١٩) :
ومن أحب المؤلفين القدامى عند وليم الصورى ، والذين كان يأنس إليهم
فى السنوات المتأخرة ، فرجيل ، وهوارس ، وأوفيد ، وشيشيرون .
ويعتبر وليم الصورى من القصاص raconteur ، وهو فى ذلك يختلف عن

(١١٩)* من المستحيل أن نحدد تماما مدى دزاية وليم الصورى بالآداب
الكلاسيكية ، فيشير بروتز Prutz إلى أن وليم كانت له دراية تامة بكل الكتتاب
القدامى الذين أخذ عنهم ، أما مانيتيوس فكان شديد التحفظ فى تقدير ماوقف عليه
وليم الصورى من الدراسات القديمة . إذ يشير الى أن وليم الصورى لم يتهياً له متهياً
لحنا ساسبورى من الفرص للافادة من الدراسات القديمة . وقم كل اهتمامه بالدراسات
القديمة على أساس ما تنطوى عليه من الصفة الأدبية والناحية الجمالية . فإفادته من
الكتتابات القديمة ، إنما اقتصرت على أن تزيد ما عنده من الثروة اللفظية ، وتيسر له
التعبير عن أفكاره ، هذا الاهتمام يجعله يعترف من نهل بعض الكتتاب ، وقد لا يدفعه
إلى أن يكتشف دائرة كبيرة من الكتتاب . مثال ذلك أنه لم يشر عمّا
اقتبسه من أوفيد إلا الى ماورد فى كتتابيه Heroides , Metamorphases
على حين أن عبارات عديدة تدل على أنه كان يقف تماما على كتتابى Tristia ،
Epistula ex Ponto . أما درايته بمؤلفات شيشيرون فلم يجر اكتشافها بسوله
على الرغم من أنه أورد عبارات عديدة مستمدة منها بطريق غير مباشر . وماهو
ملحوظ من أن قدرا كبيرا من اقتباسات وليم عن المؤلفين القدامى ، ورد فى أجزاء
كتتابه التى ألفها حوالى سنة ١٦٨١ ، إنما يدل على أن هذه الاقتباسات لم تسكن ، فيما
يبدو ، مجرد ما لازل يعيه منذ أيام دراسته الثانوية ، إنما نجمت عن رغبة خاصة
سيطرت عليه فى تلك السنوات المتأخرة . أما معرفته بالدراسات اليونانية القديمة ،
فلا تتمدى ، فيما يبدو المؤلفات القديمة ، فما اقتبسه من الدراسات القديمة ، فيما عدا ما نقله عن
يوسيفوس Josephus ، وقف عليه من الترجمات اللاتينية لهذه الدراسات . على أن
دراية وليم الصورى بالدراسات القديمة أمر مقطوع به ، أما مقدار ذلك فلازال موضع
اختلاف بين الكتتاب لاسيما بروتز الذى بالغ فى المام وليم بهذه الدراسات ، بينما هوّن
مانيتيوس من درايته بكل ذلك .

سائر كتاب النثر اللاتيني المعاصرين له . وهذه الصفة التي امتاز بها كتابه ، لا تظهر فحسب فيما ورد في الآداب المتأخرة من القصص ، بل كشف عنها أيضاً مآثرته على استقصاء سلسلة من الأحداث المتصلة ، منذ بدايتها حتى نهايتها المنطقية . ولا شك أن ميله الشخصي نحو ذلك النوع من المعالجة ، إنما زاده وقواه أنه يكتب لجمهور يعتمد في اطلاعه على استماع الرواية والخبر . وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة ينكرها المؤرخون ، فإن رجال الدين اهتموا بها . على أن هذه الرغبة في أن يشكّل قصته وروايته بما يلائم سامعيه ، لم تجعله يتورط أو ينغمس فيما يتولد عن هذا الاجراء من الالتجاء إلى اللغة الدارجة ، فظلت لغته اللاتينية سليمة نقية ، وظل تصوره رزيناً رقيقاً . والواقع أن ما غلب على أسلوبه من صفة التحضر *urbanity* ، يعتبر من الصفات ، التي بلغ من شدة تقديره لها ، أنه اقتصد في استخدام لفظه *Literatus* ، وهي حلية اتصف بها ولیم ولم يشاركه فيها الا عدد ضئيل ، ومن شاركه فيها ، لم يستخدمها إلا في أضيق الحدود .

أما تقدير حكمه الأدبي فأكثر ما يدل عليه ، ما دأب عليه ولیم من استخدام لفظه *urbanitas* ذاتها ، وما جرى عليه من تقدير الخليفة هرون الرشيد ، الذي لا زال صيته دائماً عند العلماء العرب^(١٢٠) . وفاق ولیم سائر كتاب اللاتينية في عصره بما اشتهر به من الدقة في التعبير ، والبصيرة النافذة والنظرة الفاحصة . على أن هذه الصفة التي امتاز بها أسلوب ولیم ، لا ينبغي تفسيرها فحسب على أساس مطالعته للدراسات اللاتينية القديمة ، فإن ما امتازت به كتابته من الاعتدال والتساح ، والتشكك المذهب اللطيف ، إنما استمدته من إلمامه بالآداب العربية ، واتصاله بالعلماء العرب الذين حفل بهم الشرق . وهذه الصفات لم تمثل فحسب القشرة الظاهرة التي حازها ولیم من ثنايا مطالعته وجهوده الخاصة ، بل حصل عليها أيضاً مما اشتهر به من التوفيق في مختاراته^(١٢١) .

(١٢٠) * وما اشتهر به ولیم الصوري من بين الكتاب اللاتين في القرن =

ولم يكن إحساس وليم بالصورة الأدبية قاصراً على رواية القصص المستقلة ، والحوادث المترابطة ، بل ازداد هذا الإحساس بمضى الزمن ، حتى إذا عزم آخر الأمر على أن يختم كتاباته ، لم يكن راضياً عن إصدارها في ثلاثة أجزاء مستقلة . إذ أدرك أنها كلها تدور حول غرض واحد ، وهو ضياع بيت المقدس من يد المسيحيين ثم استرداده . فكل كتاب من كتبه الثلاثة إنما يعالج هذا الهدف الأساسي ، ولذا تطلع وليم إلى أن يدمج معاً كتابيه *Gesta Amalrici* ، *Gesta Regum* . أما كتابه عن أمراء الشرق ، فأعد خطته على أن يكون كتاباً مستقلاً . ومع ذلك تبين له أن أحداث سنتي ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، لا تعتبر في نظره بداية سليمة لتاريخ المملكة ، الذي رأى أنه ينبغي أن يشمل ما جرى أول الأمر من ضياع بيت المقدس من يد المسيحيين . ولذا أضاف إليه من كتابه *Gesta Orientalium principum* ، وجزءاً لما وقع من الأحداث السابقة حتى سنة ٦١٤ . ولم تكن هذه الخطوة هي الجانب الوحيد من مراجعته النهائية التي أملاها ما اشتهر به من حاسة جمالية . إذ أنه في معالجته للملوك بيت المقدس ، كل على حدة ، حاول أيضاً أن يجعل بينهم وحدة ؛ ولتحقيق هذه الغاية ، جعل خطته تقوم على أساس أن يخص كل ملك من ملوك بيت المقدس ، بكتابين (فصلين) ، يستهل الأول برسم صورة وصفية للملك ، ويختم الكتاب الثاني بنخب وفاته وشذ عن هذا للترتيب مثلاً : الأول هو أنه اختص جودفري بفصل واحد ، بينما جعل لبلدوين الثالث ، ثلاثة فصول . ولعل السر في ذلك يرجع إلى طول حكم الملك أو قصره ، إذ أن جودفري لم يحكم سوى سنة ، على حين أن عهد بلدوين امتد إلى ما يزيد على عشرين سنة ، اشتركت أمه معه في فترة من هذا الحكم .

= الثاني عشر من صفة «التحضر» ، إنما تجلى أيضاً فيما اشتهر به هذا القرن الثاني عشر من الآداب القومية ، لاسم في ملحمة البلاط . والراجح أن هذا التطور تأثر إلى حد كبير بالآداب الشرقية كال يونانية والعربية . (انظر

ونظرا لأن مقدار المادة المتعلقة بالعهدين يختلف اختلافا بيّنا، فإن أصول الصياغة أوقعت وليم في بعض المشاكل . مثال ذلك أن السنوات الأخيرة من عهد بلدوين الثانى ، وكل عهد فولك ، تطلبت شيئا من التمهيد ، وذلك يقتضى الوقوف على قدر مما يدور فى البلاط من أحاديث ومسر ، ويتطلب أيضا الحصول على طائفة من الوثائق الكنسية ، التى يرى وليم انه لا بد منها عند معالجة عهد فولك . وبفضل هذه التدابير المختلفة حرص وليم على أن يجعل لكل ملك من الملوك حيزا فى كتابه يضارع نصيب الملك الآخر . على أن الأحداث ذاتها هى التى وهبت كتابه ، بعد صياغته الأخيرة ، الوحدة النامة التى أملاها إدراكه للأسلوب ، وآماله الصادرة عن حماسه . إذ أن مدينته بيت المقدس لم تلبث أن سقطت فى يد صلاح الدين ، ولما تمضى ثلاث سنوات ، وذلك نتيجة لما رواه وليم الصورى عن الأحوال والظروف فى سنتى ١١٨٢ ، ١١٨٣ .

والخلاصة أنه إذا كان وليم الصورى افتقر إلى شيء من التدريب والتمرس على كتابة التاريخ ، فوقع فى بعض الأخطاء ، التى كان يصح أن يتجنبها لو ازداد اعداداً ، إذ أنه تحرر من القيود التى قد يفرضها عليه هذا التدريب والإعداد . ولو ازدادت كفايته الفنية ، لما اختار أن يورد فى كتابه ما التزمه من المعالجة النامة لكثير من المصالح الإنسانية . ولو حكما على عمله وفقاً لمعايير الدراسة التاريخية الحديثة ، فلن نجد إلا نواحى ضئيلة بزّه فيها بعض المعاصرين له . ولا شك أن عدداً كبيراً منهم ، كانوا يفوقونه فى الدقة فى الترتيب التاريخى للأحداث ، مثال ذلك أن أوتو فرايزنج Otto of Freising يفوقه فى المفهوم الفلسفى للتاريخ . كما أن حنا سالسبرى يصح أن يضارعه ، بل ويفوقه ، فى الإلمام بالآداب القديمة باعتبارها مصدراً لشرح أعمال الناس والموازنة بينها . غير أنه لم يكن ثمة من يفوقه فى نقد المصادر التى يستخدمها ، أو يضارعه فى فحص الأدلة والشواهد ، أو تقدير الأحداث المعاصرة والحكم عليها . ولم يكن ثمة أيضاً من يضارعه فى التجرد من التحيز أو التعصب من النواحى العنصرية أو الاجتماعية أو الدينية . فما اشهر به وليم من العدالة والانصاف

وعدم التحيز ، في أحكامه ، وما عرف به من التسامح الكبير ، واتساع أغراضه، وما امتازت به كتابته من الرصانة، وما اتصفت به روايته من الطرافة كل ذلك بلغ منه شأنًا كبيرًا ، فإذا اجتمعت كل هذه الصفات . لم يضارعه مؤلف لا تبنى منذ العصور القديمة ، بل قلما بزّه احد من تلامه من الكتاب حتى عصر النهضة .

أثر وليم الصوري في الكتاب المتأخرين

كان تاريخ وليم الصوري معروفًا عند المؤرخين المتأخرين، إذ اعتبروه المصدر الأصلي لكل ما وقع في زمنه من أحداث ، كما اعتبروه المصدر الأصلي الوحيد عن السنوات الواقعة بين سنتي ١١٤٤ ، ١١٨٤ . على أن فضل وليم على المؤرخين المتأخرين يزيد في الواقع على ما جرى الاعتراف به . على أن ما حدث من إشارة وليم في مستهل الكتاب (الفصل) السادس عشر ، إلى أنه اعتمد حتى ذلك الحين على الرواية ، وأنه منذئذ صار يكتب على أنه شاهد عيان ، إنما ساء تفسيرها على أنه يقصد أنه استمد مادته السابقة من أخبار مدونة . والواقع أنه لم يكن ثمة من الأخبار المدونة ما تجاوز سنة ١١٢٧ ، ١١٢٨ . وعلى الرغم من أن ثمة كتاب جرى تأليفه زمن بلدوين الثالث ، فإن مؤلفه المجهول لم يكتب منه إلا المقدمة ، ثم أورد موجزا لكتاب فولشر شارتر ، وأضاف إليه فصلا أو فصلين . ولا شك أن وليم وقف على خبر هذا الكتاب الذي لم يكن كبير الفائدة له ، فلم يستمد منه من المعلومات ما يرجع إلى زمن يلي سنة ١١٢٨ . وما بعد هذا التاريخ من مادة إنما ينبغى الحصول عليها من شهود العيان الذين كانوا على قيد الحياة . ونستخلص من عبارة وليم أنه أحس بأنه بلغ من النضوج ، في سنة ١١٤٤ ، أي في الرابعة عشرة من عمره ، ما يجعله يهتم بالأحداث التاريخية . ولذا ينبغى أن نرد الفترة التي يعتبر فيها وليم الصوري المصدر الأساسي إلى سنة ١١٢٧ . أما عن الفترة السابقة على هذا التاريخ ، فإنه استخدم (١٠ م - الحروب الصليبية)

مسبق ذكره من المصادر ، غير أنه أضاف إليها قدرا كبيرا من المادة الجديدة من الدراسات القديمة ، الأدبية والجغرافية والآثرية ، فضلا عن تقدير الأحداث التاريخية السابقة في ضوء التطورات المتأخرة . يضاف إلى ذلك أنه أحسن الافادة من المحفوظات الملكية والكنسية ، وفي أحداث عديدة حصل ولیم الصوری على معلوماته من أدلة بعض شهود العيان الذين لازالوا أحياء في عصره . وبعبارة أخرى ، كان لتاريخ ولیم ، حتى في الفترة بين سنتي ١٠٦٤ ، ١١٢٧ ، بعض الأهمية باعتباره مصدرا أصليا . على أنه من الخیر أن نقرر أن كتاب ولیم الصوری يعتبر مصدرا أصليا عن الفترة الواقعة بين سنتي ١١٣٧ ، ١١٨٤ ، أما عن الفترة السابقة على سنة ١١٢٧ ، فيعتبر من المصادر الثانوية الهامة . لم يقتصر أثر كتاب ولیم على ماله من قيمة باعتباره مصدرا معاصرا ، يستقي منه المؤرخون المتأخرون معلوماتهم ، بل إن الأحوال المختلفة تدعوا الى أن هذا الكتاب كان معروفا وشائعا منذ زمن متقدم (١٢٢) .

ومن المستحيل أن نقرر ماجرت كتابته من نسخ هذا الكتاب ، تحت ارشاد ولیم واشرافه . ومع ذلك فإن ما زخرت به دار رئاسة الأسقفية في صور من موارد ، فضلا عن المساعدة الإضافية المستمدة من الكتاب المحترفين الذين حفلت بهم صور ، كل ذلك يجعلنا نوقن أن نسختين على الأقل من هذا الكتاب كانتا معروفتين ، نسخة ولیم الصوری نفسه ، والنسخة التي استخدمها سنة ١١٨٢ ، ولم تكن كاملة (١٢٣) * . على أن ما تبقى من المخطوطات (النسخ)

(١٢٣) * ماجرى افتراضه من أن ولیم أصدر من كتابه نسجا حين آتاه سنة ١١٨٢ ، لا يعتمد فحسب على الاشارات العديدة إلى سنة ١١٨٢ ، على أنها السنة التي توقف فيها عن الكتابة ، وعلى ماورد في فاتحة الكتاب الثالث والعشرين من الاشارة إلى العزم على أن يتخلى عن الكتابة ، بل يرتكن أيضا على ما قام به أرنول Ernoul من التذييل على تاريخ ولیم الصوری . إذ أن أرنول ، بعد أن أورد خلاصة موجزة للفصول الأولى من كتاب ولیم ، استهل كتابه بأحداث سنة ١١٨٠ ، أي عند النقطة التي انتهى عندها ولیم في نهاية الفصل (الكتاب) الحادي والعشرين ، ومن الواضح =

التسعة ، التي عاشت ، لم يرجع تاريخ أحداها إلى ما قبل القرن الثالث عشر . لذا ينبغي أن تعتبر نسخا منقولة عن النسخة الأولى ، التي انتقلت ترجيحاً ، إلى حوزة بعض القراء ، بعدمضى سنتين على وفاة وليم الصورى .

كانت صور وقتذاك أهم ما تبقى بيد المسيحيين من ممتلكات بيت المقدس . إذ كانت ملاذا لكل اللاتين ، الذين استولى على أملاكهم صلاح الدين . على أنه لم يكن من اليسير الوقوف على عدد من يتردد من هؤلاء اللاتين على مكتبة رئاسة الأسقفية ، غير أنه لاشك أن من تردد منهم على هذه المكتبة ، تهيأت له الفرصة للمطالعة في تاريخ وليم الصورى ، أو في النسخ المأخوذة عنه . ولما أصبحت صور ، في السنوات الأربع التالية ، القاعدة الأساسية للعمليات الحربية الموجهة لحصار عكا ، يصح أنه لجأ إلى هذه المكتبة ، رجال الأدب الذين سحّبوا الحملة الصليبية الثالثة ، بعد أن أدركوا أهميتها ، غير أنه ليس معروفاً أيضاً إلى أى حد أفادوا من كتاب وليم الصورى .

== أن قدرا كبيرا من هذا الفصل جرى تدوينه عن أحداث سنة ١١٨٢ . وماورد في الكتاب التالى من الأحداث ، عن زواج سيلا بجاى لوزيجنان ، والعداء الذى نشب بين بلدوين الرابع وريموند أمير طرابلس ، وانتخاب هراقليوس بطريركا ، لم تكن من الأحداث التى يجد فيها وليم شيئا من اللذة والسرور . ولاشك أن باليان ابلىن ، من قدماء النبلاء وتقع اقطاعاته بالقرب من صور ، كان يعتبر من أصدقاء وليم الصورى ، الذين اهتموا بتاريخه . وكان أرنول من غلمان باليان فى معركة حطين سنة ١١٨٧ . وبعد أن مضى على معركة حطين ٢٥ سنة (١٢١٢ م) كان باليان من قضاة قبرص اللامعين ، وتولى وقتذاك كتابة الذيل على تاريخ وليم الصورى . وما أورده باليان من روايات ، بما فيها خبر وفاة وليم فى روما ، تعارضت مع روايات (فاتحة الكتاب ، الفصلان ٢٢ ، ٢٣) ، مما يدل على أن ما كان بحوزته من نسخة من تاريخ وليم ، لم تشمل على هذه الأجزاء المتأخرة . ومن اليسير تعليل ذلك ، على أساس افتراض أن أرنول إنما استخدم النسخة التى بعث بها وليم إلى باليان .

على أنه حدث قبل سنة ١١٩٢ ، أن مؤرخا انجليزيا واحدا على الأقل ، لا بد أنه وقف على كتاب وليم الصورى ، لأنه أشار ، قبل هذا التاريخ إلى أنه عزم على أن يضيف إلى ما ألفه وليم الصورى من تواريخ سابقة ، مارواه عن الأحداث المتأخرة فى الشرق . واقتنى ارنول نسخة من كتاب وليم ، والراجح أنها النسخة التى سبق أن جازها فى سنة ١١٨٢ ، باليان ايلين ، فاستخدمها ارنول على أنها أساس لما قام به فيما بعد بجزيرة قبرص من التذييل على كتاب وليم الصورى (١٢٤) .

وفى أوائل القرن الثالث عشر ، ذاع فى فرنسا نسخة من كتاب وليم الصورى ، صارت أساسا للكتاب الذى جرت نسبهته إلى برنارد صاحب بيت المال . ويبدو أن جاك فيتري Jacques de Vitry ، عشر بمكتبات دمياط سنة ١٢١٨ على نسخة من كل من الكتابين Gesta regum ، Gesta Orientalium . وجلب Pierre de Roches ، اسقف ونشستر معه من الأراضى المقدسة سنة ١٢٣١ نسختين من الكتابين السابقين (١٢٥) . ولعل هاتين النسختين أو نسختين أخريين ، هما اللتان أشار إليهما ماتيو باريس ، من بين المقتنيات التى تعزى بها كنيسة St. Albans . والمعروف أن ما كتبه روجر وندوفر Roger Wendover ، وماتيو باريس عن الحروب الصليبية السابقة على الحملة الثالثة ، يكاد يكون كله مستمدا من تاريخ وليم الصورى . والراجح أن كل المؤرخين المتأخرين ، والذين تهيأت لهم الفرصة للكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية جروا على هذا المثال ، فأخذوا عن وليم الصورى بطريق مباشر أو غير مباشر . ومن المحقق أن ما اتبعه وليم الصورى من شرح الحروب الصليبية صار الرواية المأخوذة بها فى انجلترا ، حيث استمر السير على منوالها إلى زمن أرشر وكنجسشورد Archer & Kingsford (١٢٦) .

لم يكن تأثير وليم على المؤرخين المتأخرين ، قاصرا على رجال الدين . وعلى كتاب التاريخ . إذ أن العلمانيين ، ومنهم الأرسنقراطية العسكرية والتجار ، ازدادوا اهتماما بأخبار ما قام به المحاربون المسيحيون من أعمال فيما وراء

البحار . وعلى الرغم من أن العلمانيين ازدادوا معرفة وتعلما ، فلا زالت اللغة اللاتينية سقيمة عند معظمهم . أما اللغة الفرنسية التي صارت اللغة الشائعة عند الفرسان والتجار ، فانهم حذقوا قراءتها وكتابتها . ولعل هذا هو السر في أن قبلها رديون Villehardouin وروبرت كلاري إنما بالفرنسية تواريخها عن الحملة الصليبية الرابعة ، على حين ان ارنول Ernoul ، الذي كان يتقن اللاتينية ، والفرنسية ، اختار أن يكتب بالفرنسية ، ماذيله على تاريخ وليم الصوري ^(١٢٧) . وعلى هذا النحو أدرك أحد المؤرخين المجهولين ما لتاريخ وليم الصوري من أهمية ، لهذا الجمهور المتزايد من الملمين بالفرنسية ، فترجمه في زمن مبكر إلى اللغة الفرنسية ، ولم تلبث الترجمة أن حازت صيتا كبيرا . فلما أصدر برنارد صاحب بيت المال ، في سنة ١٢٣٢ تذييله على كتاب وليم الصوري ، ألحق به ترجمة فرنسية لتاريخ وليم . ونظرا لأن حملات صليبية جديدة لازالت تجرى ، جرت إضافات جديدة لسائر النسخ المعروفة ، وظلت هذه العملية مستمرة حتى نهاية القرن الثالث عشر ، وجرت في كل من الشرق والغرب سواء . لم نقف على عدد الكتاب الذين أسهموا في التذييل على تاريخ وليم ، غير أنه من المعروف أن ثمة ما لا يقل عن ٧١ مخطوطة تحوى ترجمة لتاريخ وليم ، فضلا عن التذييلات التي تزيد أو تقل عن هذا العدد ^(١٢٨) . وبذل ماس لا تريبه ^(١٢٩) جهداً كبيراً لتحديد العلاقة بين كل من هذه النسخ وبين غيرها ، وعلاقة كل منها بالنسخة الأصلية لكتاب وليم . ومع ذلك فإن جهد لا تريبه كشف عن أهمية المشكلة وتعقيدها ، والتي لازالت تحتاج إلى حل . على أنه لا يزال في الوقت ذاته غير متأكدين ما إذا كانت الترجمة الفرنسية الأولى ، أفاد منها كل هؤلاء المذبلين . أو أن كثيرا منهم جعلوا لأنفسهم ترجمة مستقلة ، وفي كلتا الحالتين ، كان كل مذبل حريصاً ، سواء كان ذلك تلقائياً أو تعمداً ، على أن يؤلف تذييله على النسخة التي حصل عليها .

وفي الجملة ، يبدو أن ما جرى الاتفاق عليه بشأن كتاب وليم ، إنما قام على أن له من الدواعي ما يزيد ضخامة على قيمته باعتباره مصدرا يستمد

منه المؤرخون المتأخرون معلوماتهم، ومن الملحوظ أن أحدا من المؤرخين الذين تلووا وليم الصورى ، لم يكن ثمة ما يجعله يحرص على أن يهتم باصلاح صفة كتابته ، بل حدث عكس ذلك ؛ إذ اكتفوا بأن نشروا مؤلفاتهم دون أن يذكروا أسماءهم ، فأضحى مؤلفوها مجهولين . وبدأ هذا الاجراء منذ زمن مبكر ، يرجع إلى سنة ١١٩٢ ، حين قام أحد المؤرخين والراجح أنه كان انجليزيا ، بإضافة أخباره عن الحوادث المتأخرة إلى ما رواه وليم ، واستمر في الكتابة طالما ظلت الجيوش الصليبية تتوجه إلى الشرق . بل إن ، Pirie Gordon اختار أن يكتب تاريخا لمؤلف مجهول عن استيلاء النبي على بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى . كما أن Grousset الذى ظهر في سنة ١٩٣٨ كتابه الشامل عن الحروب الصليبية ، لم يقبل صراحة فحسب ما وضعه وليم الصورى من خطة لكتابه ، بل قبل أيضاً معظم عباراته . كل ذلك يعتبر دليلا على أن وليم أقام مقياساً لكتابة تاريخ الحروب الصليبية .

والراجح أيضاً أن تأثير وليم على الآداب التاريخية المتأخرة كان أكبر مما جرى افتراضه ؛ إذ أنه لم يمد المؤرخين المتأخرين فحسب بما استخدموه من المعلومات ، بل بما اتصف به من سعة الإدراك عن مجال التاريخ وواجبات المؤرخ . فما اشتهر به وليم من التسامح والاهتمام بالنشاط البشرى ، فضلا عن نزاهته وشجاعته في أن يطبق على رجال عصره ، أيا كانت مراكزهم ، نفس المعايير التى طبقها على غيره من الرجال وعلى عسود أخرى ؛ كل هذه الفضائل تعكسها نظراته التاريخية الفاحصة .

وود بهامش كتاب ماتيو باريس المعروف باسم *Historia minores* من الملاحظات ما يدل على أن ماتيو باريس حصل على نسخة من كتاب وليم ، من بطرس أسقف ونشستر ، الذى جلبها من الأراضى المقدسة سنة ١٢٣٠ . وما اقتبسها ماتيو باريس عنها من الفقرات ، تطابق تماماً نفس الفقرات التى اقتبسها روجر ويندوفر ، مؤرخ كنيسة *St . Albans* حتى

سنة ١٢٣٥ . والراحح أن ماتيو الذى خلف روجر فى هذه الوظيفة ، قد تتلمذ عليه أثناء السنوات السابقة . وليس بعيدا أن يكون روجر هو الذى طلب إلى ماتيو أن يعد هذه الفقرات لتاريخه . فإذا كان الأمر كذلك ، يصح أن نتصور ما طرأ من التغيير على مفهوم ماتيو للتاريخ ، بدأ به فى مستهل حياته على مطالعة تاريخ وليم الصورى ، ولا شك أن تأثير وليم الصورى كان من عوامل الاختلاف والفروق بين روجر ويندوفر وبين ماتيو باريس . وظل كتاب ماتيو باريس قرونا عديدة نموذجا فى كتابة التاريخ ، احتذاه المؤرخون من الإنجليز ، وكذا مؤرخو القارة الأوربية . ومن العسير أن نعزو إلى مؤلف واحد ما يدين به الكتاب المتأخرون من القيم التى تتصف بها أعمالهم . ومن العسير أيضاً أن نتبع هذه العلاقة فى حالة وليم الصورى ، وذلك لما جرى من تغير معالم المؤلف الأصيل لوليم الصورى ، بسبب ما حدث من توالى نسخ الترجمة الفرنسية لمؤلفه ، كما تلائم التذييلات العديدة التى جرت كتابتها بعده . وما غلب من النزوع العلماني فى النسخة الفرنسية ، أدى إلى حذف جانب كبير من المادة الكنسية التى أوردها وليم الصورى . وفى المخطوطات المتأخرة اختفى كل الأشارات الشخصية التى وردت فى صيغة ضمير الغائب . وكل ما تبقى من تأليفه الأصيل من آثار ، بلغ من اكتمال اختفائها ، أن فرانسيسكوس بينوس الدومنيكانى البولونى Franciscus Pipinus ، ترجم من جديد تطورا من كتاب وليم إلى اللغة اللاتينية ، بعد أن عزاه إلى برنارد صاحب بيت المال . ولم يلتفت إلى أن هذا الكتاب جرى تأليفه أصلا فى لغة لاتينية تفوق لاتينيته . ولذا كانت الدهشة شديدة ، حينما ترجم كاستون الانجليزى Caxton جانبا من تاريخ وليم من الفرنسية إلى الإنجليزية ، ونسب أصله إلى وليم .

وعلى الرغم مما تعرضت له شهرة وليم الشخصيه ، فى هذا الاتجاه من التجاهل ، فلا شك أن كان لهذا الظرف أهمية فى اتساع دائرة تأثيره ؛ إذ أن

كل ناسخ مجهول ، أو كل مؤرخ ذبيل على كتاب وليم ، إنما زاد في اتساع دائرة الدراية بتاريخ وليم .

والواقع أن ما هو موجود الآن من المخطوطات المختلفة للنذيلات على تاريخ وليم ، إنما تدل على أن كتاب وليم لا بد أن كان معروفا في كل قلعة وفي كل المدن الهامة بأوربا . ونظرا لانتشار استخدام تاريخ وليم في العصور الوسطى المتأخرة ، فالراجح أنه كان عاملا من عوامل تثقيف العلمانيين ، فأفاد منه الكتاب الذين ألفوا باللغة اللاتينية أو بلغتهم القومية ، ولا شك أن جوانثيل وفرواسار قد وقفا عليه وألما به .

وبفضل الترجمات الفرنسية صار لوليم تأثير بالغ الأهمية في الأدب ، فما أورده من أوصاف بطرس الناسك ، وجود ثرى بويون ، وتانكرد ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، أثر في المؤلفات الأدبية التي أشارت إلى هذه الأسماء ابتداء من دانتى حتى العصر الحاضر . وظل تاريخ وليم مصدرا يستمد منه الأدب المادة والأفكار ، على الرغم من أن الكتاب المتأخرين ، لم يعرفوا كتاب وليم في صورته الأصلية .

واسكتاب وليم أثر كبير في كل من التاريخ والأدب ، ولا شك أن المؤرخين المهتمين بدراسة الحروب الصليبية أو الشرق الأوسط ، أدركوا أهميته ، ولا زال لوليم مكانته الملاحظة في كل من الأدب والتاريخ .

الفصل السابع

جوانفيل (١٢٢٤ - ١٣١٧)

Jean de Joinville

ماحدث من تغييرات كبيرة في الفترة الفاصلة بين زمن جوانفيل والعصر الحاضر ، والتي تزيد على ستائة سنة ، اختفت في أثنائها لغة القرن الثالث عشر ، جعل من العسير إدراك الحضارة وتفهمها . ولم يفكر الناس ، إلا منذ زمن قصير ، في دراسة هذه الحقبة الطويلة من الزمن . إذ كان الرأي السائد يدور حول أن القديس لويس إنما كان يحكم قوما شبه متبربرين ، وأن جوانفيل ألف بلغة الباتوا السقيمة ، كتابا ليس جديرا بالقراءة . على أن الدراسة الحديثة أنصفت هذين الرجلين ، المقترى عليهما ، بأن جعلت القرن الثالث عشر جديرا بأن يحكمه الملك لويس التاسع ، واعتبرت جوانفيل من الكتاب اللامعين في تاريخ الآداب الفرنسية ^(١) .

على أنه من دواعي الصدف ، أن يفوز جوانفيل ، ويصير في سجل الخالدين ، إذ كان من المحتم أن يحتل جوانفيل في الهيئة الإقطاعية ، المركز اللائق بنسبه تحت سيادة كونت شامبانيا ^(٢) .

ولد جان دي جوانفيل Jean de Joinville ، في جوانفيل سنة ١٢٢٤ ، ولم يعرف بالدقة تاريخ ولادته ، وهو ثاني أبناء سيمون ، سيد جوانفيل ، وصنجيل شامبانيا . وأمه بياتركس Beatrix ابنة ستيفن كونت اوكون A uxonne ، وكانت جدته لأمه بياتريكس كونتيسة شالون سنيرساون Chalon—sur—Saône . أما جده الأكبر ، جفري الثالث ، فكان صنجيلا على شامبانيا ، اعترافا بديالته في الحرب الصليبية الثانية ، سنة ١١٤٨ ،

وصارت صنجلية شامانيا وراثية في أسرته . وللصنجيل senechal ، مكانة كبيرة ، لأنه يرأس المحكمة العليا بالإقليم ، ولأنه مسئول عن كل مايجرى بدار السيد الاقطاعي ، من احتفالات ومواكب (٣) . وأسهم في الحملات الصليبية الموجهة إلى الشرق جده المباشر ، واسمه جفرى أيضا ؛ الذى لقي مصرعه أثناء حصار عكا ، وعمه ترويار Trouillard ، الذى مات سنة ١٢٠٣ ، في حصن الشقيف Krak des Chevaliers الخاضع للاستتارية ، واشترك أبوه سيمون في الحملة الصليبية الموجهة إلى عكا . وفي الحملة التى قادها سنة ١٢١٨ ، جان دى بريين ، للأستيلاء على دمياط . فلما عاد إلى وطنه ، كان له شأن كبير في سياسة بلاده ، فبذل جهدا كبيرا في استخلاص تروى Troyes سنة ١٢٣٠ ، بعد أن تعرضت للتهريب على يد الأحزاب المتنازعة (٤) . وفي سنة ١٢٣١ ، خطب سيمون لابنه جان الذى لم يتجاوز وقتذاك السابعة من عمره ، اليكس جراندبريه Alix de Grandpré شقيقة كونت جراندبريه . وترتب على وفاة أكبر أبناء سيمون سنة ١٢٣٩ ، أن صار جان جوانفيل وريثا له في ألقابه وملكاته (٥) . وورثت أمه كل ثروة كونتيسة شالون سير ساءون . فأقبلت الدنيا على جوانفيل ، وارتفع شأنه بسبب ما اجتمع له ، عن طريق والده ووالدته ، من ألقاب و ثروة . على أن خطيبته لم تجلب له من الأراضى إلا ما كان يُبغل نحو ٣٠٠ دينار سنويا ، وتم في سنة ١٢٤٠ زفاته إلى اليكس جراندبريه . وحينما كان جان في السادسة عشرة من عمره ، توجه إلى بلاط سيده تيبولت Thibault كونت شامانيا وملك نافار ، ليكون غلاما (سايسا) له ، كيما يقف على مراسم البلاط وتقاليدته (٦) .

ولم يلبث أن توجه في صحبة كونت شامانيا إلى بلاط الملك لويس التاسع في سومر Saumer ، لحضور مأدبة كبيرة ، شهدها عدد كبير من السادة والأمراء (٧) . ولأول مره صار جوان جوانفيل صنجيلا ، وليس معروفا

متى تم تنصيبه فارسا ، والراجح أن ذلك حدث في سنة ١٢٤٣ ، حينما تسلّم ضياع أبيه وممتلكاته من أمه الوصية عليه . وفي سنة ١٢٤٨ ، رزق بأول ولد له ، وهو جان انكر فيل Ancerville (٨) .

وعلى الرغم من أن الواجبات الاقطاعية ، التي تجري بدار السيد الإقطاعي ، والتي يصح اعتبارها مهينة ، لا تتفق مع ائزان الفتى واكتمال خلقه ، فإن جوانفيل لم يتردد مطلقاً في أن يظهر معارضة ومقاومته عند اللزوم . ومن الدليل على ذلك ما حدث سنة ١٢٤٨ ، أي عند الرحيل في حملة صليبية ، من أن جوانفيل أبدى معارضة للملك لويس التاسع ، حينما حاول أن يستخلص منه يمين الولاء ، مع أنه لم يكن وقتذاك من أتباعه (٩) .

وفي تلك الأثناء ، تزوج لويس التاسع من مرجريت أميرة بروفانس ، ووقع سنة ١٢٤٤ ، فريسة مرض بالغ الخطورة . وفي لحظة من اللحظات الحرجة اتخذ لويس الصليب ، واحتذاه أخوته ، وكبار رجال بلاطه ، وكبار السادة أمثال كنت فلاندر ، ودوق برجنديا ، الذي يمت بصلة إلى جوانفيل . ومن الطبيعي أن يسهم جوانفيل في الحروب الصليبية ، نظراً لأن أسلافه الذين ينتمون إلى ثلاثة أجيال سابقة ، اشتركوا في هذه الحروب . فانخذ جوانفيل الصليب ، وتوجه إلى مرسلينا ، وبصحبه ثلاثة من الفرسان ونحو مائتي رجل (١٠) . وفي أثناء تلك الحملة التي استمرت من سنة ١٢٤٨ حتى ١٢٥٤ ، دخل جوانفيل في خدمة الملك لويس التاسع ، وحصل منه في أبريل سنة ١٢٥٣ ، على خراج دائم ، قدره ٣٠٠ حنيه تورنوا Tournai . على أن جوانفيل لم ينقطع عن تأدية ما هو مطلوب منه ، من الواجبات نحو كونت شامبانيا ، ملك نافار ، فكأنه بذلك خدم سيدين في وقت واحد . غير أن هذا العبء المضاعف لم يكن فيما يبدو ثقيلاً عليه ، وذلك لأن الاقطاع عبارة عن نظام للتبعية ، ما يؤدي بمقتضاه من واجبات ، يجازى عليها بما يحصل من حقوق . ولما عاد الملك لويس من الحملة الصليبية ، جعل لجوانفيل ، الذي صار من أتباعه ، بعض الالتزامات

والحدود التي لا يتجاوزها^(١١) . إذ جعل له ما يتحصل من خراج أراضي دير من الأديرة ، دون الاشراف عليه^(١٢) .

ويحتتم نظام التبعية على الاتباع أن يحترموا رؤساءهم ، وهو في ذلك لا يتعارض مع الكاثوليكية . على أن ما يحدث من الركوع أمام السيد وبذل يمين الاخلاص ، ليس الغرض منه فحسب تقرير التبعية ، بل يصح أيضاً أنه يمثل ما يمكنه الشخص للسيد من الاحترام والطاعة . فمراواه جوانثيل^(١٣) من ركوعه أمام الملك عندما استدعاه إلى حجراته ، ومبادرة الملك إلى أن ينهضه ويجلسه إلى جانبه ، يعتبر ذلك مأثرة استثنائية ، أثارت دهشة أحد الأمراء من أقارب الملك^(١٤) : إذ حدث ذات يوم أن كان الملك لويس ، يجلس عند مدخل كنيسة الخاصة ، فدعا إليه ابنه وصهره ، ملك ناغار . ليجلسا بالقرب منه ، غير أنهما امتنعا وقالوا : اننا لانجرؤ على أن نجلس بالقرب منك^(١٥) .

هذه الصفة بالغة الدلالة على مالكية من هيبية واحترام ، ومع ذلك لم تتعارض مع الحرية والصرحة في التعبير وابداء الرأي . فمن ذلك ما رواه جوانثيل ، عن الحديث الذي جرى بينه وبين الملك عن الشروط ، التي بمقتضاها دخل في خدمته^(١٦) .

على أن كتاب جوانثيل لم يغفل أخطاء القديس لويس وعيوبه ، فيشير جوانثيل إلى ما وجهه الملك لويس من تأنيب شديد لسائسه العجوز ، لأنه لم يبادر إلى إحضار الفرس له ، ولم يتردد جوانثيل في الدفاع عن هذا السائس ، ويطلب إلى الملك أن يرفق به ، لما بذله من الخدمة للملك ، ولأبيه ولجده^(١٧) ، ولما اشتهر به الملك من التواضع ، لم يسعه إلا أن يتقبل هذه الأقوال الصريحة ، بل إنه أفاد من نصح جوانثيل فيما وجهه إلى ابنه من تعاليم ونصائح . فمنها : فلتفصح دائماً عن نفسك ، وليقع اختيارك على رجل جدير بأن تأنس إليه ، فيعلمك ما ينبغي أن تفعله ، وما ينبغي أن تتجنبه ، وأن تبلغ في الاحتمال والصبر ما يجعل الناس يجرأون على أن يوجهوا إليك النقد واللوم^(١٨) .

ولم يتردد جوانثقيل في أن يوجه للقديس لويس النصيحة الخالصة ، فهو الذي ألح على الملك ، بعد خروجه من دمياط إلى الشام في عدد قليل من الفرسان ، بأن يبقى بالشام ، ويبذل جهده في استخلاص الأسرى الذين لازالوا بيد المسلمين^(١١٩) .

وتعرض جوانثقيل للتأنيب والتفريع لما اشتهر به من الشدة والصلابة في معارضة كبار رجال فرنسا وسادتها . ومن الدليل على ذلك ، أنه حدث ذات مرة ، أن الملك على غير عادته ، لم يتحدث إلى جوانثقيل أثناء تناول الطعام ، فظن جوانثقيل أن الملك ساخط عليه ، بسبب مارواه من أن الملك لم يبذل شيئاً من ماله لاستخلاص الأسرى ، وأنه ينبغي عليه أن يسخو في عطاءه كيما يقبل عليه الفرسان من كل جانب . فنهض جوانثقيل وتوجه إلى نافذة مخدع الملك ، وعندئذ أقبل عليه الملك وأسر إليه ، فلتقر نفساً ، وإني لأشكر لك ما بذلته من نصيحة ، إنما لا تخبر أحداً بشيء من هذا طوال الأسبوع ،^(٢٠) .

وعلى الرغم من أن القديس لويس له الحق في أن يتخذ ما شاء من القرارات دون الرجوع إلى المجلس ، متى رأى الحق واضحاً أبلغ ، ، إلا أن القديس لويس درج على أن يلتمس النصيحة من مجلسه الخاص قبل أن يتخذ قراراً هاماً ، وهو في ذلك يسير وفقاً للعرف السائد ، فيحصل من رجاله على النصيحة مثلاً يحصل على مساعدتهم الحربية . وبناء على هذا المبدأ ، حدث في عهد الملك فيليب الجميل ، حينما تقرر دعوة مجلس طبقات الأمة ، جرى الرجوع إلى القوائم التي تتضمن الخدمة الحربية ، فالتمس النصيحة من تقاليد الحياة الإقطاعية ، وأورد جوانثقيل عن ذلك بعض الأمثلة ، منها أنه لما وقع أسيراً في أيدي المسلمين ، أثناء الحملة على مصر ، التمس النصيحة من فرسانه ورجاله ، فيما إذا كان يستسلم هو ورجاله إلى سفن السلطان أو إلى عساكره على الشاطئ ، فقرر الجميع الاستسلام للسفن^(٢١) .

وجاءت المعارضة من قبل أحد كيلارية جوانفيل الذي قال «لأنى أرى، أنه لا بد أن نستشهد جميعاً ، وبذلك نسير من هنا إلى الفردوس»^(٢٢) . فلم يقنع جوانفيل التماس النصيحة من فرسانه ، بل حرص على أن يشرك فيها أيضاً رجاله ، لأنه يعتبر مسئولاً عن كل من كان معه من الفرسان والرجال وسائر الناس^(٢٣) .

وأقوى من ذلك ما جاء فى رده على القديس لويس وملك نافار ، سنة ١٢٦٧ حينما ألحا عليه أن يصحبهما فى حملة صليبية أخرى ، إذ قال « لما كنت فى خدمة الله والملك ، فيما وراء البحر ، ومنذ أن رجعت من هنالك ، عمد رجال ملك فرنسا وملك نافار ، إلى تحطيم رجالى والحقاق الفقير بهم ، فليس ثمة ما هو أسوأ من ذلك الوقت لى ولهم . وأخبرتكم برأى ، وهو أنى إذا نويت العمل فى هذا الأمر ، وفقاً لإرادة الله ، فسوف أبقى لمساعدة قومى والدفاع عنهم»^(٢٤) .

وقصة مغامراته هى مادة الكتاب الذى سوف نعرض له فيما بعد . وامتدت هذه المغامرة الحربية من سنة ١٢٤٨ حتى سنة ١٢٥٤ ، حين عاد جوانفيل إلى فرنسا ، وبلغ وقتذاك الثلاثين من عمره ، وأصبحت له تجربته وخبرته وشهرته ، فكان فارساً لامعاً ، ومعروفاً بيسالته ، ومن أقرب أصدقاء الملك . وقام بمثل ما قام به أبوه من قبل ، بما هو مفروض عليه من الواجبات الإقطاعية ، فأصلح أحوال ضياعه بشامبا ، فأنفق من المال والجهد ما يلزم لإعادتها إلى حالتها الأولى . وتطلبت أعمال الإقطاع ، أن يبقى قريباً منها ، فلم يتغيب عنها ، إلا لفترات قصيرة ، كان يقصد فيها بلاط الملك لويس فى باريس وكوربيل Corbeil ، وريمس وأورليان . وزاد من أعبائه ، اضطلاعه بوظيفة صنجيل شامبانيا ، فى سنة ١٢٥٤ ، نصادفه يقوم بالحكم والفصل فيما وقع من شجار بين أبناء تيبولت الرابع ، كونت شامبانيا ، على ممتلكات أبيهم ، ويعمل على أن يزوج تيبولت الخامس من ابنة الملك^(٢٥) .

وفي سنة ١٢٦٠ ماتت أم جوانجيل ، وزوجته الأولى . فتزوج في سنة ١٢٦١ من اليكس رينل Alix Reynl ابنة أحد جيرانه . فأنجب منها ثلاثة أولاد وابنة واحدة ، هي التي تزوجت من هنرى إيرل لانكستر ، وحفيد هنرى الثالث، ملك إنجلترا ، وبذلك اتصل نسبه بإنجلترا وويلز^(٢٦) .

ولم يخرج جوانجيل من عزلته ، إلا سنة ١٢٨٢ ، حينما اتخذه فيليب الجميل معروفاً له ، وقدم إلى باريس مرة أخرى ليؤدى للملك ما تطلبته التزاماته . وفي سنة ١٢٩٧ ، تم تطويب الملك لويس التاسع وجعله قديساً ، والمعروف أن لويس قضى نحبه في مغامرته الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ ، وشهد جوانجيل إعادة دفن القديس لويس في باريس سنة ١٢٩٨ ، ومات ابنه جان سنة ١٣٠٣ ، ثم ماتت زوجته الثانية ، وعاش الرجل ما تبقى من عمره مع ذكرياته^(٢٧) .

وفي سنة ١٣١٠ ، وحينما فرغ جوانجيل من كتابة تاريخه ، وتقدم به إلى لويس ملك نافار وشامبا ، استقبل ضيفاً إيطالياً ، اسمه فرانشيسكو باربرينو Francesco Barberino ، الذي أشار إلى ما كان بينهما من صلوات ، فروى « بينما كنت ذات مرة في بوس Poissy الواقعة على تخوم نورمنديا ، تحدثت إلى السيد جوانجيل في موضوع رسوم البلاط ، لما اشتهر بأنه أكثر الناس دراية بها ، ولـكلامه عن البلاط تقدير ووزن عند ملك فرنسا . ولاحظ باربرينو أن جوانجيل شديد الاهتمام بمراجعة رسوم البلاط والنزام سلامتها وصحتها . على أن جوانجيل لم يشتهر فحسب بدرأيته في رسوم البلاط ، بل عرف أيضاً طباع الناس وسلوكهم يقول باربرينو سمعت سيدي حنا جوانجيل يقول إن السيد ليزيد في شرفه ، أن يجعل غلامه يقوم على خدمة السادة الآخرين ، فلا ينبغي أن يحتفظ به للقيام على خدمته وحده^(٢٨) .»

ثم حدث في سنة ١٣١١ ، أن صار جوانجيل زمن الملك فيليب الجميل ، صنجيلاً لشامبانيا . وفي سنة ١٣١٩ ، مات جوانجيل ، بعد أن طال عمره ، وحسنت أعماله ، وجرت مواراته في كنيسة القديس لورنس .

هذه الحياة لم تكفل لجوانثيل إلا مركزاً متواضعاً في تاريخ شامبانيا ، وإن كان يزينه المجد والشرف ، ولم يبق من ذكراه المحسوسه ، بعد تدمير قلعة أثناء الثورة الفرنسية ، إلا كتابه المعروف عن تاريخ القديس لويس^(٢٩) .

تاريخ القديس لويس .

إذا قصد بالمؤلف ، أنه الشخص الذي درج على تصنيف الكتب ، فمن المحقق أن جوانثيل لا ينطبق عليه هذا اللقب . إذ ليس له ، فيما نعلم ، إلى جانب مؤلفه عن تاريخ القديس لويس ، إلا رسالة عن الإيمان ، تقع في عشرين صحيفة ، جرى نشرها لأول مرة سنة ١٨٣٧ بعنوان Credo ، فرغ من تأليفها في الشهور الأولى من سنة ١٢٥١^(٣٠) .

انقضى نحو نصف قرن بين تأليف هذه الرسالة ، وبين تأليف تاريخه عن القديس لويس ، الذي فرغ منه سنة ١٣٠٥ . فكان جوانثيل في السادسة والعشرين من عمره ، حين ألف رسالة الإيمان ، على حين أنه حينما ناهز الثمانين من عمره ، وبناء على رجاء چان ملكة ناغار ، قام بتأليف كتاب عن الأقوال المقدسة والأفعال الحميدة المنسوبة للقديس لويس ، . فما ألفه جوانثيل في مستهل شبابه ليس إلا بحالة وجيزة لا تعتبر كتاباً ، أما الكتاب الذي خلد ذكراه ، وأذاع صيته وشميرته ، فلم يؤلفه إلا بناء على رجاء الملكة التي تحبه كثيراً^(٣١) .

ما الذي أوحى للملكة ناغار بهذا الخاطر ، وكيف حملت جوانثيل على تأليف هذا الكتاب ؟ .

حدث يوم معركة المنصورة ، أن كونت سواسون ، كان يشترك مع جوانثيل في القتال ، وتعرضا معاً لسهام المسلمين ، وفي أثناء هذه المحنة قال كونت سواسون : أيها الصنجيل ، سوف نتحدث عن هذا اليوم ، إن شاء الله في مكان خاص ،^(٣٢) .

كيف يتسرب إلينا الشك في أنه لم يتهياً لجوانثيل آلاف الفرص والأحوال،
كَمَا يقص أخبار مغامرات الحرب الصليبية؟ وكيف أن هذه الملكة الصغيرة،
التي أولت جوانثيل حبا، لم تسعدها الأحوال بالاستماع إلى صديق لويس
ورفيقه في السلاح، وهو الشاهد الثقة الذي لجأ إلى سؤاله المكلفون بجمع
البيانات اللازمة لتطويب الملك؟^(٣٤).

الواقع أنه حدث سنة ١٢٨٢، بناء على أمر ملك فرنسا وقرار البابا، أن
أسقف روان، والراهب حنا بدير ساموى Samoys، الذي صار فيما بعد
أسقفا، قدما إلى سان رينيه، ومكثا بها زمنا طويلا، للوقوف على ما يتعلق
بحياة وأعمال وكرامات الملك القديس، وأنبأني بأنه لا بد من اللحاق بهما،
فاحتجزاني يومين. ثم بعد أن جمعا ما شاء أن يجمعا من الزوايات والأخبار،
رفعا كل ذلك إلى المجلس البابوى فى روما. وبعد أن فحص البابا والكرادلة
ما أنباهم لإلهم، ووفقا لما شاهداه تقرر اعتبار الملك لويس من العارفين،^(٣٥).

وكان جوانثيل أقدر من يكتب كل ما كان يرويه مرات عديدة، فى
أحسن صورة. وكلما اشتد شغف جان ملكة نافار بالاستماع إليه، ازدادت
رغبتها فى تخليد هذه الذكريات الجميلة، وفى أن تخلف لأطفالها كتابا يروى
لهم ما كان لأجدادهم من أعمال جليلة^(٣٥).

على أنه ينبغي ألا نغفل أيضاً ما اشتهر به بلاط شامبانيا وقتذاك، من
تشجيع الأدب. من النثر والشعر. ففى هذا البلاط تعلم المؤرخ فيلها ردين
قبل خمسين سنة مضت على ظهور جوانثيل. أما تيبولت كونت شامبانيا
وسيد جوانثيل، فاشتهر بأنه من مؤلفى الأناشيد، وذاعت أشعاره الغنائية
على أنها صادرة عن شاعر صادق. وليس من المحقق ما إذا كان جوانثيل
حاول قرص الشعر، فما كتب عن عكامن أشعار سنة ١٢٥٥، جرى اعتبارها
من إنشائه. فما اشتهرت به هذه الأشعار من البساطة والصدق، يجعلها لا تصدر
(م ١١ - الحروب الصليبية)

إلا عنه . وتشير هذه الأشعار إلى توسله إلى الملك بأن يبقى في الأرض المقدسة لبحوض ما أصاب حملته على مصر من فشل ذريع^(٣٦) .

وما اشتهر به جوانثيل من الاهتمام بأحداث الحياة اليومية، جعل منه نائراً أكثر منه شاعراً . فحينما كان جوانثيل بعكا في شتاء ١٢٥٠ - ١٢٥١ واسترد عافيته وصحته ، بعد متاعب حملة لويس على مصر ، وتوافر لديه وقت الفراغ ، كتب دستور الإيمان (Credo) .

Les articles de notre foi par lettres et par images^(٣٧) .

وحدث سنة ١٢٧٢ ، أن تزوج ابنه الأكبر ، من ماييل فيلهاردوين . ولعل هذه الصلة بأسرة فيلهاردوين ، جعلت جوانثيل يقف على كتاب فيلهاردوين عن الحروب الصليبية والاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ . والمعروف أن جوانثيل شرع في تأليف مصنفه عن تجاربه الشخصية فيما وراء البحار ، ولعله كان يرمى إلى أن يجعل كتابه على نحو تاريخ فيلهاردوين أو روبرت كلاري^(٣٨) . ثم تحول إلى مجرى الترجمة الذاتية ، ولا نعلم ما إذا كان جوانثيل أتم هذه المذكرات ثم أذاعها بين أصدقائه . على أن جوانثيل لم يفرغ من مؤلفه إلا سنة ١٣٠٩ ، أي بعد أن مضت أربع سنوات على وفاة حنه ملسكة ناغار ، واثنتا عشرة سنة على تطويب لويس التاسع^(٣٩) .

أما الدواعي التي دفعت جوانثيل إلى الكتابة عن القديس ، فترجع ، بالإضافة إلى الأسباب التي سبق ذكرها ، إلى أنهما كانا صديقين منذ الصغر ، وإلى أن الذكريات الشخصية هي التي حملته على أن يقوم بذلك . ولذا كان من الطبيعي أن يلتفت جوانثيل إلى ترجمته الذاتية ، كما يستمد منها الجانب الأكبر من مادة كتابه ، ومن الطبيعي أيضا أنه لن يدخل في هذه السيرة إلا تعبيراً طفيفاً^(٤٠) .

وكل قارئ لكتاب جوانثيل لا يسعه إلا أن يعدّل في الذكريات الأصلية بالحذف والإضافة ، حتى يصير الكتاب صالحاً للنشر

فالقصاص المتعلقة بروبرت سوربون Robert of Sorbon ، جرى نزعها من خامّة النسخة الأصلية ، والفصول العشرون الأولى من الكتاب الثانى ، لم تنطو على أمور شخصية ، على الرغم من أن رواية تاريخ إقطاع شمبانيا ، ودفاع سيمون دى جوانثيل عن تروى يصح أن تكون مستمدة من محاولة لم تتم قام بها جوانثيل لكتابة تاريخه . وابتداء من الفصل الحادى والعشرين ، نطالع ترجمة ذاتية ، تستمر حتى الفصل المائة وستة وثلاثين CXXXVI باستثناء الفصل ٢٤ ، ومعظم الفصل الأربعين ، ومعظم الفصول ٩٣ و ٩٥ وكلها فيما يبدو مقتبسة من كتب أخرى . ويشير جوانثيل بعد ذكرها إلى أنه يعود إلى مالمديه من مادة Or Reveons A nostre matire (٤١) .

وهنا تبدأ من جديد كتابتنا عن فضائل القديس لويس ، دون الإشارة إلى جوانثيل . أما الفصل ١٢٧ ، فإنه فيما يبدو فصل مبتكر ، وماسواه من الفصول ، حتى نهاية الفصل ١٤٣ مستمد من كتاب سيرة القديس لويس ، الذى ألفه Geaffroy de Beanlieu ، أو من فقرات مائة وردت فى حوليات دير سان رينيه Grandes Chroniques de Saint Denis ، والفصلان ١٤٥ و ١٤٦ مستمدان من كتب أخرى . ويختتم الكتاب بفصلين لم يعتبرا جانباً من الترجمة الذاتية الأصلية ، بل إن جوانثيل كتبها بنفسه .

وما انطوى عليه الكتاب من تغيير القصد والنية ، لم يؤد الغرض منه . فيمكن أن نقارن كتاب جوانثيل عن القديس لويس ، بكتاب Guillaume de Saint Pathus ، عن القديس لويس أيضاً ، كما ندرك أن كتاب جوانثيل ليس سيرة تقليدية لقديس من القديسين ، بل هو عبارة عن قصة ذاتية بطلاها القديس لويس وجوانثيل (٤٢) . على أن نعتبر الغرض والقصد ، أفاد فى أن حوّل الكتاب إلى نموذج من النماذج المعروفة ، وهو السير اللاتينية للقديسين المعاصرين ؛ مثل سير الرؤساء الأربعة الأوائل لدير كلونى ، التى تعتبر من أوائل المقالات عن التراجم فى العصور الوسطى ، ويصح الاستفادة منها لتبرير ما جرت كتابته باللغة الدارجة عن الحياة الخاصة لأحد القديسين ، وبذا تضع

من التقاليد لكتابة ترجمة أو ترجمة ذاتية ، ما اكتمل نموها وتطورها في العصر الحديث^(٤٣)

جعل جوانثيل كتابه في قسمين ، اختص أولهما بالتعاليم الصالحة للقديس لويس ، أى شخصيته وسلوكه ، ووصف شجاعته وعطفه وعدله وإيمانه . وعالج القسم الثانى ، أعماله الحربية ، فى مصر والشام كما عرفها جوانثيل^(٤٤) . وحرص المؤلف على أن يجعل الكتاب تهذيباً ، إذ قال جوانثيل : « قبل أن أروى لك أعماله المحيدة ، وأشرح لك شجاعته النادرة ، سأقصر عليك ما شاهدته وسمعتة ، من أقواله المقدسة ، ومواعظه الحكيمة ، حتى إذا تمت صياغتها ، الواحدة بعد الأخرى ، تهذب وتعلم من يستمع إليها »^(٤٥) . وردّد جوانثيل هذه الفكرة فى موضع آخر ، فأصر على الدافع الدينى الخاص الذى استوحاه . ففى مستهل الكتاب الثانى يقول « باسم الله القوى العظيم ، سبق أن كتبنا شطراً من الأقوال الرائعة ، والمواعظ الجليلة ، للملك المقدس لويس ، حتى إذا جرى الاستماع إليها ، الواحدة بعد الأخرى ، تحقق من الفائدة ما يفوق تلك التى يجرى الحصول عليها ، إذا كتبت مع أفعال الملك ، »^(٤٦)

ومن العجيب أن جوانثيل ردّد فى القسم الثانى من الكتاب ، بعض الروايات التى نصادفها أيضاً فى القسم الأول . على أن ما أيسر تجنب ذلك التكرار ، إذا حرص على الكتابة الجيدة ، أو على أن يوجد تصنيف الكتاب . غير أنه نظراً لما أشار إليه جوانثيل من أنه يهدف إلى تثقيف قرائه وتهذيبهم ، أحب أن يكثر من التكرار والترديد ، حتى يتأكد من أنه لم يفقد شيئاً فى القسم التثقيفى أو التهذيبى عن الكتاب ، أو القسم التاريخى منه^(٤٧) .

أشار جوانثيل إلى أن خطة كتابه استوحاها من فكرة دينية خالصة ، والواضح أن هذا يناسبه ويوافقه ، ويتفق مع العواطف التى زخرت بها حياته ؛ إذ كان مسيحياً خالصاً ، لا يقنع بالإيمان دون الأفعال ، فهو الذى يروى فى رسالته

عن الإيمان Credo ، أن من أزم الأشياء لمن أراد أن يحفظه الله ويرعاه ، أن يقوم بالأعمال الصالحة ، وأن يلزم الأقوال الخاصة وكلاهما متمم للآخر^(٤٨) .

وعلى الرغم من أن جوانثيل لم ينهض لكتابة سيرة القديس لويس إلا بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، وقصر الغرض من الكتابة على التهذيب والتنقيف ، ولم يمارس مهنة الأدب ، فإن الطبيعة وهبته القدرة على أن يوفر المنفعة والسرور لكل فئات القراء ، ففي كل صفحة من صفحات كتابه ، كشف عما ينطوى عليه من روح وإحساس ومحبة وخيال ، ولم يظهر منه شيء من الكذب والخداع ، كل ذلك جعل منه كاتباً فذاً . وإذا كان جوانثيل لم يتدرب على استخدام اللغة التي يعبر بها عن أفكاره ، فإنه توافر عنده من العاطفة ما لم يتوافر عند أشهر الكتاب^(٤٩) . فيروى كيف كان خائفاً ، عند مغادرته موطنه ، فلم يوجه بصره إلى قلعته حيث خلف بها زوجته وأولاده ، وكيف ارتعدت فرائصه ، حينما سقط أسيراً في أيدي المسلمين ، أما أحكامه على رفاقه فالواقع أنها أحكام رجل نبيل^(٥٠) .

اشتهر جوانثيل بموهبته في الوصف ، فجعلنا نرى ما يراه ، ونتعرف إلى أولئك الناس الذين وصفهم لنا ، فكل عالم الحروب الصليبية ، يعيش في صفحاته^(٥١) . وليس بالكتاب ما هو أكثر متعة ، وأحسن وصفاً للأحداث ، من الجزء المتعلق بالحروب الصليبية الذي نستخلص منه ، أن الكتاب ليس إلا مجموعة من الأجزاء ، جرى تأليفها في عصور مختلفة . ويمثل جوانثيل نموذج الفارس الجيد في القرن الثالث عشر الميلادي ، بحسناته وسيئاته . فهو شجاع ، مخلص ، تقى ، صريح ، شديد التمسك بماله من حقوق إقطاعية إزاء مليكه ، شديد الدفاع عن أتباعه ، بالغ الحرص على مراعاة التقاليد . غير أنه من ناحية أخرى يقصر ذكاؤه عند التفاصيل ، ولم يحط بالأسباب العامة^(٥٢) . فيروى جوانثيل أخبار الأعمال الحربية ، وسوء تديرها وفساد توجيهها ، غير أنه لم يتعرض لها بشيء من النقد ، ولم يكن فيما يبدو ملماً بها^(٥٣) .

على أنه ينبغي أن نراعى أن جوانثيل اقتصر على أن يروى ما شاهد وما فعله بنفسه ، فإذا أصاب روايته في بعض الأحوال شيء من الغموض ، بسبب ضآلة ما أوصله من المعلومات ، لا سيما ما يتعلق منها بالناحية الطبوغرافية ، فإنه يعوض ذلك ، ما ساد تفاصيله من الحقائق والصفات التي لا نظير لها (٥٤) .

فإذا طالعنا تاريخ جوانثيل ، كان من المسنجيل ألا نحب هذا المؤرخ ، جعل جوانثيل من القديس لويس مثلاً أعلا للبروة المسيحية ، وامتلأ قلبه حبا وإجلالا لصديقه ، الذي كان له الملكا وقديسا . فتطلع في عزة وكبرياء إلى تلك الشخصية الكبيرة ، التي شبت وتفتحت في سنه رجليه (٥٥) . ويراها مرة أخرى وهو يمتطى جواده ، ويجول ويصوب بين أقرانه في المعركة ويزهيم جميعا . يفكر دائما فيما اشتهر به صديقه القديم من الجسارة والشجاعة والبسالة الكاملة النادرة ، برغم ما تعرض له من الهزيمة ، وما أصابه من مرض ، وما نزل به من الموت . وما هو جدير بالملاحظة ما أورده عن القديس ، من أن الموت الذي يوشك أن ينزل به ، والعذاب والتنكيل الذي عاناه ، كل ذلك لم يحوله قيد شعرة عما يعتقد أنه سليم وصحيح (٥٦) . كما اظهر ما اشتهر به الملك لويس من الحرص ، على أن الحق ينبغي أن يسود ويتخذ مجراه ، بين الناس على اختلاف طبقاتهم واجناسهم وأنواعهم ، بين الرجل والرجل ، وبين الملك ورعاياه (٥٧) .

والواضح أن ما كان يفعله القديس لويس لم يكن كله دائما صادقا وصالحا في نظر جوانثيل . على أن جوانثيل التزم دائما بأن يجعل حكمه خالصا نقيًا ، عند الحكم على أعمال سيده ، فلا يتأثر بما يمكنه له من حب وتبجيل . ومن الدليل على ذلك ، أنه حينما بذل رئيس دير كلوني ، للملك جوادين صغيرين ، عند المناقشة على أمور اختلفا عليها ، لم يتردد جوانثيل في أن يسأل الملك ، ما إذا كانت الهدية ، جعلته يميل إلى أن يزداد اهتماما بالاستماع إلى ما يقوله رئيس الدير ، ويتغاضى عن الخلق القوي الجلي ، الذي لقي من معاصري لويس من الاهتمام مثلما يلقى في الوقت الحاضر (٥٨) .

ولم يكتف جوانثيل بأنه لم يستجب لدعوة الملك سنة ١٢٦٧، ليشترك معه في الحملة الصليبية التي أزمع القيام بها مرة أخرى ، بل بذل كل ما في وسعه ليثني سيده عن اتخاذ سياسة بالغة الخطورة ، إني لأظن أن أوائلك الذين نصحوه بالقيام بهذه الحملة ، ارتكبوا إثمًا كبيراً ، وحمد الله على أنه (جوانثيل) لم يشارك في هذه الحملة ، لا بالقليل أو بالكثير .

لم يكن جوانثيل راضياً أيضاً عن سلوك الملك نحو الملكة ، إذ أن الملكة ارتحلت بحراً من يافا إلى صيدا لتلحق بالملك ، بعد قدومه من دمياط ، وتوجه جوانثيل إلى الشاطئ ليستقبلها ، وصحبها إلى القلعة ، ثم أخطر الملك بقدومها ، وكان وقتئذ بالكنيسة الملحقة بالقلعة ، فأرجأ الموعدة حتى يعود ، ثم سأل جوانثيل عن حال الملكة وأولاده . يشير جوانثيل إلى أن الملك لم يسبق أن تحدث إليه ، في السنوات الخمسة التي صحبه فيها ، عن الملكة والأطفال ، بل إنه لم يتحدث عن ذلك لأحد من الناس ، واعتبره جوانثيل غريباً أو أجنبياً عن زوجته وأولاده (٦٠) .

الواقع أن ما يشير إليه جوانثيل من اضطراب العلاقة بين الملك والملكة ، إنما يفسره الأحداث التاريخية . فإذا كان لويس بطلاً قديساً ، كانت الملكة مرجريت بروقانس ، بطلة ، جديرة بالتطويب والقداسة أيضاً . فإذا بدت في سيرة جوانثيل ، على أنها امرأة باسلة جميلة ، معروفة بميلها إلى المرح والسرور ، فإن في التاريخ من المناظر ما هو أشد ظهوراً وأهمية من تلك التي ظهرت فيها مرجريت ، على أنها ملكة أو شكت أن تكون أما ، ثم زوجة وأسيرة ، والمدينة التي كانت تقيم بها ، والتي تعرضت للحصار والسقوط ، والإلحاح في أن تعرض نفسها للقتل ، حتى لا تسقط في أيدي العدو . وبدت الملكة في المنظر الثاني ، في اليوم التالي الذي وضعت فيه طفلها الذي أطلقوا عليه تريستان Tristan ، من قبيل الآسى والحزن ، حينما دعت إلى أن يجتمع إليها عند فراشها ، أوائلك الذين أزمعوا تسليم المدينة ، وحاولت بذلك أن تهيم شيئاً من قوتها (٦١) . على أن ما كان للملكة من شخصية قوية ، وما كان

لها من نشاط في الأمور العالمية وقتذاك، نظرا لارتباطها بصلبة المصاهرة مع ملك إنجلترا، هنرى الثالث، زوج أختها اليانغو، وشدة تمسكها بدعواها في بروقانس ضد أخ الملك، كل ذلك دعا الملك، فيما يبدو، إلى أن يتعد عن دائرة نشاطها^(٦٣). يضاف إلى ذلك ما اشتهر به الملك من حماس ديني، وسلامة النية، جعله يلتزم في حكمه القانون الأخلاقي^(٦٤). وكان للويس حافز واحد، صريح ساطع كالشمس، يرجع إلى الزمن الذي بلغ فيه الثلاثين من عمره (سنة ١٢٢٤)، عندما تعرض لمرض خطير، فنذر بأن يتخذ الصليب، واستعادة الأراضي المقدسة، غير أنه فشل في تحقيق ذلك، إذ أن قيادته لم ترق إلى مستوى شجاعته الشخصية وتقواه الذاتية^(٦٥).

لم يكن جوانثيل مؤرخا، ولم يحاول أن يكون مؤرخا إلا في ثلاثة أو أربعة فصول جافة سقيمة، وهذه الفصول تشمل الفصول ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠. وللتدليل على ذلك يكفي أن نقارن روايته عن معركة من المعارك الحربية، بما أورده فيلها رديون في وصف معركة، وهو ينتمى إلى وطنه، ولا يختلف عنه في النشأة والمكانة، بل يصح إجراء مقارنة دقيقة بين ما أورده جوانثيل عن خبر نزول الصليبيين بأرض مصر، وبين ما أورده عن هذا الأمر جان ساراسين Jean Pierre Sarrasin في رسالته المعروفة باسم Lettre a Nicolas Arrode. إذ أن ساراسين ازداد دقة في ذكر الأحداث، وامتاز أيضا بشدة الشعور والأحاساس، بمراعاة التناسب والتناسق، فضلا عن درايته وإلمامه بالمسائل السياسية، غير أنه يعوزه من شدة الإحساس الذاتي، ومن حيوية التجربة الشخصية، ما جعل لسيرة جوانثيل طابعا خاصا. فإذا قرأنا كتاب جوانثيل، لم نقف كثيرا على تاريخ عصر لويس التاسع، بل ندرك شيئا كثيرا عن جوانثيل ولويس، لما لهما من طابع ممتاز^(٦٥).

ولم يكن جوانثيل من رجال السياسة، فلم يشأ أن يكون سياسياً، لشدة شغفه واهتمامه بالعلاقات الاجتماعية، إذ كان يعيش في عالم إقطاعي محدود،

فما أشار إليه من إقطاعات كل فارس ، تقع كلها في شامانيا أو في خارجها ،
والقليل منها ارتبط بإقطاعات أقارب من جهة أمه من البرجنديين^(٦٦) .

والمثل الأعلى عند جوانثيل ، هو تلك الصفة التي لا يمكن ترجمتها ، وهي
صفة الشخص ذي المروءة 'prud' homme ، وهي على حد قول القديس لويس
ذاته ، لفظة ، بلغت في الأصالة والنبيل أنها تملأ فم من يتفوه بها . فالرجل
المقدام ذو المروءة ، هو الذي اتخذ مركزاً وسطاً بين الشجاعة والحكمة ،
وبين الشرف والتعصب ، هو رجل من رجال الدنيا فضلاً عن أنه مسيحي ،
ومحارب ، وان كان من رجال البلاط ، شخص صادق الحكم ، مع ما له من
شخصية كاملة . فإذا تراءى لجوانثيل أنه من العسير أن يتقبل حقيقة أن
الرجل المقدم ذي المروءة ، هو رجل نبيل بخلقه وطبعه ، وليس من الضروري
أن يكون هذا النبيل يرجع إلى النسب ، فإن ما نسبته إلى روبرت دي سوربون
من شهرة إنما مصدرها أنه شجاع مقدم^(٦٧) . والواضح أن جوانثيل رأى أن
الإدراك السليم 'good sense' ، الذي يعتبر من أهم صفات الرجل المقدم ،
كان إلى حد ما لا يتفق مع ما اشتهر به القديس لويس من التطرف . على
أن جوانثيل أشار إلى الأحوال القليلة التي اقترت فيها لويس من صفات
الشخص المقدم ، مثال ذلك حين أمر رجاله بأن يتأنقوا في لباسهم ، وحين
رفض مطالب الأساقفة عن السلطة الزمنية ، وعندما حذر تيبوات الثاني
ملك ناغار بالألا يصدق أمواله على الرهبان الدومنيكان في بروفينس
(٦٨) Provens .

لم يكن جوانثيل من مدبري الخطط الحربية (استراتيجياً) ، فلا زال
إقطاعياً في نظراته للحرب ، لم يجد مثله الأعلى في جيش بالغ التنظيم ، بل في
جيش يستطيع فيه كل فارس أن يدلي بما لديه من رأى ، وإذا أراد أن يحقق
فكرته قام على ذلك بنفسه . فلم يغفر جوانثيل مطلقاً للسيد حنا بومون
John of Beaumont (الذي تولى فيما يبدو القيادة بالنيابة عن الملك) ، أنه
لم يسمح له بالقيام بغارة على المسلمين بعد الاستيلاء على دمياط مباشرة . وفي

نفس اليوم ، اتخذ والتر اوتريش Walter of Autreche سلاحه سرأ ، وامتطى صهوة جواده فى داخل الخيمة ، ثم خرج بمفرده ليقاتل المسلمين ، ولم يلبث أن لقي مصرعه . لم يحاول جوانثيل أن يخفى اعجاباه بما حدث على الرغم من أن الملك أعلن أنه لا يجب أن يكون فى جيشه أناس من هذا القبيل^(٦٩) . ولا نعجب أن جوانثيل كان يتخذ مركز القيادة فى الحرب الصليبية ، باستثناء ما كان له من سلطة ، على فئة الشاهبانين الذين صحبوه فى الحرب الصليبية . غير أنه ظل ، وفقاً لما ورد فى قصته ، يعرض فى كل مناسبة المقترحات والخطط . على أنه ما هو معروف عنه من التعجل والاندفاع ، يحملنا على ألا تقبل روايته على أنها صحيحة^(٧٠) .

أما فكرته عن المعركة ، فهى فكرة اقطاعية خالصة ، فلم يقر ما يعرف بالنيران الاغريقية ، وأشاد بما حدث من استخدام السيوف والأطبار ، وأعجبه براعة كونت يافا فى ألعاب الفروسية . على أن هذا الاحساس الاقطاعى هو الذى جعله يرفض مغادرة الأراضى المقدسة ، طالما بقى أحد من قومه فى السجن^(٧١) .

أما نزعة جوانثيل نحو الكنيسة ، فكانت أيضاً نزعة اقطاعية . فما أحب قسسا من أجل الفضائل الدينية ، بل من أجل فضائل الفروسية . فقسيسه الخاص ، الذى قهر عشرة من خصومه فى مبارزة فردية ، وأتم تلاوة القدامس وهو يحتضر بين ذراعى جوانثيل ، كان له فى نفسه تأثير كبير يفوق ما لدى رجل بارز من رجال الدين ، نظراً لأن له من الشجاعة والبسالة ما للرجل العلمانى . ومع ذلك فإن تقدير جوانثيل لرجال الدين . تجاوز كل حد ، فاحترم رئيس دير شيمونون Cheminon لأنه سمع بأن العذراء قامت بحمايته ، واعتقد فى قداسة الراهب هيودين Hugh of Digne لما بلغه من حدوث كرامات على مشهده^(٧٢) .

وظهر النساء فى كتابه فى دورين ، على أنهن أمهات ، وعلى أنهن حاضرات . ولم يفكر جوانثيل أثناء مسيره إلى ما وراء البحار فى زوجته بل فى أبنائها ،

لأن الأمهات لا يظهرن في صور البسالة . أما اعتبار السيدات حاضرات فهو الذى وهب كتابه الحافظ ، إذ أن حنّة ملكة ناغار هي التي أمرت بكتابة سيرة القديس لويس . ولم تلبث هذه الفكرة أن ردها كونت سواسون في لحظة من أخرج اللحظات ، أثناء معركة المنصورة ، حين أشار إلى ماسوف يجرى فيما بعد عن الحديث ، عن هذا اليوم ^(٧٣) .

على أن إعجاب جوانفيل بالقديس لويس ، لم يمنعه من أن يذكر على الملك قسوته على زوجته ، فهو الذى دون ما عانته من الآلام والتعذيب في دمياط ، وما تعرضت له من معاملة سيئة على يد الملكة الوالدة ، دون أن يخرج الملك ^(٧٤) .

المعروف أن جوانفيل أتم كتابه بعد أن بلغ من العمر ٨٥ سنة ، وأنه أحب ، شأن معظم الشيوخ ، أن يسمع نفسه يتحدث ، وأن ينقل في كتابه ، ما كان لروحه من شباب متجدد . وبفضل ما اتصف به جوانفيل من الثروة والاستعداد إلى التحول عن الماضى في طريقه ، وانتوقف عند حادث من الأحداث ، يعيد النظر فيه في إمعان ، فصارت بذلك نظرته في المضاء وشدة الاهتمام ، وزيادة الابتهاج لا تعدو نظرة صبي صغير . فهو يمعن النظر ، ويستجلى الأحداث ، ويسهب في الوصف ، فكانت لمسته حقيقية وضاعة ، فكل من وقف على كتابه ، وتوجه إلى دلنا النيل ، واشتم رائحة المستنقعات المنتشرة بها ، أو اجتاز الساحل السورى ، بين الجبال والبحر ، فانه سوف يذكر أن جوانفيل ، سبقه إلى اجتياز هذه الأرجاء . ولا نستطيع أن نقول أنها من لمسات الآثار الفرنسية ، لأنها لم يكتمل بعد نموها ، بل كانت لمسة كاتب ، اتخذ مكانه اللائق به في وضع أساس هذه الآثار والتقاليد ^(٧٥) .

لم يصلنا ، لسوء الحظ ، كتاب جوانفيل ، إلا في مخطوطات متأخرة عن زمن المؤلف ، تعرض فيها النص لتلف شديد ، غير أنه بفضل الدراسة المحققة ، وبمقارنة الوثائق الأصلية الصادرة عن مخطوطات جوانفيل ، تيسر إعادة الأصل إلى صحته وتقويمه ^(٧٦) .

والواقع أن كتاب جوانثيل لم يحرز نجاحاً أو يصادف قبولا، إلا في زمن متأخر . فلم يفر بشيء من القيمة والمسكاة ، من تطويب القديس لويس ، وفي الوقت الذي لم يعد فيه للقروسية والحروب الصليبية مغزى وأهمية . على حين أن المؤلفات التاريخية أمثال تاريخ ولیم نانجز William Nangis ، أو الحوليات الكبرى لسان دينيه كانت أكثر قبولا .

كان بير دي بول أول من اقتبس من كتاب جوانثيل ، فقرات في كتابه عن تاريخ بريطانيا في نهاية القرن الخامس عشر . وجرت طباعة كتاب جوانثيل لأول مره في سنة ١٥٢٧ ، على يد Pierre Antoine de Rien في بواتيه ، ولم تحرز هذه الطبعة نجاحا يذكر . ثم سنة ١٦٨٨ أن قام على نشر هذا الكتاب نشرا محققا سليما ، دوكانج Du Cange ، ثم تلا ذلك طبعة Copperonnier سنة ١٧٦١ ، ثم صدرت طبعات مختلفه في القرن التاسع عشر ، وأشهرها طبعة Natalis de wailly ، في سنة ١٨٧٤ والتي تكرر طبعا (٧٧) .

وجرت ترجمة جوانثيل إلى الانجليزية ثلاث مرات ، الأولى في مستهل القرن السابق ، ترجمها حنا هافود Johnes of Hafod

(Memoires of John, Lord de Joinville, Grand Marechal of Champagne. Trans. by Thomas Johnes Hafod Press of James Henderson 1807).

وعلى الرغم من أن جون هافود لم يكن مترجما مطبوعا . وتعرض أثناء الترجمة لعقبات خطيرة ، إذ اعتمد على النسخة الفرنسية التي أعدها دوكانج سنة ١٦٨٨ ، ولم يخفل بما نشره كايبرونيه سنة ١٧٦١ من ترجمة محققة ، اعتمد فيها على نصوص مخطوطة جديدة . (٧٨)

أما الترجمتان اللتان قام بهما كل من James Huttou سنة ١٨٦٨ ، بعنوان Saint Louis, King of France, by the Sir de Joinville. Sampson Low. Marston & Co.

واثيل ودجوود سنة ١٩٠٦ ، Ethel Wedgwood ، بعنوان :

The Memoirs of the Lord of Joinville (John Murray)

فليس بهما من الجديد ما يلفت النظر ، إذ لجأ المترجمان إلى اختصار المتن وعمد ویدجوود إلى إعادة ترتيب وتنظيم الكتاب ، وليس ثمة اعتراض على نشر الترجمة على هذه الصورة ، نظراً لأن جوانثيل ، فيما هو معروف يميل إلى الثثرة وكثرة الحديث ، وأمل الجانب الأكبر من كتابه ، في شيء من الانطلاق أحياناً ، وعلى فترات أحياناً أخرى ، مثلما يفعل السيد الكبير (١٧٩) .
على أن هذه الثثرة ، وعدم الاكتران ، والسذاجة والبساطة ، كل ذلك يكون في مجموعه جوانثيل . على أنه بهصرف النظر عن التزام الاحترام للنص ، فانه يفقد قيمته إذا حاولنا إدخال أى إصلاح وتحسين على كتاب رجل له هذه الذاتية والقوة . ولذا فإن المترجم (Marzials) لا يعتذر في أن يعرض هذه الترجمة الثالثة للقارىء الإنجليزى على الصورة التى أملاها جوانثيل (٨٠) .

أما الترجمة الرابعة ، التى قامت عليها حنه ايفانز Joan Evans ، ونشرتها سنة ١٩٣٨ (أ كسفورد) فاعتمدت في ترجمتها ، على النص الذى نشره سنة ١٨٧٤ (ناتالى دى فايبى) Natalis de Wailly .



القِيمَةُ الثَّانِيَةُ

المؤرخون المسلمون

الفصل الثامن

الكتابة التاريخية حتى القرن الثاني عشر الميلادي

التأريخ بالهمزة ، والتأريخ بتسهيل الهمزة ، والتأريخ ، تعريف الوقت والتوقيت . وهو لفظ عربي ، له مثل في لهجة الجنوب ، في صيغة « وارئح » التي يشتق منها تأريخ ، وقلب الواو همزة ليس أمراً شاذاً ، ومع ذلك فإن الجواليقي اعتبر اللفظة « التأريخ » معربة عن أصل سرياني ، معناه الشهر^(١).

كان العرب قبل الإسلام يؤقتون بالنجوم والأهلة ، وينسأون الشهور ويكسبونها إلحاقاً للسنة القمرية بالسنة الشمسية . وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة ، كعام الفيل وبناء الكعبة . فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ، أمر الناس فأرخوا من عام الهجرة^(٢).

هذا في أصل وضع اللفظ ، أما في الاصطلاح ، فالتأريخ عند العرب فن يبحث عن وقائع الزمان ، من حيث توقيتها ، وموضوعه الإنسان والزمان^(٣) . وهو على هذا النحو ، قديم عندهم ، بما على أنه معرفة ساذجة من معارف العرب قبل الإسلام ، ثم تطور ، حتى أصبح على مر الزمن ، علماً من أجل علومهم وأعظمها شأنًا^(٤).

كان عرب الجاهلية ، لغلبة الأمية عليهم ، يتذكرون أيامهم وأحداثهم عن طريق الرواية الشفوية ، على هيئة أشعار وأخبار متفرقة ، ويستثنى من ذلك ، من نزل منهم حواضر الجزيرة ، وخاصة أهل اليمن والحيرة . فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم طرفاً من أخبار ملوكهم وشؤونهم العامة . ودون الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم ، وأودعوها أديرة الحيرة وكنائسها^(٥).

مراجعة التدوين التاريخي

الواضح أنه لم يكن ثمة ، منذ البداية ، تفرقة بين علم الحديث وعلم التاريخ ، فلما جاء الإسلام ، وقامت الدولة العربية ، ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربي ، توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الإسلام بالتاريخ (٦).

وفي أثناء ذلك ، امتدت أطراف الدولة الإسلامية ، ووقعت الفتن العظمى ، واتبعت العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة ، والديانات غير الإسلامية ، فتوافرت الأسباب لجمع الأخبار وتدوينها . فأخبار القدماء مثلاً ، دعا إلى تدوينها أسباب عديدة منها :

١ - رغبة العلماء في فهم ماورد في الكتاب والسنة من الاشارات إلى الأمم الغابرة ، ومنها ميل بعض الخلفاء ، مثل معاوية والمنصور ، إلى الوقوف على سياسة الملوك ومكائدهم ، يضاف إلى ذلك ، حرص الموالى على الإشادة بمجد بلادهم للقديم (٧).

٢ كان تدوين الانساب وأيام العرب ، يسد حاجة الشعراء في مقام الفخر والهجاء . فكان لكل قبيلة تاريخ ما تفرح به ، فانطوى بذلك على ناحية خاصة بفكرة أنساب قبائل العرب ، وتناول أيضاً رواية أخبار المعارك التي جرت بين القبيلة وأعدائها . وتأثر بذلك التاريخ الإسلامي ؛ إذ أن تلك الروايات الماثورة ، هيأت المادة التي استقى منها المؤرخون في تدوين تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين (٨).

٣ - يضاف إلى ذلك ما كان للأنساب من أهمية في تقدير العطاء للجند . وازداد نشاط علماء الأنساب زمن بنى أمية ، بإنشاء الدواوين ، إلى جانب مصالح ذوى العصبية من العرب المتنافسين ، وأدى ذلك إلى وقوع الخلط في نواحي علم الأنساب (٩) .

٤ - ومن البواعث القوية على تدوين أخبار الفتوح ، رغبة ولاة الأمور في معرفة ما فتح من البلدان صلحا ، وما فتح منها عنوة ، وما فتح بعده ، لأن لكل من هذه الحالات حكما خاصا ، من حيث الجزية والخراج (١٠).

٥ - أدى الشغف بزيادة المعرفة عن النبي وأبطال صدر الإسلام ، إلى كثرة العمل والجهد بين المسلمين . فدراسة أحاديث النبي هي المستول الأول عن تقدم الجغرافية والتراجم ، وإذ كانت طريقة اختيار صحة حديث من الأحاديث ، هي تقدير صدق راويه ؛ تطلب ذلك معرفة حياة الرواة ، من حيث مواطنهم وزمن ولادتهم (١١)

ووجد إلى جانب السيرة ، نوع آخر من الرواية التاريخية ، موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الإسلام ، وأطلق على كل ذلك لفظ الأخبار ، وعلى المتخصص في روايته «إخباري» ، كما عرف المتخصص في رواية الحديث ، بالمحدث . ونلاحظ أيضاً النقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص ، منهم ابن اسحاق والواقدي والمدائني ، فكل منهم كان محدثاً وإخبارياً ، كما نلاحظ بداية التخصص في الأخبار ، ومن قبيل ذلك محمد بن السائب الكلبي ، الذي اشتهر بدرأيته بعلم الأنساب ، وأبو مخنف الذي اهتم بالردة ووقعة الجمل ، وصفين وأخبار الخوارج (١٢) . ووجد في تلك المرحلة أيضاً نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار ، فكان لكل قطر من الأقطار الإسلامية الهامة ، أخباريون ، اقتصوا بجمع أخباره وتدوينها ، أبو مخنف في العراق ، والمدائني في خراسان والهند ، والواقدي بالحجاز (١٣).

والواضح أن التاريخ بدأ عند العرب على أنه فرع من علم الحديث ، فتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها . فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار ، يجمعون مآثور الروايات ويدونونها ، مع إسنادها

إلى مصدرها الأصلي ، وهو عادة شخص عدل منهم ، له علم مباشر بالوقعة المروية ، كأن يكون شهد أو اشترك فيها ، كما كانت الحال في رواية أخبار السيرة والإسلام . أو أخذها من بعض مظانها ، كـكتاب قديم ضاع ، أو من بعض أهل البادية ، وتلك كانت كانت الحال في رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الإسلام ، فكان النقد عندهم ، أو الجرح ، أو التعديل ذاتياً ، منصبا على الرواة ، لا موضوعياً منصباً على المرويّات (١٤)

هذه الطريقة ضمنت لهم ، إلى حد بعيد ، صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخي في السيرة ، وحوادث الدولة الإسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك ، في أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام ، وانقسم الأول من السيرة . والواقع أن هذه الموضوعات الأخيرة أضعف نواحي كتب التاريخ عند العرب وأعمقها (١٥).

وإذا كان الإسناد عندهم أساس نقل الأخبار ، فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والأيام . وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا العصور الوسطى . على أن نظام التوقيت ابتداءً ضعيفا عندهم ، فكثير من حوادث الفتح الأولى ، وقع في توقيته خلط شديد ، ثم تكمل على مر الزمن ، بتعدد طرق الخبر الواحد ، وبالأخذ عن المصادر الرسمية ، التي سبقت الإشارة إليها (١٦) . واتبعوا أيضا طريقة علماء الحديث ، في تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها ، بالسند المتصل قراءة وسماعا وإجازة . فـكتاب الأضنام مثلا ، تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبي من عام ٢٠١ إلى حوالي سنة ٥٠٠ (١٧)

أما عرضهم للرواية التاريخية ، فأصحاب السيرة والمغازي والأخباريون الأوائل ، كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها ، بحسب موضوعاتها ، رسائل أو كتباً ، تشبه أبواب الحديث . ثم جاء المؤرخون ، فسلكوا في عرض الحوادث طريقتين ، أولاهما وأقدمهما ، الترتيب على السنين ، بعد مقدمة

في التاريخ القديم ، يبدأونها عادة بذكر الطوفان أو الخليفة . ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط ، الهيثم بن عدى ، المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ثم اتبعها من بعده الطبرى . ومسكويه وابن الأثير ، وأبو الفداء . وأما الطريقة الأخرى ، فتشمل سوق الحوادث ، مساق القصة المنسوبة المرتبة على العمود . وجرى على هذه الطريقة ، اليعقوبى والدينورى والمسعودى^(١٨)

ومنذ أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، يلحظ الباحث زيادة جوهرية في المادة التاريخية ، ودقة وتحريا في مصدرها ؛ إذ استقرت دواوين الدولة العباسية ، وتمهدت قواعدها ، ولا سيما دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد . وأمكن للمشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها في صناعاتهم ، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية ، ومراسلات سياسية ، وإحصاءات للمواليد والوفيات ، وزمن ولاية كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات يضاف إلى ذلك ما حدث في العصر ، من نشاط حركة النقل عن اللغات الأجنبية ، كالفارسية والسرانية واليونانية واللاتينية . ثم إن سهولة الانتقال في أنحاء الدولة الإسلامية ، حملت كثيرا من طلاب العلم والمؤرخين خاصة ، على الرحلة في طلب الرواية ، وأخذها من الشيوخ ، ورؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية ، هو المشافهة والمشاهدة .

وعلى الجملة فإن مؤرخى القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب ، فكانت أربعة :

(١) كتب السيرة والأخبار .

(٢) السجلات الرسمية .

(٣) الكتب المنقولة عن اللغات الأجنبية .

(٤) المشاهدة والمشافهة^(١٩) .

ولما تكاثرت المادة التاريخية ، لم يركش من أفاضل العلماء وثقاة الفقهاء

بأسا من تتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه. ومن ثم أخذ التاريخ مظهره
الرائع، على أنه من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأنًا، وأخذ المؤرخون مكانهم
بين علماء الدول الإسلامية، على أنهم رجال لهم خطرهم في الحياة العامة،
من النواحي السياسية أو العقلية أو الأدبية (٢٠).

ويحسن أن نلتمس بعض الأسس، التي يقوم عليها تصنيف الأدب
التاريخي. ولما كان التاريخ سجلا للحوادث، التي هي في الواقع أقوال الناس
وأفعالهم، فيصح أن نتعرف إلى نوعين من التاريخ: تواريخ عامة، وتواريخ
خاصة. فكتاب الطبري، تاريخ عام في قصده على أية حال، ولذلك يستهل
بتعريف الزمان، ونظرية عن عمر الدنيا، وجعل عنوان كتابه تاريخ الرسل
والملوك، حتى إذا بلغ ظهور الإسلام، اكتفى بالجزء الذي شمله الإسلام
من العالم، وسار غيره من المؤرخين العامين المعترف بهم، على الخطة ذاتها (٢١).
وقنع المؤرخون، الذين كانت خطتهم أقل طموحا، بالأجزاء الإسلامية
من الأرض، أو بجانب من تلك الأجزاء، أو بعهد معين من التاريخ
الإسلامي العام، أو تاريخ دولة إسلامية خاصة. ولذا لدينا تاريخ الإسلام
للذهبي، وتواريخ أقطار، مثل مصر وأسبانيا والمغرب، أو تاريخ بلدان
مثل مكة والمدينة، ودمشق، ونيسابور، وهمدان، وهرات، أو تاريخ
أسرات مثل تاريخ الخزر جي عن آل رسول في اليمن، وتاريخ أبي شامة
لدولتي نور الدين وصلاح الدين (٢٢).

ويصح أن نورد فيما يلي أهم اتجاهات المؤلفات التاريخية في الفترة الواقعة
بين القرن الثالث الهجري، حين أصبح علم التاريخ مستقلا، وبين القرن
السادس (القرن الثاني عشر).

١ - كان علماء كل إقليم قد شرعوا منذ القرن الثالث في جمع الروايات
التاريخية، التي تنصل بتاريخهم. فإذا استثنينا كتاباً في تاريخ مكة (٢٣)،
يمت في جوهره إلى ما ألف في السيرة، فإن أقدم تاريخ لقطر من الأقطار،

هو تاريخ مصر وفتوح المغرب الذى ألفه عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م)^(٢٤) . ومن الملحوظ أن هذا المصنف ، يحتوى نفس المادة التى احتوتها التواريخ العامة المتقدمة الذكر ، ولكن يفتقر إلى ما فيها من النقد الصحيح . وتعتمد أخبار الغزوات على رواية أهل المدينة والروايات المحلية التى لا يوثق بها ، أما المدخل إلى الكتاب ، فليس مستمدا من مواد مصرية أصيلة ، بل جاء من روايات منقولة عن أهل المدينة^(٢٥) .

ولعل ما صنف فى القرن الثالث عن بعض المدن من التواريخ ، كان أكثر اتزاناً ودقة . على أنه لم يبق منها سوى مجلد واحد فى تاريخ بغداد^(٢٦) . وفى القرون التالية ظهر عدد كبير من هذه التواريخ : واتخذت هذه التواريخ عادة وجهتين تبعاً لاهتمام المؤلف ، إما إلى السير ، وإما إلى الحوادث . وما وصل إلينا من مصنفات من النوع الأخير ، لا تخلو من العناصر الخيالية ، غير أن بها قدراً كبيراً من مواد قيمة لم ترد فى التواريخ العامة ، ومن هنا نشأت أهميتها الكبيرة . ولما كانت هذه التواريخ ، فى مجملها ، تتمشى من حيث الإنشاء وطريقة الأداء ، مع ما هو مألوف فى الإقليم ، الذى تتحدث عنه ، وفى الزمان الذى كتبت فيه ، فإنها تؤلف قسماً هاماً من أقسام التاريخ الإسلامى ، سواء كانت مكتوبة بالعربية أو الفارسية^(٢٧) .

على أنه من المتعذر أن نفرق بين التاريخ العام والتاريخ الإقليمى ، بعد منتصف القرن الرابع . ومن ثم كانت الصفة الغالبة على التصنيف التاريخى البحث ، هى كتابة الحوليات المعاصرة ، مع التقديم لها فى الغالب ، بموجب التاريخ العام . ولم يكن فى وسع مؤلف هذه الحوليات ، أن يجعل أغراضه ورواياته عالمية ، فكل مؤلف مقيد بحدود النظام السياسى ، الذى يعيش فى كنفه ، وقلبا وفق إلى معالجة حوادث تقع فى أقاليم بعيدة عنه . ولكن

إلى أى حد يصح أن يكون لهذا التقييد مقابل في الحياة العقلية، نظرا لما حدث من التفكك السياسى عند المسلمين (٢٨) .

الواقع أن المسألة لا زالت ماثرا للجدل ، غير أن أهم من التفكك السياسى ، ما حدث فى الغالب من انتقال تدوين التاريخ السياسى ، إلى أيدى العمال ورجال البلاط . وأثر هذا التغيير فى أسلوب التاريخ ومادته وروحه . فقد كان تكوين الحوادث الجارية ميسورا عند الكتاب المحنكين وملائما لطبائعهم . وكانت المصادر التى يستقون منها معلوماتهم هى الوثائق الرسمية ، الشخصية . وما يدور من الأحاديث بين العمال ، وفى دوائر البلاط . ولهذا السبب، اختصر الاسناد إلى حد الاكتفاء بإشارة موجزة إلى المصدر ، بل إن بعض المصنفين المتأخرين استغنوا عنه نهائياً فى كثير من الأحوال . وأخذت الحوليات تجنح إلى الاقتصاد على ذكر ما يفعله الأمير ، وما تقوم به حاشيته، يضاف إلى ذلك أن ما يضيفه الكتاب عن الأحداث السياسية الظاهرة يصح الارتكان إليه والثقة فيه ، على أنه ينبغى أن تدرك ما يتقيد به كاتب فى خدمة أمير (٢٩) . فالتواريخ المعاصرة لابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ (١٠٣٠ م) ولهلال الصابى المتوفى سنة ٤٤٨ (١٠٥٦) ، فيها ما ينبىء بأن هذين الكتابين أحكما الأخذ بمعيار الدقة ، وتحجرا إلى حد ما ، من سلطان التحيز السياسى . ومن الدليل على أن كثيرا من الكتاب ، التزموا هذا الأساس ، ما بقى لنا من كتابى تاريخ مصر والأندلس ، اللذين ألفهما عبد الله بن أحمد المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ (١٠٢٩ م) ، وابن حيان القرطبي المتوفى سنة ٤٦٩ (١٠٧٦ / ١٠٧٧ م) (٣٠) .

وكان لصيغ التاريخ بالصيغة المدنية أثر آخر خطير ؛ إذ استعاض المؤرخون عن المبررات الدينية القديمة بالدعوة إلى القيمة الأخلاقية لدراسة التاريخ . فهو عندهم يرد ذكر الفعال الطيبة والخبيثة ، يبسطها أمثالا نافعة فى تربية الأجيال القادمة (٣١) . قال مسكويه فى مقدمة كتابه « إني لما تصفحت أخبار الأمم وسير الملوك ، وقرأت أخبار البلدان وكتب التواريخ ، وجدت

فيها ما استفاد منه تجربة، في أمور لا يزال يتكرر مثلها، ويزتظر حدوث شبهها وشكلها، كذلك مبادئ الدول، وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، وتلافى من تلافاه، إلى أن عاد إلى أحسن حال، وإغفال من أغفله، فآل الأمر إلى الاضمحلال والزوال، وذكر ما يتصل بذلك من السياسات في عمارة البلدان، وجمع كلمة الرعية، وحيل الحروب، وذكر الأسباب التي تقدم بها قوم عند السلطان، والأحوال التي تأخر لها آخرون، وذكر لسياسات الوزراء وأصحاب الجيوش. ولما كانت أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة صار جميع ما يحفظه الإنسان من أحداث التاريخ كأنه تجارب له، وكأنه قد عاش الزمان كله، فيمد لكل شيء عدته .

وقال ووجدت هذا النمط من الأخبار مغمورا بالأخبار التي تجرى مجرى الأسهم والخرافات التي لا فائدة منها، غير استجلاب النوم بها... فلذلك جمعت هذا الكتاب، وسميته تجارب الأمم. وأكثر الناس انتفاعا به، أوفرهم قسطا من الدنيا، كالوزراء، وأصحاب الجيوش وسواس المدن، ومدبري أمر الخاصة والعامة، ثم سائر طبقات الناس. وأقل الناس حظا لا يخلو من أن ينتفع به في سياسة المنزل، وعشرة الصديق ومداخلة الغريب... وأنا مبتدئ بذكر الله ومنته بما نقل اليينا من الأخبار عن الطوفان، لقللة الثقة بما كان منها قبله، ولأن ما نقل أيضا، لا يفيد شيئا، مما عزمنا على ذكره وضمناه في صدر الكتاب.. ولهذا السبب بعينه، لم نتعرض لذكر معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم، وما نم لهم من السياسات بها، لأن أهل زماننا لا يستفيدون منها تجربة، فيما يستقبلونه من أمورهم، اللهم إلا ما كان منها تدبرا بشريا لا يقترن بالاعجاز، (٣٢).

وصادفت هذه الدعوة قبولاً تاماً لدى سائر علماء الأخلاق ورجال الأدب؛ لأنه إذا كان التاريخ فرعاً من فروع الأخلاق، وليس علماً من العلوم، فلا ينبغي للثورخين أن يترددوا في تكليف أمثالهم التاريخية بما يلائم أغراضهم. وما طفحت به كتب الأدب من هذه التبريرات، أسهم

إلى حد كبير في إفساد ذوق الجمهور وملكية الحكم عنده، ولم يسلم بعض المؤرخين والأخباريين من هذه العدوى .

وعلى الرغم من أن الفقيه والمحدث ، تنجبا لعمال الديوان عن مكانتهما في تدوين التاريخ السياسى ، فإنهما ظلا مستأثرين بكتابة السير ، التى تعتبر أوسع مجالا من ذلك التاريخ ، وكانت كتابة السير ضربا من الرواية القديمة . ولاشك أن التاريخ السياسى كان أكثر إخلاصا للفكرة القديمة ، بعد تحوله إلى حوليات عن البيوت الحاكمة ، مثل تاريخ الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ومن هذا القبيل أيضا تاريخ الخلفاء ، أو فى هذه الحالة ليس ثمة فاصل واضح بين الترجمة والتاريخ (٣٣) . وكانت الحوادث المتعلقة بالشخصيات البارزة موضوعا منذ القدم ، لمجموعات قائمة بذاتها إلى جانب طبقات المحدثين والفقهاء المنتمين إلى هذا المذهب أو ذلك . وشملت التراجم فئات خاصة من الأشخاص كالشعراء والأطباء والقراء فضلا عن الفقهاء والمحدثين (٣٤) .

وامتازت هذه الكتب أربعة مناهج أو تنظيمات ، يصح أن يوصف أولها بالتحكمى مثل كتاب الأغاني ، الذى يعتمد الترتيب فيه ، على مجموعة من مائة قصيدة ملحنة ، اختيرت لإجابة لأحد الخلفاء ، وأدى ذلك إلى مجموعة من الروايات المتصلة بالشعراء والموسيقيين (٣٥) .

والمنهج الثانى جغرافى ، اتخذ المصنف أساس التنظيم ، الأقطار أو المدن التى ينتسب إليها الأشخاص الذين يتناولهم . والمألوف أن تكون هذه المعاجم كبيرة ضخمة ، يؤلفها علماء من نفس المدينة أو الإقليم ، ومن هذا القبيل معجم الخطيب البغدادى (٣٦) المتوفى سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، الذى يقع فى ١٤ مجلداً . ولم يبق شيء من هذه المؤلفات ، اللهم إلا التاريخ الكبير لدمشق الذى وضعه ابن عساکر المتوفى ٥٧١ (١١٧٦) ، ولعل تاريخ دمشق هو أكمل المؤلفات العربية الجامعة من نوعه (٣٧) .

والمنهج الثالث حولى ، وتسمى الكتب التى من هذا النوع بالطبقات .

فتعالج الموضوعات فيها وفقاً للأجيال ، وأشهر أمثلة هذا المنهج ، طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات الشافعية للسبكي (٣٨).

والأساس الرابع ، وهو الأكثر شيوعاً من بعض النواحي ، وهو بحسب الحروف الأبجدية ، وهو الذي اتبعه ياقوت (٣٩).

وكانت كتب التراجم تستقى من مراجع أخرى أيضاً ، وهذه الكتب غزيرة المادة ، وتزود من فقه اللغة وفروعه ، التي تنجح إلى الأدب . ومن الصنف الأول ما أنتجه الكتاب من طبقة النحاة وتراجم كبار الفقهاء ، ومن الصنف الثاني ، ما ألفه المصنفون من كتب جامعة عن الشعراء ورجال الأدب . ويبدو من جهة أخرى ، أنه لم يكن ثمة إقبال من الكتاب على أن يترجموا لأنفسهم . ولم يبق من آثار ذلك العهد سوى رسالتين ، للمؤيد في الدين المتوفى سنة ٤٧٠ (١٠٨٧) ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ (١١٨٨) (٤٠).

كل هذه الكتب التي وضعت عن التراجم ، وكذا كتب التراجم الإسلامية المتأخرة ، تجمعها خصائص مشتركة . فهي تعنى في الغالب بطريقة الإسناد ، وتورخ الحوادث ، ولا سيما تاريخ الوفاة بدقة فائقة ، وتورد في إيجاز أهم ما يتعلق بحياة المترجم له ، وتشير أحياناً إلى مؤلفاته إذا كان كاتباً ، وتعرض بعض أشعاره ، إذا كان شاعراً . وكل مادة التراجم لم يراع في ترتيبها التاريخ أو الموضوع ، ومع ذلك فإنها تكمل الحوليات السياسية ، وتحقق أحداثها لارتباطها بحياة الناس (٤١).

امتزج التاريخ بالتراجم في عهد متقدم ، وشاهد ذلك ، تلك التواريخ التي تقوم على السير ، ولما كان هذا الأسلوب في التأليف شديد الملائمة لأولئك الذين كتبوا تواريخ الوزراء مثل محمد بن عبدوش الجهشيارى المتوفى سنة ٢٣١ (٩٤٣ - ٩٤٤ م) ، وهلال الصابى المتوفى سنة ٤٤٨ (١١٤٧ - ١١٤٨) ، ولأولئك الذين صنفوا تواريخ القضاة ، أمثال محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، عن قضاة مصر ، ومحمد بن الحارث الحشنى المتوفى سنة ٣٦٠ (٩٧٠ - ٩٧١) عن قضاة قرطبة (٤٢).

وانخذ الصولى ، المتوفى سنة ٢٣٥ (٩٤٦ م) ، نهجاً خاصاً فى كتاب الأوراق ، الذى ألفه فى تاريخ العباسيين ؛ إذ جمع بين التراجم السياسية والتراجم الأدبية . ولما قامت الدول المستقلة فى أنحاء العالم الإسلامى ، حلت الحوليات الخاصة بهذه الأسرات الحاكمة فى القرنين الخامس والسادس ، محل الحوليات القائمة على الرواية ، وذلك فى ولايات المشرق على أقل تقدير . وكانت لهذه الخطوة أثر بالغ الخطورة ، نظراً لنحكم العوامل الشخصية فى كتابة التواريخ . والراجح أن إبراهيم الصابئ المتوفى سنة ٣٨١ (٩٩٤) ، هو أول من اتبع هذا المنهج الجديد فى مصنفه المفقود ، المعروف بالتاجى ، نسبة إلى « تاج الملة » من ألقاب عضد الدولة بن بويه ، ويقال إن جانباً كبيراً من هذا الكتاب وارد فى تاريخ مسكويه ، ولكن لم يعثر بعد على أصل الكتاب (٤٣) . ويصح اعتبار تاريخ اليمى وأخبار غزوات يمين الدولة (محمود الغزنوى) فى الهند للعتبى المتوفى سنة ٤٢٧ (١٠٣٥) من التواريخ الرسمية ، ولعل لهذا صلة بإحياء اللغة الفارسية ، والرواية فى المشرق ، بل ربما كان هنالك أثر للملحمة الفارسية ، التى أخذت وقتذاك فى الظهور (٤٤) .

نهضت اللغة الفارسية ، وغدت لغة الأدب فى عهد الأسرات التى حكمت فارس فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ويرجع معظم الفضل فى ذلك ، إلى الحكام الترك فى القرون التالية ، الذين لم تكن لهم دراية تامة باللغة العربية ، فنقلوا اللغة الفارسية إلى البلاد التى غزوها ، والتى امتدت إلى الأناضول غرباً ، وإلى الهند شرقاً . وما كاد ينتهى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، حتى بدأت التواريخ الفارسية تدون فى هذه البلاد . وازداد التباعد بين التاريخ العربى والتاريخ الفارسى ابتداء من القرن السادس . وبفتوح المغول ، تمت الخطوة النهائية فى سبيل حلول اللغة الفارسية محل اللغة العربية ، فى ميدان الثقافة الفارسيه التركيه ، التى انتشرت نتيجة التوسع الإسلامى فى هذه الأقاليم (٤٥) .

ومع ذلك ، زاد الانتاج فى التاريخ العربى ، ولذا ينبغى أن نعالج على حدة كلا من التاريخ العربى ، والتاريخ الفارسى .

اتخذت المؤلفات التاريخية وقتذاك نفس الطريق ، الذى سلكته من قبل ، على أنها امتازت بما استجد من المواد والخصائص ، وأبرز هذه التغييرات ما طرأ على العلاقات بين التراجم والأخبار السياسية من جهة ، وما انتاب مادة التواريخ العامة من جهة أخرى . أما العوامل الكامنة التى أدت إلى هذا التطور ، فهى ظهور العالم المأورخ من جديد ، إلى جانب المؤرخ الرسمى ، فيما يختص بالأول ، وانتقال مركز النشاط فى التاريخ العربى من العراق إلى الشام ثم إلى مصر ، فيما يتعلق بالثانية (٤٦) .

ومن أهم المعالم الجديدة فى كتابة الحوليات ، عودة المصنفين إلى التأليف فى التاريخ العام الذى يبدأ بخلق العالم ، أو التأليف فى التاريخ العام الذى يبدأ بظهور الإسلام ؛ وهو الأغلّب . وبذلك اتعشت تلك النظرة الإنسانية القديمة ، التى تجعل التاريخ عبارة عن حوليات عن البشر ، على الرغم من أنه لم يجر تحقيق جديد لتاريخ القرون الأولى . يضاف إلى ذلك ، الاتجاه إلى الجمع بين الحوليات السياسية والحوليات القائمة على التراجم ؛ وهو يجرى مشاهدته فى الأخبار المحلية المتقدمة ، مثل ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ (١١٦٠) (٤٧) . ولاشك أن ما يقرره المؤلف من خبر لهذه الحوليات أو تلك ، إنما يرتبط بهواه . ففى بعض التواريخ ، أمثال تاريخ ابن الجوزى ، والذهبي ، تطفئ أخبار الوفيات على الأحداث السياسية ، بينما الأمر على عكس ذلك فى تاريخ السكامل الذى ألفه ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ (١٢٣٣) .

ولعل إحياء الخلافة العباسية كان من الأسباب التى أوحى بهذا الاتجاه العالمى ، والمعروف أن الذى قام بإحياء السنة فى منتصف القرن الحادى عشر ،

علماء الدين ، ومنهم مؤرخون ، وكبار الموظفين ، والأرستقراطية العسكرية ، وكان لذلك أثره في ندرة المصادر الشيعية^(٤٨) . على أن كثيراً من المؤرخين المتأخرين بالغوا في احتذاء هذا المثل ، ومعظمهم اعتمد على ابن الأثير ، على الرغم من أنهم اكملوا مقتبساتهم بمواد محلية ، ووقائع حديثة العهد ، ومن هؤلاء ابن واصل ، وسبط بن الجوزي ، وابن العبري ، وأبو الفداء ، وابن كثير^(٤٩) .

وظهر إلى جانب التواريخ العامة ، عدد كبير من التواريخ المكتوبة عن الأقاليم أو الأسرات الحاكمة ، أو في التراجم . على أن ماله أهمية في دراسة تاريخ الشرق الأدنى والحروب الصليبية من هذه المصادر ، يتمثل في الفئات الآتية :

أولاً — المعاجم

تعتبر المعاجم باللغة الأهمية لما تمدنا به من المعلومات عن المؤرخين ومصادرهم . ويصح أن نعرض لثلاث مجموعات منها ، إذ اختلفت فئة بمعالجة الأقاليم ، ومنها ما ارتبط بالطبقات ، ومنها ما كان عاماً .

١ — فما تعلق بالأقاليم ، منها معاجم عن بغداد ، ودمشق ، وحران ، ودينسر ، وأربل ، وحلب ، ومصر .

فمن بغداد ، ألف الخطيب البغدادي ، في القرن الخامس (الحادي عشر الميلادي) ، كتابه المعروف باسم تاريخ بغداد ، الذي ذيل عليه السمعاني ٥٠٦ - ٥٦٢ (١١١٣ - ١١٦٧) ، ثم الديلمي ٥٥٨ - ٦٢٧ (١١٦٣ - ١٢٣٩) ، واختصر كل ذلك البنداري . وذيل على البغدادي أيضاً ابن النجار (٥٧٨ - ٦٤٣) ، في كتاب يقع في ٦٠ مجلداً^(٥٠) .

أما دمشق ، فالكتاب الرئيسي عنها هو كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١) ، ألفه سنة ٥٦٢ ، واختصره وذيل عليه جماعة من أفراد أسرته ، منهم تاج الدين بن حمويه (٥٧٢ - ٦٤٢) ، وأبو شامة وعمر بن الحاجب .

وألف حماد الحراني (٥١١ - ٥٩٨) كتاباً عن حران ، جرى اقتباسه في المؤلفات والكتب المختلفة ، وذيل عليه أبو المحاسن بن سلامة ، أوائل القرن السادس (الثاني عشر)^(٥١) . وأهم ما ألف عن حلب ، كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لسكّال الدين بن العديم ، الذي ذيل عليه في القرن التاسع (الخامس عشر) ابن خطيب الناصرية ثم ابن الخنبل^(٥٢) .

ولم يعرف عن مصر معجم للتراجم قبل المقفي الذي ألفه المقرئ في القرن التاسع (الخامس عشر الميلادي)^(٥٣) .

٢ - الطبقات - ينبغى التفرقة بين طبقات الفقهاء ، وطبقات الشعراء وطبقات الأدباء .

وأشهر كتاب عن طبقات الشعراء ، خريدة القصر وجريدة العصر لعهاد الدين الأصفهاني . أما طبقات الأدباء فمنها إرشاد الأريب في معرفة الأديب لياقوت الحموي . ويعتبر كتاب أخبار الحكماء لابن القفطى بالغ الأهمية لدراسة الحياة العقلية ، كما أن كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة له أهميته من الناحيتين العلمية والتاريخية . أما طبقات الفقهاء فجرى تقسيمها حسب مذاهبهم ، والمعروف أن المذهب السائد في الشام ، كان مذهب الإمام الشافعي ، ومن أشهر كتب طبقات الشافعية ، كتابا السبكي وابن قاضي شعبة .

٣ - أما المعاجم العامة ، فمنها تاريخ الإسلام للذهبي ، ومنها تاريخ الصفدي (القرن الرابع عشر الميلادي) ومنها وفيات الأعيان لابن خلكان^(٥٤) .

ثانياً - تواريخ الفترة الثانية عشر السابقة علي زمن صدرع الربيع

١ - يعتبر القرن السادس (الثاني عشر الميلادي) ، فترة تراخي في

نشاط تأليف النوارىخ عن وسط سوريا وفلسطين . ونقتصر على الإشارة إلى أهم ما تبقى من النوارىخ فى هذه المرحلة ، وهو كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى .

ينتمى مؤلف هذا الكتاب ، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى الأسدى ، إلى أسرة دمشقية شهيرة . ولد سنة ٤٦٥ (١٠٧٣) بدمشق ، وبعد أن فرغ من دراسة علوم الدين والآداب ، شغل مناصب إدارية فتولى ديوان الإنشاء ، ثم صار رئيساً لدمشق مرتين (٥٥) .

أما تاريخه . فإن جانباً منه جرت كتابته قبل سنة ٥٣٥ (١١٤٠-١١٤١) ، ثم صار معروفًا ، عند العظمى ، بعد ثلاث سنوات ، ولم يلبث ابن القلانسى أن استأنف الكتابة بعد ثلاث سنوات أخرى ، فأتم ما سبق أن شرع فيه من الكتابة ، ومضى فى التأليف حتى آخر حياته ، أى حتى سنة ٥٥٥ (١١٦٠م) (٥٦) .

وتاريخ ابن القلانسى هو الوحيد الذى وصل إلينا كاملاً ، عن الفترة الواقعة بين الغزو السلجوقى لبلاد الشام ، وبين صلاح الدين . فإذا كان من الناحية النظرية يعتبر ذيلاً على كتاب هلال الصابىء ، منذ سنة ٤٤١ (١٠٥٠) ، فالواقع أنه يعتبر من الناحية العملية خاصاً بدمشق . فما ورد فيه من مادة ، تعتبر مستمدة من المحفوظات التى وقف عليها المؤلف بحكم مهنته ، باعتباره رئيس ديوان الإنشاء ، ومن تجربته الشخصية . ومن الطبيعى أن نلصق عنده شيئاً من التحيز ، لحرصه على على عمالة الأسرة الحاكمة ، ولأن المؤلف اشترك فيما وقع فى دمشق من فضال حزبه عنيف (٥٧) .

ويظهر هذا التحيز فى إشارات صريحة ، أو فى أجزاء جرى حذفها فى حذق ومهارة (٥٨) . ويعتبر تاريخ ابن القلانسى ، الأساس الذى اعتمد عليه إلى حد كبير ، فى تاريخ الشام ، كل من ابن الأثير ، وسبط بن الجوزى ، وأبو شامة ، وسائر المؤرخين الذين جاءوا من بعده . وعلى الرغم من تحقيقه ونشره وترجمته ، فإن المؤرخين المحدثين لم يفيدوا منه على الوجه الأكمل (٥٩) .

أما تاريخ شمال الشام ، فلم يصل عنه إلا النذر اليسير في الفترة الممتدة من منتصف القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) ، حتى منتصف القرن السابع (الثالث عشر) ، ومع ذلك فإن الإنتاج التاريخى يبدو وفيراً. على أن جانباً من هذا الإنتاج لا بد أن كان شيعياً من جهة ، فتعرض للتدمير أو الإغفال ، وظهر من جهة أخرى نتيجة التفكك السياسى ، فنجد مؤلفات تعالج ، فى غير ترتيب أو نظام ، أحداثاً ضئيلة الأهمية ويغلب عليها الطابع الإقليمى ، إذ حرصت كل أسرة معروفة على أن يكون لها تاريخ. ومن الطبيعى أن تكون هذه المؤلفات أساماً لما حدث فيما بعد من كتابة تاريخية ، ولا بد إذن من دراستها^(٦٠) . ومن أشهر المؤلفين :

١ - ابن زريق - وهو أبو الحسن يحيى بن على بن محمد بن عبد اللطيف التنوخى المعرى . ولد بمعرة النعمان سنة ٤٤٢ (١٠٥١) ، وينتمى إلى أسرة معروفة فى تنوخ . واشتهر أفراد هذه الأسرة ، الذين يعتزون بصلة القرابة بالشاعر ، أبى العلاء المعرى ، بميلهم إلى الدراسات الأدبية . ألف ابن زريق تاريخاً عن الغزو الأتريكى (السلجوقى) ، والغزو الصليبي ، ووردت منه اقتباسات فى مؤلفات ابن عساكر ، وابن أبى طى ، وكال الدين ابن العديم ، وابن شداد الجغرافى^(٦١) .

٢ - ابن أبى جرادة (أبو الحسن على بن عبد الله) - وهو مؤلف كتاب يتناول أخبار أمراء حلب ، أفاد منه ابن أبى طى ، وابن العديم . وعالج ما وقع من الأحداث ، منذ بداية الإسلام حتى سنة ٥١٢ (١١١٨ - ١١١٩) . وينتمى المؤلف إلى أسرة ، تولى منها جماعة منصب القضاء على مذهب ابن حنبل^(٦٢) .

٣ - صحران بن عبد الرميم (بن حمدان بن على بن خلف بن هلال الأثاربى الحلبى) - وله كتاب مفقود فى التاريخ ، وهو من أسرة عريقة بالريف ، استقرت فى المعرة ، شمالى الأثارب ، وألف عنها عجالة . ولد حوالى سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، وأمضى معظم أيامه بالريف ، حيث طاب له المقام ، (١٣٢ - الحروب الصليبية)

وأشدد الشعر ، وولع بالأدب ، وله دراية بالتنجيم والهندسة ، ومارس مهنة الطب وبرع فيها . وتولى معالجة حاكم الأتابك الترماني ، فمنحه قرية بالقرب من سمرمين ، ظلت في يد أسرته . وتولى بعض الوظائف الإدارية ، ثم شغل رئاسة ديوان معرفة النعمان ، ولما استولى زنكي على حلب ، أقام بها ، ثم ولي للمسلمين حكم الجزر . وجرى إنفاذه في سفارة إلى دمشق ومصر . وارتاب الخليفة الأمر الفاطمي في أمره ، إذ ظن أنه من الحشيدية . وهو المذهب السائد في الجزر . ثم زار بغداد سنة ٥٤٠ . ومات سنة ٥٤٣ (١١٤٧ - ١١٤٨) . وترجع أهمية أسرته إلى درايتها بأحوال الفرنج . والواقع أن كتابه المعروف باسم «كتاب الموفق» ، إنما أعده لتاريخ غزو الفرنج وما ترتب عليه من آثار . واستهل كتابه بسنة ٤٩٠ (١٠٩٧) ، وانتهى فيه إلى سنة ٥٢٠ (١١٢٦) . ولم يشر إلى هذا الكتاب إلا ابن أبي طي وابن العديم ، ولم ينقل عنه ابن العديم إلا قليلا (٦٢) .

٤ - العظمي - محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن نزار التنوخي الحلبي . ينتمي أيضاً إلى أسرة تنوخية ، شأنه في ذلك شأن ابن زريق ، غير أنه يمت إلى فرع منها ينزل بحلب . وكان أبوه رئيساً على جهة من الجهات ، بينما تولى هو نظارة مدرسة في حلب . وتعرف إلى ابن عساكر في دمشق وإلى السمعاني في بغداد ، وكان من شعراء بيت الغازي والبرسقي وزنكي ، وكان يمدح أعيان دمشق .

ولد سنة ٤٨٣ (١٠٩٠) . ومات بعد سنة ٥٥٦ (١١٦١) . ويعتبر كتابه أهم ما ألف في زمنه عن تاريخ شمال الشام ، غير أنه لم يصلنا إلا مختصراً في التاريخ العام الذي ألفه لعهاد الدين زنكي سنة ٥٣٨ (١١٤٣ - ١١٤٤) . ونقل عنه ابن أبي طي ، وابن العديم ، وابن دقاق ، والعيني . غير أن كثرة ما أورده ابن العديم في كتابه من رواياته وأخباره ، يدل على أنه ألف كتاباً

أخرى في التاريخ . وينسب إليه حاجى خليفه كتاب « تاريخ حلب » ، الذى لم نعرفه إلا فيما ورد من الاقتباسات عنه . غير أن ابن العديم لم يشر ، إلى جانب التاريخ الموجز للعظيمى ، إلا إلى كتاب « الموصل على الأصل المؤصل » ، الذى يحوى تراجم وأعيان الإسلام ^(٦٤) .

وورد فى تاريخ ابن الفرات اقتباسات من العظيمى ، تتناول الأحداث الواقعة بين سنة ٥٤٥ ، ٥٥٦ (والراجح أنها بعد ابن أبى طى) . على أن ابن العديم وغيره من المؤلفين ، الذين أفادوا من العظيمى ، لم يتجاوزوا فى النقل عن العظيمى ، أخبار سنة ٥٣٨ . فكأن الأخبار التى أوردها ابن الفرات ، وترجع إلى ما بعد سنة ٥٣٨ مستمدة من كتاب مستقل ، استأنف تأليفه العظيمى ومضى فيه إلى قبيل وفاته ^(٦٥) .

٥ - بنو منقذ :

يقابل تواريخ بنى تنوخ ، تاريخ بنى منقذ ، أمراء شيزر . يهمننا من هذه الأسرة خمسة رجال : منهم أخوة ثلاثة ، على ، وأسامة ، ومنقذ ، ثم مرهف ، ابن أسامة ، وعبد الرحمن ابن اخت الثلاثة الأول . وأكبر هؤلاء الإخوة ، هو أبو الحسن على بن مرشد على بن منقذ (٤٨٨ - ٥٤٥ : ١٠٩٥ - ١١٥٠) ، ويبدو أن مصيره وحظه ارتبط ، فى الشطر الأخير من حياته ، بمصير أسامة ، الذى صحبه إلى المنفى بدمشق ومصر . وتوجه أيضا إلى بغداد ، حيث توطدت أواصر الصداقة بينه وبين السمعانى . ولقى على ، مصرعه فى عسقلان فى معركة نشبت ضد الفرنج (الصليبيين) . وألف تاريخاً ، يطابق فى العنوان تاريخ ابن كثير المعروف باسم « البداية والنهاية » ، أورد منه ابن العديم ، أخبارا عديدة تتعلق بالقرنين الخامس والسادس حتى سنة ٥٣٤ (١١٤٠) . على أن أخباره يغلب عليها الرواية الشفوية ، ولذا لا تصمد لكل ما يوجه إليها من نقد ، فلا يعتبر كتابه مؤلفا هاما ^(٦٦) .

أما أصغر الإخوة ، أبو المغيث منقذ ، فارتبط بأسامة ، وأمضى شيخوخته فى صحبته بديار بكر . وكتب ذيلا على تاريخ أبى غالب المصرى . ولم يؤثر عنه

إلا ثلاث روايات تتعلق اثنتان منها بأخبار ما بعد الحرب الصليبية الأولى (٦٧).

وأشهر هؤلاء الإخوة الثلاثة ، هو أسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ : ١٠٩٥ - ١١٨٨) . أقام بشيزر حتى سنة ٥٢٢ (١١٣٧ - ١١٣٨) ، على أنه من سادات شيزر وفرنساها وأدبائها، فضلا عن شهرته بممارسة الصيد . ولما وقع الاضطراب والنزاع بين أفراد أسرته ، خرج من شيزر ، وقصد دمشق ، حيث حاز محبة وثقة أمير دمشق ، شهاب الدين . على أنه لم يلبث أن غادر دمشق ، بعد أن اشترك فيما وقع من منازعات بين الأحزاب المختلفة . فتوجه إلى مصر سنة ٥٣٨ (١١٤٣) . فكسب عطف القائد عباس ، ولم يلبث أن حامت حوله الشبهات في مصرع ابن عباس ، فأضحى موطن اشتباه من قبل ابن عباس والوزير سلار والخليفة الظافر ، فهرب إلى دمشق . وفي سنة ٥٦٠ (١١٦٤) ، كان بديار بكر ، واستدعاه منها سنة ٥٧٠ (١١٧٤) صلاح الدين ، ثم فقد دُفِنَ صلاح الدين ، ومات بدمشق سنة ٥٨٤ (١١٨٨) بعد أن بلغ من العمر ٩٦ سنة . وترك مذكراته ، التي تمثل فيها سيدا من سادات العرب ، لم يتأثر بالغزو التركي (٦٨) .

وكتابه المعروف باسم الاعتبار ، يتضمن خلاصة تجارب أسامة ، وكل ما صادفه في حياته من أحداث ، دون أن يلتزم قاعدة معينة في الأسلوب أو الترتيب ، وهو يعتبر قانون السيد الكامل . وعلى الرغم من أنه ألفه في أثناء شيخوخته ، فإنه ينبض بروح الشباب وفتوته . على أن الإفادة منه في التاريخ ليس أمرا سهلا ، نظرا لأن أسامة لم يراع الترتيب الزمني ، ولم تخضع مذكراته لأي ضابط أو سلطان (٦٩) .

لم يكن كتاب الاعتبار هو كل ما ألفه أسامة من كتب . فله ديوان يقع في جزين كان موجودا أيام اليافعي ، المتوفى سنة ٧٦٨ (١٣٦٧ م) وهو الذي أشار إليه ، مرآة الجنان (ج ٢ ، ص ٤٢٧) . وجمع Derenbourg طائفة من شعره ، نقلها من مجموعة مكتبة جوتا ، ومن دواوين شعرية (٧٠) .

وأورد Derenbourg أهم مصنفاته . أما كتاب الاعتبار ، فإن المخطوطة الوحيدة له ، هي التي عثر عليها درنبورج في مكتبة الاسكوريال سنة ١٨٨٠ . وقام على نشرها . وترجم الاعتبار أربع مرات ، ترجمه إلى الفرنسية درنبورج (باريس ١٨٩٥) ، وإلى الألمانية شومان Schumann (إنسبروك سنة ١٩٠٥) وإلى الروسية سالييه Salier (قدم له كراتشكوفسكى ، وعلق عليه - بتروغراد ١٩٢٢) . وإلى الإنجليزية فيليب حتى (نيويورك ١٩٢٢) - نشر حتى أيضا النص العربي للاعتبار - كولومبياسنة ١٩٣٠) . أما مصنفات أسامة الأخرى فلا تزال مخطوطة ومنها رسالة في الشعر ، البديع في البديع ، ، وكتاب العصا ، وكتاب المنازل والديار ، ولب الألباب^(٧١) .

وجرى مرهف بن أسامة على نهج أبيه من حيث الدراسة الأدبية . ويمثل أباه أيضا في طول العمر (٥٢٠ - ٦١٣ = ١١٢٦ - ١٢١٦) . دخل في خدمة صلاح الدين ، فجعل له إقطاعا بمصر ، وأقام به حتى وافته منيته . ووزاد في مكتبته أبيه ، وأضاف كتابات ، اقتبس منها ابن العديم . وكتب ابن مرهف بعض الملاحظات التاريخية ، وكان بحوزته كتاب الاعتبار^(٧٢) .

الفصل التاسع

مؤرخو صلاح الدين

كل المؤرخين الذين درسوا حياة صلاح الدين ، جعلوا الأهمية الأولى لمصدرين عربيين ، الأول ، واسمه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لابن شداد ، الذي نشره شولتنز Schultens ١٧٣٢ - ١٧٥٥ م ، وطبع بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ ، ونقله إلى الإنجليزية كوندر Conder ، سنة ١٨٩٧ ، كما نشر في المجلد الثالث ، من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين^(١) . أما الكتاب الثاني ، فهو الكامل للمؤرخ عز الدين بن الأثير ، وورد جانب منه في المجلدين الأول والثاني ، من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين^(٢) .

ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ : ١١٤٥ - ١٢٣٩)

وهو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد . ولد بالموصل ، توفي أبوه وهو صغير السن ، فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم ، وكان شداد جده لأمه^(٣) . وتلقى من التعليم والدراسة ما يؤهله لأن يتولى وظيفة من وظائف التدريس والقضاء . ففي الموصل ، حفظ القرآن الكريم في صغره ، ثم درس الحديث وشروحه ، والتفسير والفقه ، والقراءات والأدب ، على شيوخ المدرسه النظامية في بغداد ، وكان هؤلاء العلماء يجوبون العالم الإسلامي من قرطبة حتى سمرقند ، فينتقلون من مدرسة (جامعة) إلى مدرسة ، مثلما كان جارياً في أوروبا العصور الوسطى ، تسبقهم شهرتهم في علم من العلوم الدينية أو الدنيوية^(٤) .

وبعد أن أتم دراسته وأجاز له أساتذته جميع مروياتهم على اختلاف أنواعها ، نزل بالمدرسة النظامية ببغداد وترتبها معيداً منذ سنة ٥٦٦ (١١٧١) ،

وظال يعمل بها حتى سنة ٥٦٩ (١١٧٤) ، حين انتقل إلى الموصل ، فصار مدرساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب^(٥) . وذاع صيته ، واشتهر برجاحة العقل ، وسداد الحكم ، فعهد إليه أتابك الموصل ، بالسفارة في أمور سياسية بالغة الخطورة والأهمية . فحينما اشتدت الأزمات بين أمير الموصل عز الدين مسعود وبين صلاح الدين ، بعد وفاة الصالح بن نور الدين سنة ١١٨١ ، وأخذ المواصلة بؤلبون الصليبيين والحشيشية على صلاح الدين ، لم يسع صلاح الدين إلا أن يسير لمهاجمة الموصل سنة ١١٨٢ (٥٧٨) . والتمس لذلك من المبررات ما أوردها في رسالة وجهها إلى الخليفة الناصر ، تتضمن اتهام أمراء الموصل بالتحالف مع الصليبيين ، وانزال الظلم برعاياهم ، وبمآلة الأتابك السلجوقي في فارس ، والتماس الحلفاء لمهاجمة صلاح الدين .^(٦) فتوجه ابن شداد رسولا من قبل أمير الموصل ، عز الدين مسعود ، إلى بغداد ، يلتمس من الخليفة التوسط فيما نشب من نزاع بين أمير الموصل وصلاح الدين ، فأنفذ الخليفة من قبله مبعوثاً ، وهو شيخ الشيوخ ليتوسط بين الفريقين^(٧) .

ثم قام عز الدين مسعود أمير الموصل بمحاولة جديدة سنة ١١٨٤ (٥٧٩) ، لتسوية النزاع مع صلاح الدين ، فالتمس من الخليفة أن يتوسط في هذا الأمر ، فندب رسوله شيخ الشيوخ ، فتوجه إلى الموصل ، فصحبه من الموصل القاضي محيي الدين بن كمال الدين ، وابن شداد . وسار الجميع إلى دمشق ، غير أن المفاوضات فشلت ، لأن مسعود لم يقر رأى صلاح الدين ، في أن يجعل لأميرى أربل والجزيرة ، حرية الاختيار في الانحياز إلى صلاح الدين أو إلى مسعود^(٨) .

وعلى الرغم من فشل هذه السفارة ، فإنها كشفت عن بدء اهتمام صلاح الدين بابن شداد وتقديره له ، إذ عرض عليه أن يقوم بالتدريس بمصر ، فاعتذر حتى لا يعتبر مسئولاً عن فشل المفاوضات . ويشير ابن شداد إلى أن

ثبت في نفس صلاح الدين « في تلك الدفعة ، منى أمر . لم أعرفه إلا بعد خدمتي له ، » (٩) .

وعلى الرغم من استعداد صلاح الدين لمنازلة الصليبيين ، ومهاجمة أملاكم سنة ١١٨٤ ، فإن مشكلة الموصل لم تنزل تثير قلقه ، ولا سيما بعد أن استنجد أمير الموصل باتابك فارس وأتابك آذربيجان . فعزم على المضى لقتال الموصل سنة ١١٨٥ ، بعد أن كتب إلى الخليفة ببغداد ، ينبئه بعزمه ، وأنه إنما قصد أن يرد المواصلة إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام ، ومنعهم من ارتكاب الظلم .

على أن زنكي صاحب سنجار توسط بين صلاح الدين ومسعود صاحب الموصل . وكان من رسل مسعود إلى صلاح الدين ، بحران ، المؤرخ ابن شداد (١٠) . فتقرت قواعد الصلح سنة ١١٨٦ (٥٨١ هـ) ، وترتب على ذلك أن جرت الخطبة باسم السلطان في جميع بلاد الموصل ، وفي ديار بكر والبلاد الأرتقية ، وضربت السكة باسمه (١١) .

وتوجه ابن شداد سنة ٥٨٣ (١١٨٨) إلى مكة حاجاً ، وبعد أن أدى فريضة الحج ، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، عزم على أن يزور بيت المقدس وقبر الخليل عليه السلام ، بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس من أيدي الصليبيين . ثم دخل ابن شداد دمشق ، وكان صلاح الدين وقتذاك يحاصر قلعة كوكب (مارس سنة ١١٨٨) . ولما علم صلاح الدين بقدوم ابن شداد إلى دمشق ، استدعاه إليه ، فلما دخل عليه قابله بالأكرام التام ، وسأله عن مشايخ العلم ، وطلب إليه أن يقرأ عليه جزءاً جمع فيه أحاديث البخاري (١٢) .

ويشرح ابن شداد كيف دخل في خدمة صلاح الدين ، أن السلطان ظن أن ابن شداد إنما جاء من الموصل ليفاوضه في بعض الأمور ، فاستحضره واحتفل به . « ولما ودعته ذاهباً إلى القدس ، خرج لي بعض خواصه عماد الدين

الكتاب الأصفهاني ، وأبلغني تقدمه إلى ، بأن أعود أتمثل في خدمته عند العود من القدس ، فظننت أنه يوصيني بهم إلى الموصل ، ^(١٣) ، ثم ارتحل صلاح الدين من كوكب ، ونزل على تل قبالة حصن الأكراد (يولييه ١١٨٨ - ربيع الآخر سنة ٥٨٤) ، فقدم ابن شداد إليه يستأذنه في الرحيل إلى الموصل ، ففرح به صلاح الدين ، وأنس إليه . وقدم إليه ابن شداد كتاباً ألفه أثناء مقامه بدمشق ، عن الجهاد أحكامه وأدابه ، فأعجبه ، وكان يلزم مطالعته . وحرص صلاح الدين على أن يستدعي ابن شداد لحضور خدمته في كل وقت ، ، ولما ألح ابن شداد في طلب الإذن بالعودة إلى الموصل ، بعث إليه صلاح الدين الفقيه عيسى ، يخبره بأنه حريص على أن يبقى بخدمته . وأدرك ابن شداد أيضاً ، أنه تعلق بصلاح الدين منذ رأته وحببه للجهاد ، فأحببته لذلك وخدمته ، منذ مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٤ (يولييه ١١٨٨) ^(١٤) . ومنذئذ لم يفارق ابن شداد ، صلاح الدين ساعة من ليل أو نهار ، حتى حضر وفاته سنة ١١٩٣ م . وتولى لصلاح الدين قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ^(١٥) .

وتوجه ابن شداد ، عقب وفاة صلاح الدين ، إلى حلب لجمع كلة الإخوة أولاد صلاح الدين ، وتحليف بعضهم لبعض ، ولم يلبث أن تولى القضاء في حلب ، وكان صاحبها وقتذاك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين ^(١٦) . وبذل ابن شداد ماله من مكانة كبيرة عند الأيوبيين ، ومحاولات عديدة للتوفيق بين الأمراء الأيوبيين في الشام ومصر ، فصار ينتقل من أجل ذلك بين حلب والقاهرة في سنوات ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٩ هـ . وصارت له السكادة النافذة في حلب ، زمن السلطان الظاهر ، وابنه العزيز ، فلم يكن لأحد في الدولة معه كلام ^(١٧) . ولما بلغ العزيز سن الرشد استقل بالحكم ، فاستولى عليه جماعة من الشباب ، وظلوا يسيطرون على أمور البلاد ، فلم يسع بهاء الدين إلا أن يلزم داره ، غير أنه ظل محتفظاً بوظيفته ، ولا زال أقطاعه جارياً عليه . ودأب على أن يسمع الحديث لمن يقدم عليه من المرئيين ، بين صلاة المغرب وصلاة العشاء

من كل يوم . ونشطت في زمنه حركة الدراسة والعلم بفضل ما أنشأه من مدارس ، وبفضل مركزه الديني والسياسي في حلب . وتوفي ابن شداد سنة ٦٢٢ هـ بحلب^(١٩) .

وألف ابن شداد المصنفات الآتية :

(١) كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ونشره لأول مرة . A. Schultens . في ليدن . ١٧٣٢ ، ١٧٥٥ ، ثم جرى نشره في القاهرة سنة ١٣١٧ هـ ، وترجمه إلى الإنجليزية Conder ، في مجموعة جمعية دراسات حجاج فلسطين . بعنوان :

The Life of Saladin by Beha ad Din Compared with the Original Arabic and annotated with a preface by Ch. Wilson London, Palestine Pilgrims Text Society 1897.

(٢) سيرة الملك الظاهر ، منها القسم الثاني محفوظ بمكتبة Adrianopel ، وسليم ، رقم ١٥٠٧ ، جرت ترجمته إلى التركية ، وطبع باستانبول سنة ١٩٤١ .

(٣) تاريخ حلب - مخطوطة في (بتروغراد) Pet. AM. 203 .

(٤) دلائل الأحكام - باريس رقم ٧٣٦ - تكلم فيه عن الأحاديث المستنبط. فيها الأحكام^(٢٠)

(٥) ملجأ الحكام عند التباس الأحكام - الجزء الثالث . ص ٢٧٧ - ٢٧٨ (فهرس دار الكتب المصرية بالقاهرة) - يتعلق بالأقضية في مجلدين^(٢١)

(٦) دروس في الحديث ، ألقاها بالقاهرة حينما قدم إليها سنة ٦٢٩ (١٢٣١) رسولا ، وذلك لاحضار ابنة الملك الكامل ، التي تزوجها الملك العزيز في حلب ، ومنه مخطوطة بمكتبة بودليان في اكسفورد^(٢٢) .

(٧) كتاب العصا (المقصود موسى وفرعون)^(٢٣) .

(٨) فضائل الجهاد ، منه مخطوطة بمكتبة كوبريللي Kopr. 764^(٢٤)

وعلى الرغم من مشاركة ابن شداد ، فيما وقع من الأحداث ، ومصاحبة صلاح الدين وأولاده ، واتصاله بالعلماء والفقهاء ، وقيامه بالسفارات بين الأمراء ، وتوليه مناصب رئيسية في الدولة ، وكل ذلك يؤلف مادة تاريخية وفيرة ، فإنه لم يؤلف في التاريخ إلا كتابه المعروف بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو يعتبر ترجمة لصلاح الدين ، التزم فيه الأسلوب السهل والعبارة المحددة ، ولم يلجأ إلى التعقيد واسترسال على نحو ما ألف عماد الدين الاصفهاني (٢٥) .

اعتمد ابن شداد فيما أورده عن الأحداث السابقة على سنة ٨٤٤ ، (١١٨٨) ، وهي السنة التي التحق فيها بخدمة صلاح الدين ، على ما توافر لديه بعد هذا التاريخ من أخبار عن الفترة السابقة ، ولعله أفاد أيضا من بعض المؤلفات التاريخية . أما القسم الثاني ، الذي يعتبر أكثر أهمية وأعظم شأنًا من الناحية التاريخية ، فيتضمن مشاهدات المؤلف ومعاصريه الذين اتصل بهم عقب وقوع الحوادث . ويعتبر هذا الكتاب بالغ الأهمية ، أفادته ، ومن مؤلفات العماد الكاتب ، كل من كتب عن الأحداث التي وقعت زمن صلاح الدين (٢٦) .

وما يتعلق بأصالة وصدق كتاب ابن شداد في سيرة صلاح الدين ، فليس في وسعنا أن نضيف إلا قليلا ، إلى ما أورده من شهادة ابن بول Lane-Poole ، في تصديره لكتابه عن صلاح الدين (٢٧) ، إذ يشير إلى أن بهاء الدين (١١٤٥ - ١٢٣٤) ، تحرى في كتابه الإدراك السليم والأمانة ، ولا يجد في كتابه إلا قدرا تافها من التحيز الشخصي والمغالاة في المدح ، رأى ابن بول أنه لا بد من تبريرها (٢٨) .

المعروف أنه لم يجر اتصال مباشر بين بهاء الدين بن شداد وبين صلاح الدين إلا في سنة ١١٨٤ ، حينما قدم من قبل أمير الموصل ، مع الرسل الذين أنفذهم إلى صلاح الدين ، غير أنه لم يلتحق بخدمة صلاح الدين إلا سنة ١١٨٨ ، على أنه قاضي العسكر . ومنذئذ ، أى في أثناء فترة الحملة الصليبية الثالثة ، لم

يكتف ابن شداد بأن يعرض بجلا أميناً لما شهدته من الأحداث ، بل إنه بفضل مكانته ، باعتباره صديقاً أميناً وفيماً لصالح الدين ، ملازماً له في كل تحركاته حتى يوم وفاته ، أوقفنا على ما اشتهر به من بصيرة نافذة في إدراك الحوافز ، التي أثارت حماس لصالح الدين في كثير من القرارات الخطيرة^(٢٩) .
على أن ما أورده ابن شداد من أخبار عن الفترة الواقعة بين ١١٦٩ ، ١١٨٨ ، يعتبر فيها مصدراً ثانوياً ، ولم يكن بنجوة من الخطأ في تفاصيل الحقيقة والتاريخ^(٣٠) .

ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ = ١١٦٠ - ١٢٣٤) .

اشتهر بهذا الاسم ثلاثة أخوة ، من أبناء جزيرة ابن عمر ، ويعتبرون من أشهر علماء العرب ومؤرخيهم : أكبرهم مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد (١١٤٩ - ١٢١٠) . اشتهر بدراسة القرآن والحديث والنحو ، ودخل في خدمة أمراء الموصل . وأصدر هؤلاء الإخوة ، هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله (١١٦٣ - ١٢٣٩) ، واشتهر بمصنفاته في الأدب ، والتحق بخدمة صلاح الدين وأبنائه في حلب ودمشق ، وخدم أيضاً أمراء الموصل^(٣١) .
أما المؤرخ ابن الأثير ، فهو أوسط الإخوة الثلاثة ، وهو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد . ولد بجزيرة ابن عمر ، ثم انتقل إلى الموصل مع والده وأخويه ، فأقاموا بها . وتلقى العلم والدراسة بها ، وفي بغداد ، وبيت المقدس وحلب ، ودمشق . ثم لزم بيته في الموصل ، منقطعاً إلى التوفر على النظر في العلم والتصنيف . فكان إماماً في حفظ الحديث ، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم^(٣٢) .

توافر لابن الأثير المادة التاريخية ، التي أفاد منها في مصنفاته ، وذلك بفضل صلته الوثيقة بالإدارة في الموصل ، حيث احتفظ أفراد من البيت الزنكي بنفوذهم وسلطانهم حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي^(٣٣) ، وبفضل أسفاره العديدة في طلب العلم ، والاضطلاع بمهام سياسية رسمية

من قبل صاحب الموصل^(٣٤) . يضاف إلى ذلك ما كان لأخويه مجد الدين ، وضياء الدين ، من مكانة في الموصل ودمشق ، ودأبه على الدراسة والتحصيل ، فأضحى يتسهده مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها ،^(٣٥) .

وصنف ابن الأثير ، الكتب الآتية :

(١) كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة - طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٥ - ١٢٨٧ ، في خمسة أجزاء .

(٢) كتاب اللباب ، مختصر الأنساب للسمعاني ، وقد استدرج عليه فيه مواضع ، ونبه على أغلاط ، وزاد أشياء أهملها ،^(٣٦) .

(٣) الكامل في التاريخ - نشره Tornberg في ١٢ مجلدا في ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦ ، وجرى طبعه مرات عديدة بالقاهرة ، في بولاق وغيرها من المطابع .

(٤) تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل - طبع في باريس سنة ١٨٩٨ ، ومنه مختارات في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين المسلمين ، الجزء الثاني (سنة ١٨٦٩)^(٣٧) .

ودراسة ابن الأثير التاريخية تتمثل في الكتابين الأخيرين ، كتابه المعروف باسم تاريخ الدولة الأتابكية ، ويبدو أنه كان في الأصل تاريخا للموصل ، وتضمن كل ماورد في « الكامل » ، من مادة تاريخيه عن الأتابكية^(٣٨) . فاستهله سنة ٤٧٧ ، بولاية آق سنقر والد زنكي على الموصل ، ثم امتداد سلطان الزنكيين إلى حلب ودمشق ، ثم انحسار ملكهم حتى أضحي قاصرا على الموصل . وانتهى فيه إلى سنة ٦٠٧ (١٢١١) ، أي حين تولى الموصل ، القاهر مسعود الذي أهدى إليه الكتاب ، اعترافا بفضله أسلافه على أسرة ابن الأثير^(٣٩) . وجرت كتابة هذا التاريخ ، بعد سقوط الأسرة الأتابكية ، وترتب على ذلك أن انطلق المؤلف في كتابته ، دون أن يخشى

سلطة الأمراء والحكام^(٤١) . ومع ذلك ، فإن ابن الأثير اشتهر بالتشيع في كتابته للزنكيين ، والتحيز لهم ، ضد صلاح الدين . ومن الدليل على ذلك أنه حين أرخ لسنة ١١٧٤ وما بعدها ، وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ، وأخذ ملك الزنكيين في التداعي ، على حين أن نجم صلاح الدين أخذ في الصعود ، لم يشر إلى موقف صلاح الدين من الزنكيين بعد وفاة نور الدين . واعتمد ابن الأثير في مؤلفه على الثقة ، وفي مقدمتهم والده ، في الأحداث السابقة لسنة مولده ، وهي سنة ٥٥٥ هـ . أما السنوات التالية لهذا التاريخ ، فيعتبر ابن الأثير مصدرا أساسيا لحوادثها . والراجح أن تاريخ الدولة الأتابكية ، كان مصدرا لمؤلف أو مؤلفين عن تاريخ الموصل ، أحدهما صنف حوالى سنة ٦٣٥ ، والآخر حوالى ٥٧٥ ، ٥٦٥ هـ^(٤٢) .

أما كتاب السكامل في التاريخ ، فيشمل التاريخ العام للعالم الإسلامي ، ابتداء فيه بأول الزمان وانتهى عند آخر سنة ٦٢٨ هـ^(٤٣) . ويعتبر من أهم الكتب في التاريخ الإسلامي . وعلى الرغم مما يتخلله من بعض الفجوات والقصور ، فإنه لم يوجد من التواريخ السابقة له ، ما يضارعه في وفرة وثاقفه ، وما ألزمه من التوازن بين الأقاليم ، ومقارنة ما يقع بها من الأحداث في كل منها ، عاما بعام^(٤٤) . واعتمد في هذه الموازنة على المتخصصين في كل إقليم ، فأفاد من الهمداني وابن حمدون وابن الجوزي في تاريخ العراق ، ومن عماد الدين الكاتب والحسيني في تاريخ إيران ، وابن شداد الصنهاجي في تاريخ المغرب^(٤٥) . ومن المحقق أن ابن الأثير أفاد كثيرا من عماد الدين الكاتب ، وابن شداد ، فضلا عن ابن القلانسي^(٤٥) . وما افتقر إليه ابن الأثير من مادة تاريخية عن منتصف القرن الثاني عشر ، استكملها من الروايات المتناثرة ، ومن مصادر موجزة مثل كتاب ابن عساكر عن نور الدين^(٤٦) . واتفق ابن الأثير مع العظمي^(٤٧) ، في كثير من الأخبار والروايات الواردة ، في مختصره ، وفي مؤلفاته الكبيرة ، غير أنه ليس من المحقق أن إفادته من العظمي تفوق ما أفاده من المصادر الأخرى^(٤٨) . ومهما يكن من الأمر ، ما أورده ابن الأثير عن الشام والجزيرة ،

لم يكن كله مستمدا من ابن القلانسي والعظيمي (٤٨). فمن هذه المادة التاريخية، روايات عن الربع الأول من القرن الثاني عشر، شديدة التشابه مع ما أورده ابن أبي طي، على الرغم من أنه لم يكن، فيما يبدو، بين ابن الأثير وابن أبي طي، شيء من التعارف (٤٩). فبالإضافة إلى ما بينهما من اختلافات، كان ابن الأثير جاهلا بما جرى في هذا الزمن، وبمواضيع أخرى عديدة، فلا بد أنه اعتمد على مصدر آخر عن الجزيرة لا نعرف عنه شيئا (٥٠).

وتجالت مواهب ابن الأثير النادرة في كتابته، ويتمثل ذلك في عرضه للحقائق وجعلها متماسكة مقبولة، وحذف التفاصيل التي لا تدعو الحاجة إليها، وأمعن في فحص المصادر، واختار منها ما يناسب كل خبر من الأخبار أو نقطة من النقط، وألف من العناصر المختلفة خلاصتا، لكل ما جرى من أحداث في السنة. على أن هذه الوسيلة لم تخل من عيوب، إذ ظل ابن الأثير حريصا على الدفاع عن الزنكيين، فلم يذكر عنهم إلا كل الصفات الطيبة. ولم يشر إلى المصادر التي استقى منها المعلومات، واكتفى بالإشارة إلى عبارات « ثم ذكر أصحاب التواريخ »، « وحكى أن بعض الحكماء بالإنساب والتواريخ قال »، « وحكى لي والدي »، « وحدثني والدي عن بعض خواصه قال »، وكلها عبارات لا تفيد المؤرخ الحديث في قليل أو كثير، ولا تخدم البحث من جوانبه العديدة (٥١).

على أن رواية ابن الأثير عن صلاح الدين، زاخرة بالأخبار القيمة، برغم ما يمكنه ابن الأثير من كراهية لصلاح الدين، فصوره على أنه بطل سخر كل مواهبه العسكرية، لإشباع اطماعه العائلية ولإقامة امبراطورية، فكأنه في هذه الناحية لم يختلف عن نور الدين (٥٢).

ومن الدليل على تقدير ابن الأثير لصلاح الدين، وما يشوب هذا التقدير من الحقد، ما أشار إليه ابن الأثير، حينما أراد صلاح الدين الركوب، والمسلمون على حصار عكا (١١٨٩ - ١١٩١)، فعضده مقر الدين بن قلع أرسلان صاحب ملطية، وسوى ثيابه علاء الدين فر خشاه بن عز الدين

مسعود أمير الموصل ، بأن قال « ما تبالي يا ابن أيوب ، أي مودة تموت ، يركبك ملك سلجوقي ، ويسوى قماشك ابن أتاك زنكي ، » (٥٣).

واستمد ابن الأثير رواياته وأخباره عن صلاح الدين ، من بطانته ولا سيما عماد الدين الكاتب ، فضلا عن مشاهداته وخبراته الشخصية (٥٤).
واشترك ابن الأثير في الجهاد سنة ٥٧٤ (١١٨٨) مع عساكر الموصل ، ولم توجهه سياسة صلاح الدين مع المستأمنين من الصليبيين ، لأنها أدت إلى تجمعهم في صور ، واستعصى فتحها على المسلمين . ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين (٥٥).

وفيما يلي تحليل أخبار ابن الأثير في السنوات التي يتناولها المجلدان الباقيان من كتاب البرق الشامي ، ومحاولة توضيح العلاقة الوثيقة بين عماد الدين الأصفهاني وابن الأثير .

استهل ابن الأثير سنة ٧٥٣ (١١٧٧ م .) ، بخبر واقعة الرملة ، « ففى جمادى الأولى من هذه السنة ، سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر إلى ساحل الشام ، لقصده غزاة بلاد الفرنج ، وجمع معه عساكره وجنوده . فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان في الرابع والعشرين منه ، فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا في تلك الأعمال مغيرين . فلما رأوا أن الفرنج ، لم يظهر لهم عسكر ، ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين ، طمعوا وانبسطوا ، وساحوا في الأرض آمنين . ووصل صلاح الدين إلى الرملة ، عازما على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره ، فوصل إلى نهر ، فازدحم الناس للعبور ، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وأبطالها . وكان مع صلاح الدين بعض العسكر ، لأن أكثرهم تفرقوا في طاب الغنيمة ، فلما رآهم ، وقف لهم فيمن معه . وتقدم بين يديه محمد بن أخى صلاح الدين ، فباشر القتال بنفسه ، بين يدي عمه ، فقتل من أصحابه جماعة ، وكذلك من الفرنج . وكان لتقى الدين ولد اسمه أحمد ، وهو من سمن الشباب أول ما تكاملت لحيته ، فأمر أبوه بالحملة عليهم ، فحمل عليهم

وقاتلهم ، وعاد سالماء ، قد أثر فيهم أثر أكثرا ، فأمره بالعودة إليهم ثانية ، فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا . وكان أشد الناس قتالا ذلك اليوم ، الفقيه عيسى رحمه الله . وتمت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه ، حتى كاد يصل إليه ، فقتل الفرنجي بين يديه . وتكاثر الفرنج عليه ، فمضى منهزما يسير قليلا ، ويقف ليلاحقه العسكر ، إلى أن دخل الليل ، فسلك البرية إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة . وأما العسكر ، الذين كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة ، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير . وكان من جملة من أسر ، الفقيه عيسى الهكاري ، وهو من أعيان الأسدية ، وكان جمع العلم والدين والشجاعة . وأسرى أيضاً أخوه الظهير ، وكانا قد سارا منهزمين ، فضلا الطريق ، فأخذوا معهم جماعة من أصحابها وبقوا سنين في الأسر ، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار ، وإطلاق جماعة كثيرة من الأسرى (الفرنج) .^(٥٦)

وهن الدليل على أن هذا الخبر مستمد بأكمله من البرق الشامي ، ماورد في الرواية من التفاصيل ، مثل شجاعة ابن تقي الدين ، وأسرى الهكاري ثم افتدائه^(٥٧) .

وتلى ذلك خبر هجوم فيليب كونت فلاندر على حماه ؛ ويرجع سبب ذلك ، أنه وصل من البحر إلى الساحل الشامي ، كئند كبير من الفرنج ، من أكبر طواغيتهم . فرأى صلاح الدين قد عاد (إلى مصر) منهزما . فاغتم خلو البلاد ، لأن شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ، ينوب عن صلاح الدين ، وليس عنده كثير من العسكر . وكان أيضا كثير الانهماك في الملذات ، مايلأ إلى الراحة . فجمع ذلك الكئند الفرنجي ، من بالشام من الفرنج ، وفرق فيهم الأموال ، وسار إلى مدينة حماه .^(٥٨)

وفي هذا الموضع ، ما يدل على اعتماد ابن الأثير على البرق ، فترتيب العبارات عند ابن الأثير ، يسير تماما على الترتيب الوارد في البرق^(٥٩) :

يضاف إلى ذلك التطابق الذي يكاد يكون تاما بين المصدرين في تركيب الحوادث^(٦١). ومن الدليل على أن هذا التطابق، ليس راجعا إلى أن كلا مهما اقتبس رسالة رسمية، ما أورده ابن الأثير من وصف سلوك توران شاه، أخى صلاح الدين، الذي لاشك أنه ليس له صلة بخبر رسمي. غير أن ابن الأثير أضاف شيئا إلى مصدره، وهو أن هجوم فيليب كونت فلا ندر، على حماه، قرنه بهزيمة صلاح الدين في الرملة. ولعل ذلك يرجع إما إلى الغفلة، فلم يدرك ابن الأثير حقيقة ماورد في البرق، من أن الهجوم على حماه، تلى خبر وقعه الرملة، وإما إلى تعمد تزوير محكم، يدل على ذلك إغفال ذكر تاريخ الحادثين. إذ يذكر «البرق» صراحة تاريخ الهجوم على حماه، فجعله في ٢٠ جمادى الأولى (١٤ نوفمبر سنة ١١٧٧)، وجعل وقعة الرملة في أول جمادى الآخرة (٢٥ نوفمبر)، على حين أن ابن الأثير جعل الحادثين في جمادى الأولى، ولم يثبت تاريخا دقيقا للحادث الأول^(٦٢).

وما أورده ابن الأثير في الرواية التالية، عن الأحداث في حلب، جرى أيضا وفقا للترتيب الوارد في كتاب البرق الثمامي^(٦٣). أشار ابن الأثير في عبارات عامة، إلى ما نزل بكشتكين من التنكيل في حارم «فسير سعد الدين (كشتكين) إليها (قلعة حارم)، تحت الاستظهار، ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح، فأمرهم بذلك، فامتنعوا، فعذب كشتكين، وأصحابه يروونه ولا يرحمونه، فمات في العذاب»^(٦٤). على حين أنه أورد هذه الرواية، بما اشتهر به من الدقة في تاريخ الاتابكة «فسار الملك الصالح إليها (حارم) من حلب، ومعه سعد الدين (كشتكين) فحصر القلعة وعاقب سعد الدين، ليأمر من بها بالتسليم، فلم يجب إلى ما طلب، فعلق منكوسا، ودخن تحت أنفه فمات، وعاد الملك الصالح من حارم ولم يملكها»^(٦٥).

ومن الملحوظ أن ابن الأثير أنهى هذا الخبر، بقوله «فلما رأى الفرنج ذلك، ساروا إلى حارم، من حماه، في جمادى الأولى من هذه السنة على ما نذكره»^(٦٥). والواقع أن ابن الأثير أورد هذه الإشارة في الصفحة السابقة

عند الإشارة إلى هجوم الفرنج على حماة (٦٦) ، أما العماد فأشار إلى هذا الحادث ، في موضع متاخر (٦٧) .

أما الحادث الآخر المرتبط بالشام ، والذي أورده ابن الأثير في هذه السنة ، فليس إلا رواية غير متصلة ، لغارة فاشلة ، قام بها جماعة غير معروفة من الفرنج ، على أعمال حمص ، « غير أن ناصر الدين محمد بن شيركوه ، صاحب حمص ، خرج إليهم ، هو والكمين ، ووضعوا السيف فيهم ، فقتل أكثرهم ، وأسر جماعة من مقدميهم » (٦٨) . وهذه الفقرة مستمدة بأكملها من رسالة إلى بغداد ، ورد منها عبارات في البرق (٦٩) . وهذا الحادث اثبتته بوليم الصوري في تاريخه (٧٠) .

وما وقع في الشام سنة ٥٧٤ ، من الأحداث التي أوردها ابن الأثير ، مثل هجوم الفرنج على حماه ، وعصيان ابن المقدم ، وحصار صلاح الدين بعلبك ، وغارات الفرنج المتفرقة ، كل ذلك ورد في البرق الشامي . على أنه يصح أن نتساءل ، ألا يجوز أيضا أن كلا من ابن الأثير وعماد الدين ، استمد معلوماتهم من رسائل رسمية ، إذ أن ما استخدمه ابن الأثير من العبارات «السائرة» ، لا تنهض دليلا على أنه اعتمد مباشرة على عماد الدين (٧١) .

من المحقق أن رواية وقعة مرج عيون ، الواردة عند ابن الأثير ، في سنة ٥٧٥ (٩ يونيو سنة ١١٧٩) ، استندت إلى رواية العماد . فما أشار إليه من أن بيرزان (باليان) صاحب الرملة ونابلس ، فدا نفسه ، بمائة ألف دينار سورية ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، (٧٢) إنما ورد بالتفصيل في البرق (٧٣) . وما بذله ابن الأثير من اهتمام خاص بأعمال فروخشاه ، أخى صلاح الدين ، يعكس أيضا اهتمام عماد الدين الاصفهاني والإشادة به ، بل أنه نقل عنه ما أورده من الشعر الذي كان فروخشاه يتمثل به (٧٤) .

والخبر التالي عن تدمير حصن الداوية في جسر يعقوب ، يصح أن يكون مستمدا من رسالة رسمية ، غير أن ما حدث من التزام ابن الأثير لرواية

البرق ، يجعل من العسير أن نفترض له مصدرا آخر سواه ، ولا سيما ما جاء بالتفصيل عن توسل الأمير جاولى عند صلاح الدين ، وإلحاحه عليه ، بأن يمشى إلى القوم بمن معه ، نجرهم بالزحف ، أول مرة ، ونذوق قتال من به ، وننظر الحال معهم . فإن استضعفناهم ، وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت ،^(٧٥) . وهذا ما ورد في البرق^(٧٦) ، ولم يذكره أبو شامة في مقتطفاته عن العماد^(٧٧) . وما أشار إليه ابن الأثير في خاتمة الخبر ، من القوائد التي أشاد فيها الشعر بهذا الانتصار ، لاشك أنها مستمدة من القوائد الواردة في البرق ، ولا سيما من القصيدتين الأوليين^(٧٨) .

والخبر الذي يلي ذلك مباشرة ، عند ابن الأثير عبارة عن وقعة نشبت بين تقي الدين عمر ، والسلطان السلجوقي قلعج أرسلان ، صاحب بلاد قونية وأقصر . بسبب ما قام به قلعج أرسلان من حصر حصن رعبان ، الذي سبق أن أخذه نور الدين من قلعج أرسلان^(٧٩) . ومن الواضح أن هذه الرواية مستمدة من البرق الشامى ، إذ أن العماد الاصفهاني ، استهل خبره بالإشارة إلى أن تقي الدين لم يشهد تخريب حصن الاعزان ، نظرا لانصرافه إلى قتال السلطان السلجوقي . وهذه الملاحظة أوردها ابن الأثير في ختام الخبر . على أن ما هو أدل من ذلك في اعتماد ابن الأثير على العماد الاصفهاني ، ما أورده ابن الأثير ، من عدد الجيش السلجوقي وقدره ، عشرون ألف ، وهذا الرقم يطابق ما ذكره العماد الاصفهاني^(٨٠) .

وفي المتنوعات ، التي درج ابن الأثير على أن يختتم بها أحداث السنة ، ، أورد في أحداث سنة ٥٧٥ ، عبارة تشير إلى أنه حدث في ذى القعدة (ابريل سنة ١١٨٠) ، « أن نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين ، عن بعلبك ، وطلب عوضا عنها الإسكندرية ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه ، ابن أخيه ، فسار إليها ، وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل إلى قلعه صغد ، وهي مطلة على طبرية ، فسبي وأسر ، وغنم وخرَّب ، وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة ،^(٨١) .

والواقع أن ابن الأثير أدمج خبرين في خبر واحد، على الرغم من أن الخبر الأول يسبق، من الناحية الزمنية، الخبر الثاني، بنحو سنة. فالمعروف أن تورانشاه غادر الشام إلى مصر، في نهاية ذي القعدة سنة ٥٧٤ (مايو ١١٧٩). ومن ضعف من الأجناد، ووصل معه خلق كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال،^(٨٢) وولى فروخشاه بعلبك سنة ٥٧٥، وحدثت إغاراته على صفد، في ذي القعدة من تلك السنة، وحدد العماد تاريخها، بأنها وقعت في ١٨ ذي القعدة سنة ٥٧٥ (١٥ أبريل ١١٨٠)^(٨٣).

والخلاصة أن ما من حقيقة في تاريخ الشام، أثناء السنوات ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، وردت في تاريخ ابن الأثير، إلا طبقت ما جاء، في هذه الفترة، بكتاب البرق الشامي، فيما عدا الرواية المضطربة، المتعلقة بالهجوم على حماه من قبل الفرنج، في جمادى الأولى سنة ٥٧٣ (نوفمبر سنة ١١٧٧)^(٨٤)، وفيما عدا إشارة صغيرة إلى أن ابن الأثير رأى كتابا، كتبه صلاح الدين، بخط يده، إلى أخيه شمس الدين تورانشاه، وهو بدمشق يذكر فيه وقعة الرملة،^(٨٥).

ومن الملحوظة أن ابن الأثير، درج على أن يصيغ بأسلوبه الخاص، ما تضمنته هذه الروايات من أخبار، على الرغم من مطابقتها لما ورد في البرق الشامي، وبذلك لا يصح أن نجزم أن ابن الأثير، نقل عن العماد أخباره دون تحفظ^(٨٦).

واستهل المجلد الخامس من كتاب البرق الشامي، بما حدث سنة ٥٧٨ (١١٨٢)، من مسير صلاح الدين إلى بلاد الجزيرة. ويشير العماد الكاتب إلى أن صلاح الدين لم يقصد من المسير شمالا إلا مهاجمة حلب^(٨٧)، وإلى أن ما وقع من تغيير غير متوقع في خططه، على يد ممثلي كوكبوري، صاحب حران، لم يحدث إلا بعد مضيه ووصوله^(٨٨).

على أن ابن الأثير، من جهة أخرى، يصرح، أن كوكبوري، وهو مقطع حران، كان أقطعه أياها، عز الدين أتابك (الموصل)، المدينة والقلعة

تقوية واعتمادا ، أرسل إلى صلاح الدين ، وهو يحاصر بيروت ، يعلمه أنه معه ، بحب لدولته ، ووعدته النصر له ، إذا عبر الفرات ، ويطعمه في البلاد ، ويحثه على الوصول . فسار صلاح الدين عن بيروت ، ورسل مظفر الدين كوكبوري ، تترى إليه ، تحثه على المجيء . فجد صلاح الدين في السير ، مظهرا أنه يريد حصر حلب ، تسترا للحال ،^(٨٩) . وليس ثمة سببا واضحا ، لما حدث من إحلال هذه العبارة ، موضع رواية العباد الأصفهاني . التي تشير صراحة إلى عزم صلاح الدين ، على السير إلى حلب . ولعل السرفى ذلك ، يرجع إلى أن هذه كانت الرواية السائدة وقتذاك في الموصل^(٩٠) .

وما وقع من الحروب في الجزيرة ، جرى وصفها ، عند ابن الأثير والعباد . على نحو يكاد يكون واحدا . يذكر ابن الأثير ، أنه لما قارب (صلاح الدين) الفرات ، سار إليه مظفر الدين كوكبوري ، فعبر الفرات ، واجتمع به . فقصد البيرة ، وهي قلعة منيعة على الفرات ، من الجانب الجزرى ، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين ، وفي طاعته . فعبره ووسعره ، الفرات على الجسر ، الذى عند البيرة . وكان عز الدين ، صاحب الموصل ، ومجاهد الدين ، لما بلغهما وصول صلاح الدين ، إلى الشام ، قد جمعا العسكر ، وسارا إلى نصيبين ، ليكونا على أهبة واجتماع ، لتلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب . ثم تقدما إلى دارا ، فنزلا عندها ، فجاءهما أمر لم يكن فى الحساب . فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات ، عادا إلى الموصل ، وأرسلا إلى الرها عسكرا يحميها ويمنعها . ولما سمع صلاح الدين ذلك ، قوى طمعه فى البلاد ، فكاتب (بعد عبور الفرات) الملوك أصحاب الأطراف ، ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته . فأجابته نور الدين محمد بن قرا أرسلان ، صاحب الحصن (كيفا) ، إلى ما طلب منه لقاءة استقرت بينهما ، لما كان نور الدين عنده بالشام . فإنه استقر الحال ، أن صلاح الدين ، يحصر آمد ويملكها ويسلمها إليه . وسار صلاح الدين إلى مدينة الرها ، فحصرها فى جمادى الأولى ، وقاتلها أشد قتال ، ووالى الزحف

عليها ، وكان بها حينئذ مقطوع ، وهو الأمير نحر الدين مسعود الزعفراني ،
 فحيث رأى شدة القتال ، أذعن إلى التسليم ، وطلب الأمان ،
 وسلم البلد ، وصار في خدمة صلاح الدين . فلما ملك المدينة ، زحف إلى
 القلعة ، فسلمها إليه الدزردار الذي بها على مال أخذه ، فلما ملكها سلمها إلى مظفر
 الدين مع حران ، ثم سار عنها على حران إلى الرقة . فلما وصل إليها ، كان
 بها مقطوعا قطب الدين ينال بن حسان المنبجي فسار عنها إلى عز الدين أتابك
 وملكها صلاح الدين . وسار إلى الخابور قرقيسيا وماكسين وعرابان ، فملك
 جميع ذلك . فلما استولى على الخابور جميعه ، سار إلى نصيبين ، فملك المدينة
 لوقتها ، وبقيت القلعة ، فحصرها عدة أيام فملكها أيضاً ، وأقام بها ليصلح شأنها .
 ثم أقطعها أميراً كان معه ، يقال له أبو الهيثماء السمين ، وسار عنها ومعه نور الدين
 صاحب الحصن . وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق ، ونهبوا القرى ،
 ووصلوا إلى داريا ، وأرادوا تخريب جامعها . فأرسل التايب بدمشق إليهم
 جماعة من النصارى ، يقول لهم إن أخرجتم الجامع جددنا عمارته ، وأخرجنا
 كل بيعة لكم ، ولا نمسك أحداً من عمارتها ، فتركوه . ولما وصل الخبر إلى
 صلاح الدين بذلك ، أشار عليه من يتعصب لعز الدين (أتابك الموصل)
 بالعود ، فقال تخربون قرى ، ونملك عوضها بلاداً ، ونعود فنعمرها ،
 ونقوى على قصد بلادهم ، ولم يرجع . (٩١)

ولم يزد ابن الأثير في هذه الرواية ، على العماد في البرق الشامى ، إلا بما
 أورده من تفاصيل خبر حصار صلاح الدين الرها (٩٢) . على أن أباشامة
 أوجز رواية العماد عن حصار الرها في سطر واحد : « ونزل السلطان على
 الرها ، وكان فيها نحر الدين مسعود بن الزعفراني فأذعن وانقاد ، وتسلمها
 مظفر الدين (كوكبورى) مضافة إلى حران ، (٩٣) . غير أن أباشامة لم يشر
 إلى ما ورد في البرق الشامى (ورقة ١٢٠) ، عن حصار الرها . (٩٤) وبذا
 نلاحظ فيما نقله أبو شامة عن العماد من فقرات ، أن ما يعتبر زيادات

وإضافات في السكامل لابن الأثير ، ليست في الواقع إلا أجزاء من النص الأصلي الوارد في البرق الشامى .^(٩٥) .

ويعتبر ابن الأثير مصدراً أصيلاً عن كل ما أورده عن الموصل ، لأنها موطنه ، ولأنه شارك في أحداثها ، واتصل بالمستولين فيها . غير أن روايته التي أوردها عن حصار صلاح الدين إياها ، سنة ٥٧٨ ،^(٩٦) لا بد من الحذر في الأخذ بها ، إذ غلبت عليه النعرة للوطن ، بما أورده من حكايات وقصص خيالية تافهة ، لا ترتبط كثيراً بالموقف ، ويختلف في هذه الناحية مع مواطنه بهاء الدين بن شداد ، الذي استطاع في براعة ، أن يعرض الموقف في سطور قليلة . ثم أقام السلطان على الموصل أياماً ، وعلم أنه بلد عظيم ، لا يتحصل منه شيء بالمحصرة على هذا الوجه ، ورأى أن طريق أخذه ، وأخذ قلاعها ، وما حوله من البلاد وإضعافه ، يطول الزمان ، فرحل عنه ، ونزل على سنجار ،^(٩٧) .

ومع ذلك فإن ابن الأثير اتفق مع العماد ،^(٩٨) في خبر المفاوضات التي دارت بين أمير الموصل وصلاح الدين ، حيث أشار إلى « أن صدر الدين شيخ الشيوخ ، قد وصل إليه (صلاح الدين) ، قبل نزوله على الموصل ، ومعه بشير الخادم ، وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله ، في الصلح ؛ فأقاما معه على الموصل . وترددت الرسل إلى عز الدين ومجاهد الدين في الصلح . فطلب عز الدين . لإعادة البلاد التي أخذت منهم . فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب . فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك ، وأجاب إلى تسليم البلاد ، بشرط أن يتركوا مساعدة صاحب حلب عليه ، فلم يجيبوا إلى ذلك أيضاً . وقال عز الدين : هو أخى وله العمود والمواثيق ولا يسعنى أنكسها . »^(٩٩) والمعروف أن العماد كان يمثل صلاح الدين في هذه المفاوضات^(١٠٠) .

والرواية التي تلى ذلك في ابن الأثير^(١٠١) ، عن حروب صلاح الدين في الجزيرة ، لم تزد على ما أورده العماد^(١٠٢) ، غير أن ابن الأثير في روايته عن

حصار كل مدينة أورد تفاصيل ونوادير وذكريات عامة ليس لها من الناحية التاريخية إلا أهمية ضئيلة، أو ليس لها أهمية مطلقاً. (١٠٣) وأسرف ابن الأثير في التزام النهج العاطفي، ولجأ إليه العباد من حين إلى آخر، فكان يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً أخرى (١٠٤).

وما جرى في هذه السنة أيضاً من أعمال حربية في البحر الأحمر، بسبب نشاط ريجنالد شاتيون ذاع خبرها في العالم الإسلامي، بما أرسل من الكتب إلى أنحاء البلاد، بتفاصيل هذا النشاط البحري. على أن رواية ابن الأثير ورواية عماد الدين الأصفهاني، حوت من العبارات والتفاصيل، ما ورد في الرسالة التي تقرر انفاذها باسم صلاح الدين إلى بغداد. وكان للفرنج مقصدان، أحدهما قلعة أيلة، التي هي على فوهة بحر الحجاز ومدخله، والآخر الخوض في هذا البحر، الذي تجاوره بلادهم من ساحله. وانقسموا فريقين، وسلكوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة، فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء، الذي به قوام الحياة، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب بالشباه. وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فقد قدر أن يمنع طريق الحاج عن حجه، ويحول بينه وبين فجه، ويأخذ تجار اليمن وأكرام عدن ويُلِم بسواحل الحجاز، (١٠٥).

وما حدث في هذه السنة أيضاً من وفاة فروخشاه، أخى صلاح الدين وإحلال ابن المقدم مكانه في ولاية الشام (١٠٦)، أسهب العباد في وصفهما (١٠٧).

أما خبر الاستيلاء على تل خالد وعين تاب، الذي أورده ابن الأثير، فيما يلي: لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد، سار إلى الشام، وقصد تل خالد، وهو من أعمال حلب، فحضرها وربما بالمنجنيق، فبزل أهلها وطلبوا الأمان، فأمنهم، وتسلمها في المحرم أيضاً (سنة ٥٧٩). ثم سار منها إلى عين تاب فحضرها، ونها ناصر الدين محمد، وهو أخو الشيخ إسماعيل، الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه، وكان قد سلمها إليه نور الدين فبقيت معه إلى الآن. فلما نازله صلاح الدين، أرسل إليه يطلب

أن يقر الحصن بيده ، وينزل إلى خدمته ، ويكون تحت حكمه وطاعته ، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف له عليه ، فنزل إليه ، وصار في خدمته ، وكان أيضاً في المحرم من هذه السنة (١١٠٨) . والتزم ابن الأثير في هذا الخبر خطوط كتاب البرق الشامي ، ورسالة القاضي الفاضل ، الواردة في البرق الشامي (١١٠٩) .

والخبر الذي أثبتته ابن الأثير ، عقب الخبر السابق مباشرة ، يشير إلى ما حدث في المحرم من هذه السنة ٥٧٩ أيضاً ، من أن الأسطول الإسلامي التقى في البحر ، عند مسيره من مصر ، بسفينة كبيرة من سفن الصليبيين بها نحو ثلثمائة من الفرنج ، بال سلاح التام ، ومعهم الأموال والسلاح ، إلى فرنج الساحل ، فقاتلوه . وصبر الفريقان ، وكان الظفر للمسلمين ، وأخذوا الفرنج أسرى ، فقتلوا بعضهم ، وأبقوا بعضهم أسرى ، وغنموا مامعهم ، وعادوا إلى مصر سالمين . وما أورده ابن الأثير أيضاً في هذا الموضوع من خبر غارة قام بها عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم على نواحي مصر ، وما حل بهم من هزيمة ساحقة على يد المسلمين ، (١١١٠) ، كل ذلك مستمد من الرسائل التي امتشهد بها العماد في كتاب البرق (١١١١) . إذ كتب الفاضل عن السلطان إلى بغداد في هذا الأمر : «أدام الله أيام الديوان العزيز ، ولا زالت منازل مملكته منازل التقديس والتطهير ، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجبا للتقديم والتصدير ، والامة مجموعة الشمل بأمامته جمع السلامة ، لا جمع التاكسير . الخادم ينهى أن الذي يفتتحه من البلاد ويتسلمه ، إما بسكون التعمد أو بحركة ما في الأغمد ، إنما بعده طريقا إلى الاستنفار ، إلى بلاد الكفار ، ويحسبه جناحا يمكنه به المطار ، إلى ما يلابسه الكفار من الاقطار . وعلى هذه المقدمة ، فهو يستفتح بذكر ظفرين الإسلام ، برى وبحرى ، شامى ومصرى ، أحدهما وهو البحرى ، عود أحد الأسطولين اللذين أغزاهما أخو الخادم ابو بكر (العادل) بمصر ، وكانت مدة غيبته ، من حين خروجه إلى وقت عوده ، إلى دمياط ، تسعة أيام .

فظفر بيطشة ، مقاعة من الشام فيها ثلثمائة وخمسة وسبعون علجا ، منهم خياله ، ذو شكة وازعة ، وتجار أولو ثروة واسعة . والثاني ، وهو البرى ، نهوض فرنج الداروم ، إلى أطراف بعيدة ، فنذر بهم وإلى الشرقية . فركب إليهم الليل فرسا ، كما ركبه جملًا . فتوفي الفريقان إلى ما يعرف بالعسيلة ، سبق الفرنج إلى مورده ، والسابق إلى الماء ، محاضر للسبوق . ووردوا أرزقه ، فتعصب لأرزقهم ، فيظن المؤمن ، أن الكافر مرزوق . واشتد بالمسلمين العطش ، ثم تابوا إلى الفرنج بقوة انجاد السماء بالماء ، فلم ينج من الفرنج إلا رجلان ، أحدهما الدليل ، والثاني الدليل ،^(١١٢) .

ولم يتضمن خبر الاستيلاء على حلب الوارد عند ابن الأثير ، سوى الحقائق المجردة ، والتعنى على أميرها عماد الدين زنكى بن هودود بن زنكى ما اشتهر به من الشح بالمال ، ويشير إلى أنه حضر يوما عنده بعض أجناده وطلبوا منه شيئاً ، فاعتذر بقله المال عنده . فقال له بعضهم ، « من يريد يحفظ مثل حلب ، يخرج الأموال ، ولو باع حلى نسائه^(١١٣) » . ومال عماد الدين عندئذ إلى تسليم حلب ، وأخذ العوض عنها ، سنجار ، ونصيدين ، والخابور ، والرقه ، وسروج ، ووافق صلاح الدين على ذلك . ويشير ابن الأثير ، ووجرت اليمن على ذلك ، وباعها بأوكس الأثمان ، أعطى حصناً مثل حلب ، وأخذ عوضها قرى ومزارع ،^(١١٤) . على أن الرواية التالية عن التنبؤ بالاستيلاء على بيت المقدس ، إنما استمدها ابن الأثير مباشرة من البرق^(١١٥) .

ثم اقتبس ابن الأثير ، عبارتين من رسالة وجهها القاضى الفاضل إلى العادل ، نائب صلاح الدين فى مصر . ومما كتبه القاضى الفاضل فى المعنى عن صلاح الدين ، « فاعطيناه عن حلب كذا وكذا ، وهو صرف على الحقيقة أعطيناها الدرهم ، ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم » . وكتب أيضاً ، « أعطيناها ما لم يخرج عن اليد ، يعنى أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته ،^(١١٦) .

على أن ابن الأثير لم يقتبس من الرسالة إلا العبارات التي يخدم بها غرضه ، واستبعد منها ما لم يتفق مع قصده . والمعروف أن ابن الأثير من المتشيعين لبیت زنديكى في الموصل ، فأراد أن يصور صلاح الدين ، أنه اصطنع من الوسائل ما يمكنه من هذه البلاد ، غير أن نص الرسالة يكشف عن الحقيقة ، ويبين ما يرمى إليه صلاح الدين من أغراض . -

ومن كتب فاضلية ، تسلمنا حلب وقلعتها بسلام ، وضعت به الحرب أوزارها ، وبلغت به الهمم أوطارها . وعرض صاحبها بما لم يخرج عن اليد ، لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعسكره ، ومخاطب بالجملة ، فهو أحد الأولياء في مغيبه ومحضره . وعوض عماد الدين عنها ، من بلاد الجزيرة ، سنجار ونصيبين والخابور ، والرقه ، وسروج ، فهو صرف بالحقيقة ، أخذنا فيه الدينار ، وأعطينا الدراهم ، ونزلنا عن المنيحات وأحرزنا العواصم . وسرنا أنها انجحت ، والسكافر المحارب ، والمسلم هو المسلم . واشترطنا على عماد الدين الخدمة والمظاهرة ، والحضور في مواقف الغزو والمصاهرة . فانتظم الشمل ، الذي كان تشريرا ، وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا ، وزال الشغب ، وأخذ اللهب ، واتصل السبب ، وأخذت للغزاة الأهب ، ووصلت إلى غاية همة الطلب ، والآلفة واقفة ، والمصلحة جامعة ، وأشعة أنوار الاتفاق شائعة ، (١١٧) .

واعتمد ابن الأثير أيضاً في روايته عن وفاة تاج الملوك بودى ، أخى صلاح الدين ، ما أصابه من طعنه في ركبته ، على ما أورده عماد الدين الاصفهاني في كتاب البرق . غير أن ابن الأثير صاغها في صورة أشد أثرا وأكثر عاطفية مما ورد في كتاب البرق : قال صلاح الدين لأخيه ، « هذه حلب ، قد أخذناها ، وهي لك ، فقال ذلك لو كان ، وأنا حي ، ووالله لقد أخذتها غالية ، حيث ، تفقد مثلي ، ^{١١٨} .

وما تلى ذلك من انتقال حارم إلى صلاح الدين ، جرت روايته على نفس النسق الوارد في البرق ، حيث ظهر ذلك من الاقتباسات المستمدة من الرسائل ^{١١٩} .

والرواية التالية تعتبر اختبارا لصدق ابن الأثير (١٢٠) ، فبعد أن روى ابن الأثير ما حدث ، من أن جماعة من الأمراء الذين ينتمون إلى أتاك الموصل ، أعلنوا ولاهم وخضوعهم إلى صلاح الدين ، أشار بايجاز إلى ما حدث بعدئذ من المفاوضات في دمشق ، بين رسل الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وأتاك الموصل ، وبين صلاح الدين . على حين أن العماد عالجها بأسهاب في البرق (١٢١) ، نظرا لأن العماد الكاتب ، كان له دور كبير في هذه المفاوضات . على أنه من الملاحظ أن بهاء الدين بن شداد كان من أعضاء وفد الموصل ، فمراواه عن هذه الحقيقة تؤكد ، برغم الإيجاز ، صدق خبر العماد ، وكنت مع القوم ، حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان (صلاح الدين) إلى لقاء شيخ الشيوخ ، ونحن في خدمته . فلقبه عن بعد ، وكان دخولنا إلى دمشق ، يوم السبت حادى عشر ذى القعدة (٥٧٩ هـ) ، ولقينا من السلطان كل جميل ، فيما يرجع إلى الاكرام والاحترام . وأقننا أياما ، تراجع في فصل حال ، فلم يتفق صلح في الوقعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل . وكان السلطان اشترط أن يكون صاحبا أربل والجزيرة ، على خيرتهما في الاتيأ إليه أو إلى الموصل . فقال محى الدين (ممثل الموصل) ، لا بد من ذكرهما في النسخة فوقف الحال، (١٢٢) أما ابن الأثير فإنه حرص على أن يجعل صلاح الدين مسئولاً عن فشل الاتفاق مع الموصل ، بأن أظهره على أنه متعنت ، صلب ، شديد الكراهية للوفاق ، إذ يروى ابن الأثير : أن الخليفة الناصر لدين الله ، قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ ، ومعه بشير الخادم الخاص إلى صلاح الدين . فى الصلح . مع عز الدين صاحب الموصل . وسير عز الدين معه القاضى محى الدين ابا حامد بن الشهرزورى ، فى المعنى . فأجاب صلاح الدين إلى ذلك ، وقال ليس لكم مع الجزيرة واربل حديث ، فامتنع محى الدين عن ذلك . وقال هما لنا . فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا بأن تكون أربل والجزيرة معه ، فلم يتم أمره ، وقوى طمع صلاح الدين فى الموصل . بقبض مجاهد الدين (١٢٣) .

واختتمت السنة (٥٧٩ هـ) بالإشارة الى الحملة على بيسان ، لمحاولة استدراج الفرنج للقتال ، والى الحصار الذى جرى فرضه على الكرك . وصف العماد الحادث الاول فى رسالتين ضافيتين ، على حين أن رواية ابن الأثير عنه كانت موجزة . أما الحادث الثانى ، فوصفه العماد فى اسهاب ، انما أورد فى ثنايا هذا الخبر ، ما حدث من تعيين العادل أخى صلاح الدين واليا على حلب ، وبذل بعض جهات مصر لتقى الدين عمر ، مع ايراد تقليديهما . وما ورد بالتفصيل فى رواية ابن الأثير^(١٢٥) ، عن هذا الحصار ، وتبرير الفشل بقلة أدوات الحصار ، يدل بوضوح على أن هذا الخبر استمده ابن الأثير مباشرة من البرق ، على الرغم من أن أبا شامه أغفله^(١٢٦) .

ويكنى هذا التحليل للدلالة على :

أولا - أن البرق الشامى ، هو المصدر الأساسى الذى استمد منه ابن الأثير أخباره عن نشاط صلاح الدين ، على الرغم من أن هذه الروايات لم تزد على أنها ليست إلا شروحا لأجزاء البرق الأصلية .

ثانيا - وإذا أورد ابن الأثير من التفاصيل ، ما لم يرد فى مختصر البرق فى كتاب الروضتين ، فإن هذه التفاصيل واردة فعلا فى كتاب البرق ذاته .

ثالثاً - عمد ابن الأثير ، فى بعض الأحوال ، إلى تغيير عبارات متعددة ، كما يتغير المعنى ، وذلك لما يكمنه من الكراهية لصلاح الدين .^(١٢٧) إذ أن ابن الأثير فى حالات كثيرة ، لم يقتصر على اختصار أخبار العماد الكاتب وتلخيصها ، بل أمعن فى إعادة ترتيبها ، إذا اقتضى الموقف منه ذلك . وثمة مثلان واضحا عن ذلك ، نستمدهما من الخبرين عن حصار صلاح الدين للموصل سنة ١١٨٥ ، وحصار بيروت سنة ١١٨٧ . فوفقاً لرواية ابن الأثير ، أرسل عز الدين ، أتاك الموصل ، سيدات من الأسرة الزنكية ، يشفعن عند صلاح الدين ، حينما اقترب من الموصل فى يونية سنة ١١٨٥ .

(٥٨١) ، غير أنه رفض شفاعتهن ، ومضى لحصار المدينة (١٢٨) . أما العماد الكاتب فإنه جعل هذا الخبر ، عند إنهاء النزاع مع الموصل (١٢٩) . والمعروف أن كلا المؤرخين ، ابن الأثير والعماد ، كانا بالموصل عند وقوع تلك الأحداث . ولا جدال في أن رواية العماد تعتبر أكثر ملاءمة وأحسن قبولاً ، وأشد اتساقاً مع الظروف والأحوال ، على حين أن ابن الأثير ، إنما صاغ الخبر في صورة تسمى إلى صلاح الدين ، وكان لزاماً عليه أن يلتمس ما يبرر سلوك عز الدين صاحب الموصل ، « بأنه لم يبعث بهن لقصور الدفاع عن الموصل ، بل رغبة منه في تجنب الحرب باتخاذ طريق أسلم » . (١٣٠) .

أما العماد فيشير إلى أنه « خرجت من الموصل نساء أتين إليه (صلاح الدين) بكتاب ، متعرضات للشفاعة ، فأكرههن السلطان ، ووعدهن بالإحسان . وقال قد قبلت شفاعتكن . لكن لا بد من مصلحة تتم ، ومصالحة نفعها يعم . واستقر الأمر على أن يكون عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، أخو صاحب الموصل ، وسيطاً في إصلاح ذات البين ، وحقاً فيما يعود لمصلحة الجانبين ، فإنه كانت شفاعته سابقة . ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين ، وتعطف وتلطف لأجلهم وإجلالهم ، وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهم » (١٣١) . والواقع أنه بفضل وساطة عماد الدين زنكي تم تسوية النزاع نهائياً (١٣٢) .

ويعتبر المثل الثاني أكثر وضوحاً ، وأشد ظهوراً وجلاءً . ففي رواية ابن الأثير ، عن حصار صور في شتاء سنة ٥٨٣ (١١٨٧) ، وعن كل الأحداث في فلسطين أثناء تلك السنة ، لم يكن مصدر ابن الأثير في كل ذلك سوى كتاب الفتح القسي ، الذي ألفه عماد الدين . غير أنه لما عرض لأسباب عدم المضى في الحصار ، عمد في براعة إلى تغيير ما ورد في الفتح عن مناقشات صلاح الدين مع الأمراء ، في أمر المضى في الجهاد ، وما كان من الرحيل عن صور ؛ إذ يروي ابن الأثير : « لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها ، وهذه كانت عادته ، متى ثبت البلديين يديه ، ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه . وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة ، بل فتح الجميع في الأيام

كما ذكرنا ، بغير تعب ولا مشقة . فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ، ملّوا وهاو طلبوا الانتقال عنها ولم يكن لأحد ذنب في أمرها ، غير صلاح الدين فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج . وأمدّها بالرجال والأموال ، من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك . كان يعطيهم الأمان ، ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها من فرسان الفرنج بالساحل ، بأموالهم وأموال التجار ، وغيرهم ، فحفظوا المدينة ، وراسلوا الفرنج ، داخل البحر ، يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدهم بالنصرة ، وأمرهم بحفظ صور ، لتكون دار هجرتهم ، يحتمون بها ، ويلجأون إليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظهم والذب عنها . وسند كران شاء الله ، ما صار إليه الأمر بعد ذلك ، ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم ، وإن ساعدته الأقدار . فلئن عجز حازما ، خير له من أن يظفر مفرطا ، مضيعا للحزم ، وأعذر له عند الناس . ولما أراد الرحيل إستشار أمراءه فاختلقوا ، لجماعته يقولون الرأى أن يرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا ، وفنيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر ، والشووط بطين ، فريح ونستريح من هذا البرد ، فإذا جاء الربيع إجتمعنا وعاودناها وغيرها . وكان هذا قول الأغنياء منهم ، وكأنهم خافوا أن السلطان يقترض منهم ما ينفقه في العسكر إذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار ، فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها . وقالت الطائفة الاخرى الرأى أن نصابر البلد ، ونضايقه ، فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم . ومتى أخذناه منهم ، انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب ، وأخذنا باقى البلاد صفوا عفوا . فبقى صلاح الدين مترددا بين الرحيل والإقامة . فلما رأى من يرى الرحيل إقامته ، أخل بما ردد إليه من المحاربة والرمى بالمتجنيق ، وانتدروا بجراح رجالهم ، وأنهم قد راسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والداوات لدوابهم ، والأقوات لهم ، إلى ذلك من الأعدار ، فصاروا مقيمين بغير قتال . فاضطر إلى الرحيل ، فرحل عنها آخر شوال ٥٨٣ إلى عكا ، فأذن العساكر جميعا بالعود إلى أوطانهم ، والاستراحة فى الشتاء ، والعود فى الربيع ، (٣٤) .

والخلاصة أن ابن الأثير صور صلاح الدين على أنه اتخذ القرار برفع الحصار عن صور ، قبل وقوع فتنة الأمراء . فإذا كان الأمر كذلك ، يعتبر امتناعهم عن القتال ، ورحيل عساكرهم ، ضربا من الخماقة والسخف . ولم يقتنع ابن الأثير بقلب الحقائق ، وإيراد صورة مضطربة ، بل مضى في توجيه النقد الشديد إلى صلاح الدين ، على إجراء ، يعتبر مسئولاً عنه ، مواطنوه من العساكر المواقفة (١٢٥) .

وبتحليل الجزء الخامس ، من البرق الشامي ، نصادف مثالين ، برع ابن الأثير فيها ، في تغيير الحقائق التي أوردها مؤلف البرق ، عماد الدين الأصفهاني ، الأول ، عبارة عن فقرة تتعلق ببذل المساعدة للحامية عكا ، أثناء شتاء سنة ١١٩١ (٥٨٦ هـ) - إذ يروي ابن الأثير عن تسيير البدل إلى عكا :

« لما هجم الشتاء ، وعصفت الرياح ، خاف الفرنج على مراكزهم التي عندهم ، لأنها لم تمكن من الميناء ، فسيروها إلى بلادهم ، صور والجزائر ، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر ، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين ، يشكون الضرر والملاحة والسامة . فأمر صلاح الدين بإقامة البدل ، وإنفاذه إليها ، وإخراج من فيها ، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك ، فانتقل إلى جانب البحر ، ونزل تحت جبل حيفا ، وجمع المراكب والشواني ، وكلما جاءه جماعة من العسكر ، سيّروهم إليها ، وأخرج عوضهم ، فدخل إليها عشرون أميرا ، وكان بها ستون أميرا ، فكان الذين دخلوا قليلا ، بالنسبة إلى الذين خرجوا . وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم ، وكان على خزائنه ماله ، قوم من النصارى ، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا ، تعنتوهم بأنواع شتى . تارة بإقامة معرفة ، وتارة بغير ذلك ، فتفرق بهذا السبب خلق كثير . وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ، ووثوقه بنوابه ، وإهمال النواب . فاحسر الشتاء والأمر كذلك ، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا ، وانقطع الطريق إلا من ساجح يأتي بكتاب . وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين (م ١٥ - الحروب الصليبية)

بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ،
ويأمرهم بالمقام ، فإنهم قد جربوا وتدريبوا ، واطمأنت نفوسهم على ما هم
فيه ، فلم يفعل ، وظن فيهم الضجر والملل ، وإن ذلك يحملهم على الضجر
والفشل فكان الأمر بالضد^(١٣٦) .

هذه الفقرة كلها ، ليست إلا صورة لما ورد في الفتح القسى عن هذا
الحادث . ولذا لا بد من الاستعانة برواية الفتح الوافية ، كيما نفهم بعض
تفاصيل الخبر الذى أورده ابن الأثير :

يشير العناد في الفتح القسى إلى أنه لما هاج البحر وماج ، وأظهر
الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها إلى صور ، فربطوها
بها ، وأخلوا ساحل عكا من إرعاها وإرهاها... فاشتغل السلطان بانفاذ البديل
إلى البلد ، من الثابتين فى الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه إلى
جانب الرمل ، ونزل قاطع نهر حيفا فى سفح الجبل ، لتسهيل طريق من يسيره
إلى البلد من البديل ، فإن المقيمين فى عكا شكوا أمراضا معترضة ، وأعراضا
ممزضة ، وكثرة السواد ، مع قلة النفقة والزاد . وكان فى البلد زهاء عشرين
ألف رجل ، من أمير ومقدم وجندى ، وأسطولى وبحرى ، وমেইশ وتاجر
وبطال ، وغلمان ونواب وعمال . وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا ، وإذا
عابنوا خوفا على الموضع موهنا عاونوا وماوهنوا ، فرأى السلطان أن يفسح
لهم فى الخروج ، رفقاً بهم ورأفة ، وما فكر أن فى ذلك مخافة وآفة . فقد كان
فيه أمراء أمروا الأمر ، وألفوا الصبر ومانعوا الحصر ، واجترأوا وتجاسروا
وصبروا وصابروا... وكان فيهم من يطعم وينفق ، ويجمع الرجال ، وقلوبهم بما
عليهم يفرق مثل حسام الدين أبى الهيجاء السمين ، فإنه أنفق ما ادخره من الألوف
والمتين . وهناك ستون أميراً ومقدماً ، كلهم يرى المغرم فى سبيل الله مغنياً...
وألزم السلطان جماعة من الأمراء بالدخول ، فخدموا على أن يعفيهم بالبذل ،
فلم يقبل منهم بذلاً . وألزم بنقل الأزواد لبعض سنتهم كلاً ، فلم يدخلوا إلا بعد

الاي ، وقد بلغوا في غي الرأي إلى أقصى غاى ، واكثرهم صرف رجاله المعروفين المستخلصين ، واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين ؛ واذهبوا الايام بالمدافعة ، وأبطالوا عن فرض المسارعة . والمملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضهم ، ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم ، حتى لم يبلغ من دخل عشرين... وأمر السلطان بالناداة في الأبطال البطالين ، ليحضروا لقبض النفقات ، وكان يحضر الجاوش في كل يوم مئين ، ويصبح نواب الديوان في أمرهم مرتبين ، لحرصهم على توفير الدرهم ، وتجلهم بالنفقة . ويعدونها من المغرب ، ومعظمهم من نصارى مصر ، ومن هو مصر في نصرة النصارى ، وفي تعسير ما يجب تسهيله ، وتعقيد ما يجب . وكان يحضره ولاء العرض البطالين واستخدامهم ، ويوحشونهم بخطابهم ، وينفرونهم بكلامهم . ويشتطون في طلب الضمان ، ويشترطون ما ليس في الإمكان ... فما قبل العطاء غير مضطر فقير ، وما دخل الثغر إلا قليل من كثير ، وما صح من البدل إلا بعضه .. وكان هذا من أقوى أسباب الضعف ، وأوفق دلائل الخلف ... فضاع الزمان ، وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ؛ فانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم» . (١٣٧)

والملاحظ أن العباد ، برغم انتقاده حكمة ما اتخذها صلاح الدين من إجراء «فرأى السلطان أن يفسح لهم في الخروج رفقا بهم ورأفة، وما فكر أن في ذلك مخافة وآفة» (١٣٨) ، أسهب في وصف القوة التي سير بها صلاح الدين : العمليات الحربية ، وما بذله من النشاط في حث أمرائه وقادته على الاستزادة من جهودهم . غير أن ابن الأثير حذف كل ذلك ، وأحل مكان ذلك الإشارة إلى «تواني صلاح الدين ، ووثوقه بنوابه ، وإهمال النواب» (١٣٩) .

أما المثال الثاني فأكثر ظهوراً وأعظم شهرة وذيو عا . إذ حدث عند عودة صلاح الدين من الشرق ، بعد أن تقرر الصلح مع صاحب الموصل سنة ٥٨٢ هـ ، توقف فترة من الزمن في حصص سنة ٥٨٢ (١١٨٦ م) ، نظراً لوفاة

ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، صاحب حصص ، ولم يترك من الذرية الا ابنا صغير السن ، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره واسمه شيركوه : فكتب له منشوراً بما قرر عليه من البلاد ، وذلك بحمص وسلبه وتدمر ووادي بني حصين والرحبة وزليبا . ورتب السلطان مع شيركوه بحمص أميراً من الأسدية يعرف بارسلان بوغا^(١٤٠) . قال العماد : « وأقننا بحمص أياماً ، حتى استعرضنا خزائن ناصر الدين وقسمنا ميراثه . وكانت أخت السلطان الحسامية زوجة ناصر الدين ، وهي مستحقة للثمن ، والباقي بين البنت والابن . وخلف عينا وورقا مجتمعاً ومفترقا ، وبلغ التراث في الملك والعين والآثام اعظم أن يقدر بمقدار ، وأناف عن ألف ألف دينار ، فما أعاره السلطان طرفه بل تركه على أهل التركة ، »^(١٤١)

أما ابن الأثير ، فاستهل خبر هذا الحادث ، بأن روى أمر مؤامرة دبرها ناصر الدين مع بعض عساكر دمشق ، أثناء مرض صلاح الدين بحران ، بأن « واعداهم على تسليم البلد إليه ، إذ مات صلاح الدين . وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها . فعوفى (صلاح الدين) ، وبلغه الخبر على جهته ، فلم يمض غير قليل ، حتى مات ابن شيركوه ، ثم يمضى ابن الأثير في روايته دون الإشارة إلى مصادره ، بل اكتفى بقوله « فذكروا ، والعهد عليهم ، أن صلاح الدين ، وضع إنساناً يقال له الناصح بن العميد ، وهو من دمشق ، فحضر عنده ، وناداه وسقاه سماً ، فلما أصبحوا من الغد ، لم يروا الناصح ، فسألوا عنه ، فقيل إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين ، فكان هذا مما قوى الظن . فلما توفي ، أعطى صلاح الدين إقطاعه لولده شيركوه ، وعمره اثنتان عشرة سنة ، وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئاً كثيراً . فحضر صلاح الدين في حصص ، واستعرض تركته ، وأخذ أكثرها ، ولم يترك إلا ما لا خير فيه ، . وأيد ابن الأثير روايته ، بعبارة لاذعة ، فقال وبلغني أن شيركوه بن ناصر الدين ، حضر عند صلاح الدين ، بعد موت أبيه بسنة . فقال له : « إلى أين بلغت من القرآن ؟ فقال إلى قوله تعالى : (إن الذين

يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، وإنما يأكلون في بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً (١٤٣) .

والملاحظ أن هذه هي المرة الوحيدة، التي تبيأت فيها لابن الأثير الفرصة، ليتهم صلاح الدين بارتكاب جريمة اغتيال ، واغتصاب أملاك الغير . واستغل ابن الأثير هذا إلى أقصى حد وتكرر الشطر الأخير من الرواية في معظم ما ورد من تراجم حياة صلاح الدين، بل في تراجم الذين شادوا بفضله أمثال ابن خلدكان والسبكي (١٤٣) . والواقع أن ابن الأثير بلغ من البراعة في الاختراع في هذا المثال، ما جعل البارون دي سلان De Slane نفسه ، عند ترجمة ما جاء في ابن شداد عن سيرة صلاح الدين ، في مجموعة الحروب الصليبية ، بالقسم الخامس بالمؤرخين الشرقيين ، يوجه اللوم إلى القاضى ابن شداد ، بسبب اعجابه الشديد بصلاح الدين ، الذى حمله على أن يغفل عند تصنيف الكتاب ، حادثاً ذاع في العالم بعد سنوات (١٤٤) .

والواضح أن ابن الأثير ، في هذا المثال ، لم يعدل بحسب في رواية العماد الكاتب، بل أورد رواية مختلفة لا تعتمد في شئ على العماد الكاتب. ومع ذلك فإنها اتخذت نفس الإطار التاريخي ، وما ينطوى عليه من الأحداث المستمدة من البرق الشامى . ولا نظن أن ابن الأثير لم يقف على رواية العماد الكاتب ، الواردة بصيغة المتكلم الفرد. فلا بد إذن أنه تجاهل رواية العماد ، واستمد روايته من مصادر لم يحفل بذكرها ، ولعله كان يقصد من وراء ذلك، إلى أن يجعل صلاح الدين لا يزيد قدرأ على سائر أمراء عصره (١٤٥) .

وما لجأ إليه ابن الأثير في أحوال كثيرة من تغيير عبارات العماد الكاتب ، إنما يرجع إلى أنه كان يعتمد على فقرات وعبارات مستمدة من الكاتب، خير بطها سوياً ، أو يقوم على تفسيرها وشرحها . ومن الدليل على ذلك، الرواية التي سافها عن أمر تسليم حلب لصلاح الدين سنة ٥٧٩ . إذ يجعل السر في ذلك ، ما درج عليه صاحب حلب، عماد الدين زنكى ، من الشح وخضر يوماً

عنده ، بعض أجداده ، وطلبوا منه شيئاً ، فاعتذر بقلة المال عنده . فقال له بعضهم . من يريد يحفظ مثل حلب ، يخرج الأموال ، ولو باع حلى نسائه ، قال حينئذ إلى تسليم حلب ،^(١٤٦) . ولم يكن أساس هذه الرواية ، فيما يبدو سوى عبارة عماد الدين الأصفهاني الواردة في البرق^(١٤٧) ، والتي تشير إلى أن الأمير رأى أنه يؤدي كل شهر للعساكر والأمراء ، نحو ثلاثين ألف دينار ، فإذا طال الحصار ، دون أن يكون ثمة أمل في إحراز النجاح ومدافعة العدو ، فسوف يخسر كل شيء ، ويحل به الخراب والإفلاس . وتلى هذا التقدير والظن ، افتتاح المفاوضات مع صلاح الدين^(١٤٨) . ولم ترد هذه العبارة فيما اقتبسها أبو شامة عن البرق^(١٤٩) .

وندس مثالا من هذا القبيل ، فيما أورده ابن الأثير عن حصار الصليبيين لدمياط ، في نوفمبر وديسمبر سنة ١١٦٩ (٥٦٥ هـ) ، فأرسل إليها (دمياط) ، صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر . وأرسل إلى نور الدين ، يشكو ما هم فيه من المخافة ، ويقول : إني إن تأخرت من دمياط ملكها الفرنج ، وإن سرت إليها ، خلفي المصريون في أهلها وأموالها بالشر ، وخرجوا عن طاعتي ، وساروا في أترى ، والفرنج أمامي ، فلا يبقى لنا باقية . فسير نور الدين العساكر إليه إرسالا ، يتلو بعضها بعضها^(١٥٠) .

أما عماد الدين الأصفهاني ، الذي كان وقتذاك في دمشق في خدمة نور الدين ، فيشير إلى أنه ولما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم (الفرنج) ، واجتماعهم على دمياط ونزولهم ، اغتم واهتم ، واستعصب المم ، وأنهض من عنده عسكرا ثقيلا ، مقدمه الأمير قطب الدين خسرو الهذباني . وأمره أن يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجاج الأكدري ، فوصل في النصف الأول من ربيع الأول (حوالي ١٠ ديسمبر) ، قبل رحيل الفرنج بأسبوع^(١٥١) . والمعروف أن الفرنج نزلوا على دمياط في أول صفر ، وغادروها في ٢١ ربيع الأول ، وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما^(١٥٢) . وفي نفس الوقت ، أشارت

الروايتان إلى أن صلاح الدين أقام بالقاهرة ، في دار ماسكة ، ومدار فلكه ، ينهض إليها (دمياط) الممدد ، ويرسل إليها العدد بعد العدد، ^(١٥٣) . والراجح أن كلتا الروايتين استندا إلى رسالة صدرت من قبل نور الدين . أما تفسير الاختلاف بين الروايتين ، فالراجح أن ابن الأثير ، إنما صاغ عبارة نور الدين ، في صورة تظهر ارتكان صلاح الدين واعتماده على نور الدين . ومن الملحوظ أن وليم الصوري ، اتفق في هذا الخبر مع عماد الدين الأصفهاني ، لا مع ابن الأثير ^(١٥٤) .

وفيا يلي مثال أكثر وضوحا ، لما دأب عليه ابن الأثير من الالتجاء إلى تفسير عبارات العماد الكاتب وشرحها . فيروى ابن الأثير خبر قدوم صلاح الدين من مصر ، في شوال سنة ٥٦٨ (يولية ١١٧٣) ، « يريد حصر الكرك والاجتماع مع نور الدين عليه ، والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين ، كل واحد منهما في جهة بعسكره . وسبب ذلك أن نور الدين ، لما أنكر على صلاح الدين ، عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي ، وأراد نور الدين قصد مصر ، وأخذها منه ، أرسل يعتذر ، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين . فاستقرت القاعدة بينهما ، أن صلاح الدين يخرج من مصر ، ويسير نور الدين من دمشق ، فأيهما سبق صاحبه يقيم ، إلى أن يصل الآخر إليه ، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه . ووصل صلاح الدين إلى الكرك ، قبل قدوم نور الدين . ولما علم باقتراب نور الدين من الكرك ، خافه هو وجميع أهله . واتفق رأيهم على العودة إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين ، لأنهم علموا أنه إن اجتمعا ، كان عزله على نور الدين سهلا ^(١٥٥) . »

وما أورده ابن الأثير عن غزو صلاح الدين اراضى الصليبيين ، صفر سنة ٥٦٧ (سبتمبر ١١٧١) ، وأنه كاد يستولى على حصن الشوبك ، وأن نور الدين لما سمع بما فعله صلاح الدين ، سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ، ليدخل إليه من جهة أخرى ، فقبل لصلاح الدين إن « دخل نور الدين

بلاد الفرنج ، ملكها . ومتى زال الفرنج عن الطريق ، وأخذ (نور الدين) ملكهم ، لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين ، وإذا جرى الاجتماع بين صلاح الدين ونور الدين في بلاد الفرنج ، فقد لا تقدر على الامتناع عليه ، والمصلحة الرجوع إلى مصر ، فرحل صلاح الدين عن الشوبك عائداً إلى مصر (١٥٦) .

ووفقا لرواية عماد الدين الأصفهاني ، التي يعززها تقرير رسمي عن سير الأعمال الحربية ، رفعه صلاح الدين إلى نور الدين ، عن غاراته على الكرك قال العماد ، ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك ، وغيرهما من الحصون فبرح بها ، وفرق عنها عربها ، وخرّب عماراتها ، وشتت على أعمالها سراياها ، بغاراته . ووصل منه كتاب بالمثل الفاضل ، سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل ، أعز الله سلطانه ، ومد أيد إحسانه ، ومكن بالنصر إمامه . وشيد بالتأييد مكانه ، ونصر أنصاره ، وأعان أعوانه . علم المملوك بما يؤثره المولى ، بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ، ويقلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرّب بلادهم . وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة ، أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان . وما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعده من أعظم أسباب الجهاد ، ترحيل كثير من أنفارهم والحرص في تبديل دارهم ، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دايلا ، ولا يستطيع حيلة ، ولا يهتدى سبيلا ، (١٥٧) .

فلم يكن المقصود من حملة صلاح الدين على الكرك ، سوى طرد البدو الذين استخدمهم الفرنج في الكرك ، وبذلك يؤمن الطريق بين مصر والشام ، فتصل البلاد بعضها ببعض (١٥٨) . وهذه الرواية أكدها مرة أخرى ولیم الصوري (١٥٩)

لم يرد هذا الخبر في كتاب تاريخ الأتابكة الذي صنّفه ابن الأثير ، والراجح أن ابن الأثير حرص الإفادة من رواية عماد الدين الأصفهاني ، كما يظهر موقف صلاح الدين من نور الدين ، وحرصه على رفض التعاون

في جهاد الفرنج ، مع العلم أنه أشاد في السطور القليلة السابقة على هذا الخبر ، إلى أن نور الدين كان وقتذاك سنة ٥٦٨ منصرفا إلى القتال في الأناضول (١٦٠).

ومن الأمثلة الأخرى التي تدل على استناد ابن الأثير فيما يرويه ، إلى العماد السكاتب ، ما أورده عن الأحداث التي تلت وفاة بلدوين الرابع ، وما وقع من الشقاق بين ريموندوجاي لوزيجنان ، الذي أدى إلى التحالف بين ريموند وصلاح الدين .

فيروى ابن الأثير عن أحداث سنة ٥٨٣ هـ ، ما كان من اختلاف الفرنج بالشام ، وانحياز القمص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين :

« كان القمص صاحب طرابلس ، واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي ، قد تزوج بالقومصة ، صاحبة طبرية ، وانتقل إليها وأقام عندها بطبرية . ومات ملك الفرنج بالشام (بلدوين الرابع) وكان مجنوما . وأوصى بالملك إلى ابن أخت له ، وكان صغيرا (بلدوين الخامس) ، فكفله القمص ، وقام بسياسة الملك وتدييره ، لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت ، أكبر منه شأنًا ، ولا أشجع ولا أجود رأيا منه ، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير . فاتفق أن الصغير توفي ، وانتقل الملك إلى أمه ، فبطل ما كان القمص يحدث نفسه . ثم إن هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج ، الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي (جاي لوزيجنان) فتزوجته ونقلت الملك إليه ، وجعلت التاج على رأسه وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية ، وأعلمتهم أنها قد ردت الملك إليه ، وأشهدتهم عليها بذلك ، فأطاعوه ، ودانوا له ، فعظم ذلك على القمص ، وسقط في يديه ، وطولب بحساب ما جبي من الأموال ، مدة ولاية الصبي . فأدعى أنه انفقه عليه ، وزاده ذلك نفورا ، وجاهر بالمشاققة والمباينة . وراسل صلاح الدين ، وانتمى إليه ، واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعدوه النصره ، والسعى له ، في كل ما يريد ، وضمن له أنه يجعله ملكا مستقبلا للفرنج قاطبة . وكان

عنده جماعة من فرسان القمص، فأطلقهم، فخل ذلك عنده أعظم محل، وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافقة على ما فعل جماعة من الفرنج، فاختلفت كتبهم، وتفرق شملهم. وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم، واستنقاذ بيت المقدس منهم. وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج، وخرجت سالمة غائمة، فوهن الفرنج بذلك، وضعفوا وتجراً المسلمون عليهم، وطمعوا فيهم،^(١٦١).

أما رواية العماد، فأشارت الى أن القمص التجأ الى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع، فقبله السلطان، وقواه وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين حتى كاد، لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان ومملكة يقسم، ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطماعية طاعة، ودخلت الى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدنية في دينه، بما استندناه من العطايا. فصار الفرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره. فنانة يدارونه، وآونه يمدونه. وللقمص قوم صدق يساعده في كل حق وباطل، فبلى منهم أهل الساحل بشغل شاغل،^(١٦٢).

ووجه الاختلاف بين ابن الأثير والعماد، أن ابن الأثير أحل عبارة، «ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك (أى بانحياز القمص اليه)»، ووعده النصر، والسعى له في كل ما يريد، وضمن له أن يجعله ملكاً مستقبلاً للفرنج قاطبة، مكان ما ورد عند العماد من عبارة «وشجع القمص صلاح الدين في عزمه على مهاجمتهم كما ينهض صلاح الدين لا سترداد مملكته».

أما المصدران الآخران المعاصران لصلاح الدين، فقد عرفهما دارسو الحروب الصليبية في المقتطفات، التي أوردها أبو شامة (١٢٠٣-١٢٦٧) في كتاب الروضتين. وأول هذين المؤرخين، هو مؤرخ حلب، ومعاصر ابن الأثير، ابن أبي طى^(١٦٣).

ابن أبي طى (٥٧٥ - ٦٣٠ = ١١٨٠ - ١٢٣٣).

هو يحيى بن حامد، أبو طى النجار بن ظافر بن علي بن عبد الله الغساني.

الحلبى ، وهو المؤرخ الشيعى الوحيد ، الذى ألف كتابا فى التاريخ ، بلغ من الأهمية ، أن المؤرخين السنيين ، لم يستطيعوا إغفاله ، بل نقلوا منه روايات كثيرة^(١٦٤) . والراجح أن السر فى اختفاء أصول كتاب ابن أبى طى ، يرجع إلى أنه شيعى^(١٦٥) .

كان أبوه رئيساً لطائفة النجارين بحلب ، ومن زعماء الشيعة بها . ولد أبوه بحلب فى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم تقرر طرده منها لسبب غير معروف سنة ٥٢٣ (١١٤٨) ، فُلجأ إلى حران ، وأنجب كثيرا من الأطفال ، لم يعش منهم سوى الطفل الذى صار فيما بعد المؤرخ ابن أبى طى . سنة ٥٧٥ (١١٨٠) ، وذلك بعد أن تجاوز السبعين^(١٦٦) .

لم يكن هذا الطفل سوى ابنه يحيى ، الذى نشأ وشب فى حلب . وتلقى العلم عن أبيه ، وعن علماء حلب . والراجح أنه عاش بحلب فى هدوء واطمئنان ، يتكسب من نسخ الكتب . ويشير ياقوت إلى أن معظم الكتب المنسوبة إليه ، ليست سوى كتب قام بنسخها^(١٦٧) . ومات ابن أبى طى سنة ٦٢٥ أو ٦٣٠ (١٢٢٨ أو ١٢٢٣)^(١٦٨) .

ومن العسير أن نحصى كل ما ألّفه ابن أبى طى من كتب . وما أورده ياقوت من أسماء الكتب المنسوبة إليه ، لم يخرج فيما يبدو ، عن كونها مسودات غير كاملة ، ولا تتفق عنواناتها ، فى كثير من الأحوال ، مع ما ورد من التواريخ التى نقلت عنها . فمن المقتطفات المستمدة من مؤلفات ابن أبى طى ، الدينية والفقهية والفلسفية ، يتضح أنه ألف وصنف الكتب الآتية :

١ - معادن الذهب ، فى تاريخ الملوك والخلفاء . وذوى الرتب . وهو موجز فى التاريخ .

٢ - كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين .

٣ - عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر (الغازى) .

٤ - حوادث الزمان ، على حروف المعجم .

- ٥ - الذيل على معادن الذهب .
- ٦ - مختار تاريخ المغرب .
- ٧ - تاريخ مصر .
- ٨ - سيرة ملوك حلب .
- ٩ - رسائل، صنفها عن العرب في الجاهلية، وعن النبي صلى الله عليه وسلم .
- ١٠ - تراجم الأدب والشعراء (التيمورية ١٤١٨ تاريخ) .
- ١١ - أسماء رواة الشيعة والمصنفين .
- ١٢ - اشتقاق أسماء البلدان (١٦٩) .

فإذا كان بوسعنا أن نتحدث عن كتاب من هذه الكتب ، لم نعرفه كاملاً ، بل وقفنا عليه من المقتطفات التي نصادفها ، لم يكن ذلك الكتاب سوى كتاب معادن الذهب . إذ يعتبر ذي أهمية مزدوجة ، فهو من جهة عبارة عن تاريخ عام للعالم الاسلامي ، ويمثل من جهة أخرى تاريخاً محلياً لمدينة حلب . وما لم يتعلق منه بالشام ، انطوى على ما ورد من أخبار في المصادر السابقة المعروفة . أما تاريخ حلب ، فاعتمد فيه المؤلف على مصادر أدبية مفقودة ، واستكملها بمعلومات وغيرة ، تلقاها ، عن طريق الرواية أو من المشتغلين في ديوان الإنشاء ، ولذا فهي بالغة الأهمية (١٧٠) . ومن التواريخ التي وقف عليها ابن أبي طي ، مؤلفات ابن زريق ، وابن أبي جرادة ، وحمدان بن عبد الرحيم ، وابن القلانسي ، وعماد الدين السكاتب (البرق الشامى ، وتاريخ السلاجقة) ، وتاريخ مصر لمؤلف مجهول ، وابن شداد الصنهاجي ، (تاريخ القيروان) (١٧١) . ومن الرواة الذين استقى منهم أخباره الإدريسي الاسكندراني (١٧٢) * .

(١٧٢) * هو إدريس بن حسن بن علي بن أبي طالب الإدريسي الاسكندراني ، المولود بالأسكندرية ، سنة ٥٤٥ (١١٥٠ م) . ثم صحب عمه سنة ٥٥٩ ، عند قدومه على نور الدين . وكان من حزب صلاح الدين بالأسكندرية سنة ٥٦٢ . ولم يلبث أن لحق بصلاح الدين في الشام ، فسار إلى حمص وحماء وحلب ، ومات بحلب سنة ٦١٠ ، أو ٦١١ . وألف شروحاً في التاريخ ، وعرفه ياقوت وابن أبي طي . انظر ياقوت : إرشاد الأريب ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

وكتاب ابن طى بالغ الأهمية ، لأنه من الكتب المعاصرة ، ولما حواه من وثائق وفيرة ، ولما له من وجهة نظر أصيلة ، إذ أفرد المؤلف جانباً كبيراً من الكتاب لما وقع من المنازعات الدينية ، والآثار (١٧٣) . يضاف إلى ذلك أن المؤلف شيعي المذهب ، يكتب في زمن دولة سنية . وأظهر ابن أبي طى شيئاً من التعصب ضد نور الدين ، لأنه أمر بنى والده من حلب (١٧٤) .

وظل تاريخ ابن أبي طى معروفاً ، حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى ، ونقل عنه أبو شامة ، وابن شداد الجغرافى ، وابن عبد الظاهر . أما كتابه عن سيرة صلاح الدين ، فاقتمس منه أبو شامة ، وأفاد ابن شداد الجغرافى من كتابه عن الظاهر ، ونقل كمال الدين والذهبي عن تراجم الأدباء (١٧٥) . ووردت نصوص كثيرة من كتاب ابن أبى طى ، فى مصدر آخر ، هو تاريخ ابن الفرات ، وهو مصدر متأخر ، لا زال الجزء الذى يتناول الاحداث من سنة ١٩٧٢ حتى ١١٩٠ ، لا زال مفقوداً (١٧٦) .

عماد الدين الاصفهاني (١١٢٥ - ١٢٠٠ = ٥١٩ - ٥١٧هـ)

المعروف أن امبراطورية صلاح الدين امتدت من مكة والسودان الى جبال طوروس وديار بكر ، وتألقت من أقاليم باللغة الاختلاف . ومع ذلك فإن مؤرخى عصر صلاح الدين ، برغم اختلاف مواطنهم ، اتحدت مشاعرهم وعواطفهم ، وجعلوا محور دراستهم صلاح الدين وأعماله . وخير من تتمثل فيه هذه الخصائص عماد الدين الاصفهاني ، المعروف بالكاظم ، (أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن عبدالله) . ولد بأصفهان ، وينتمى إلى أسرة ، ولّى كثير من أفرادها وظائف هامة فى الدولة السلجوقية ، وفى حكومة الخلافة العباسية (١٧٧) . وقدم بغداد فى حداثة سنه ، فانتظم فى المدرسة النظامية ، ودرس على أساتذتها الفقه والحديث ، وبرع فى أثناء ذلك فى نظم الشعر وصوغه . ولما تخرج وأضحى بارعا فى صناعة الكتابة ، اتصل بالوزير يحيى ابن هبيرة ببغداد ، فولاه النظر فى البصرة ثم بواسط (١٧٨) . وأرخ العماد

جده هذه الصلة في ترجمة الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥) ، بالقسم الأول من الخريدة ، إذ يقول « وأول من مدحته من الخلفاء ، المقتفي رضى الله عنه ، خدمته في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة بقصيدة ، ووليت بعد ذلك الأعمال الجليلة ، وليت بواسط نيابة وزيره عون الله بن هبيرة^(١٧٩) ، وظل العماد يخدم ابن هبيرة على واسط والبصرة حتى توفي ابن هبيرة سنة ٥٦٠ ، فاعتقل العماد مع من اعتقل من أنصاره ، فدح الخليفة المستنجد بقصيدة ، وما زال يستعطفه ، حتى فك وثاقه ، فولى وجهه نحو الشام . واستقر به المقام بدمشق سنة ٥٦٣ ، فاتصل بالقاضى كمال الدين الشهرزورى ، مدير دولة تور الدين ، فوصله بنجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، وكان يعرف عمه العزيز ، منذ أن كان بقلعة تكريت ، فأحسن إليه واكرمه ، وقربه منه ، وعرفه صلاح الدين من جهة والده^(١٨٠) .

أنزل الشهرزورى بالمدرسة النورية الشافعية ، والتي صارت تعرف فيما بعد بالعمادية نسبة إلى العماد ، بعد أن ولاه نور الدين اياها سنة ٥٦٧ . وكان القاضى الشهرزورى يحضر مجالس العماد ، ويذاكره بمسائل الخلاف ، فنوه بذكر العماد عند السلطان نور الدين ، وذكر له تقدمه في العلم والكتابة ، وأهله لكتابة الإنشاء^(١٨١) . ويشير إلى ذلك العماد بقوله « فبقيت متجيرا في الدخول فيما ليس من شأنى ، ولا وظيفتى ، ولا تقدمت لى به دراية » .

واقدمت مواد هذه الصناعة عتيده عنده ، ولكنه لم يكن قد مارسها ، فخبث عنها في الابتداء . فلما باشرها ، هانت عليه ، وأجاد فيها ، وأتى فيها بالغرائب ، وكان ينشئ الرسائل باللغة الفارسية أيضا ، فيجيد فيها لإجادته بالعربية^(١٨٢) . فعملت منزلته عند نور الدين ، وصار صاحب سره ، وسيره إلى بغداد برسولا إلى الخليفة المستنجد . ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة العمادية ، سنة ٥٦٧ ثم ولاه سنة ٥٦٨ الإشراف على ديوان الإنشاء^(١٨٣) .

واستقام له الحال ، وأطمأن باله في خدمة نور الدين ، حتى إذا توفي نور الدين سنة ٥٦٩ ، وولى الحكم ابنه الصالح اسماعيل ، وكان صغير السن ،

استبدبه الأمر من دونه جماعة يسكروهون العماد ، فضايقوه وأخافوه ، إلى أن ترك جميع ما بيده من الأمور ، وسافر قاصدا بغداد . فلما بلغ الموصل اعتراه المرض ، فترى بها ثم بلغه خروج صلاح الدين من مصر ، لأخذ دمشق ، فعدل عن رغبته في المضى إلى العراق ، وقرر العودة إلى الشام . فخرج من الموصل في جمادى الآخرة سنة ٥٧٠ (١١٧٤) فوصل إلى دمشق ، ولم يلبث أن سار منها إلى حلب ، وصلاح الدين يومئذ نازل عليها ، فالتقى به في حص (مارس ١١٧٥) وقد استولى على قلعتها ، فلزم بابه ، ينزل لنزول السلطان ، ويرحل لرحيله ، ويغشى مجالسه ، وينشده في كل وقت مدائح ، ويعرض بصحبته القديمة . ولم يزل على ذلك ، حتى نظمه في سلك جماعته ، وجعله من كتابه بأشارة القاضي الفاضل ، واعتمد عليه ، فصاره من جملة الصدور المعدودين ، والأماثل المشهورين ، يضاهاى الوزراء ، ويجرى في مضمارهم ،^(١٨٤) . فعلا قدره ، وذاع صيته . وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان صلاح الدين ويتوفر على مصالح القطر المصرى ، فكان العماد ينوب عنه في النظر في ديوان الانشاء ، وألقى إليه مقاليد ، وركن اليه بأسراره ، فتقدم الأعيان ، وكان بينه وبين القاضي الفاضل مراسلات^(١٨٥) . لزم العماد صلاح الدين في سلمه وحر به ، فمن ذلك ، أنه دخل معه مصر سنة ١١٧٧ ، وصحبه في الرحلة التي قام بها صلاح الدين بشمال الدلتا ، لتفقد استحكامات الثغور البحرية ، وغادر مصر مع صلاح الدين إلى دمشق سنة ١١٧٨ . وحضر معركة حطين سنة ١١٨٧ ، واستعرض الأسرى بقلبه ، وشهد انتصارات صلاح الدين ، وكتب بقلبه كتب المستأمنين من الصليبيين ، كما كتب البشائر إلى الأفاق بالنصر . ووصف عن كتب ما دار في معركة عكا (١١٨٩ - ١١٩١) ^(١٨٦) .

ومنذ سنة ٥٧٠ (١١٧٤) ، لم ينقطع عماد الدين عن مصاحبة صلاح الدين ، إذ يعتبر من مقدمى كتابه ، وشازك في إدارة حكومته ، حتى إذا مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ (سنة ١١٩٣) . اختلفت أحوال العماد ، ولم يجد في وجهه بابا مفتوحا ، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف ، حتى مات بدمشق في رمضان سنة ٥٩٧ (١٢٠٠) ^(١٨٧) .

ومؤلفات العماد الكاتب :

١ — كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى . نشره لاندبرج .

C. Landberg بعنوان

Conquête de la Syrie et de la Palestine par Salahaddin —
Texte arabe — Leyden 1888.

٢ — كتاب البرق الشامى فى سبع مجلدات ، وهو مجموع تاريخ ، وبدأ فيه بذكر نفسه ، وصورة انتقاله من العراق إلى الشام ، وما جرى له فى خدمة السلطان نور الدين محمود ، وكيفية تعلقه بخدمة صلاح الدين ، وذكر شيئاً من الفتوحات الشامية . سماه البرق الشامى ، لأنه شبه أوقاته فى تلك الأيام ، بالبرق الخاطف ، لطيبها وسرعة انقضائها .

٣ — نصرة الفطرة ، وعصرة القطرة فى أخبار الدولة السلجوقية ، أورد المؤلف نسب السلاجقة ، نقل عن مصادر لم يحددها ، وما أورده عن حكم ملك شاه وأخلافه الأوائل ، نقله عن مذكرات الوزير الفارسى أنوشروان المتوفى سنة ٥٣١ (١١٣٦) . والقسم الاخير من الكتاب تناول مذكرات العماد الشخصية ، حتى غادر العراق سنة ١١٦٦ ، وهى السنة التى توقف عندها عن الكتابة فى تواريخ السلاجقة . وألف ابن العماد هذا الكتاب سنة ١١٨٠ ، وبعد أربعين سنة قام على اختصاره البندارى ^(١١٨٨) .

٤ — خريدة القصر وجريدة العصر ، عن شعراء القرن السادس الهجرى وهى تقع فى عشر مجلدات كبيرة . قسمها العماد أربعة أقسام ، خص القسم الأول منها بالعراق ، والثانى ببلاد العجم وفارس وخراسان ، والثالث بالجزيرة والموصل والشام والحجاز واليمن . أما الرابع فنخصه بمصر وصقلية والمغرب والأندلس . واستهله بمصر وشعرائها ، لامتزاجى بأهلها ، وابتهاجى بفضلها ، وحصول مدارى فى فلکها ، ووصول مرادى إلى ملكها ، (١١٨٩) .

والمعروف أن العماد جعل هذا الكتاب ذيلًا على زينة دمية الدهر للخطيرى . والخطيرى جعل كتابه ليكون ذيلًا على دمية القصر وعصيرة أهل العصر للباخرزى ، كما أن الباخرزى جعل كتابه ذيلًا على بقيمة الدهر للشعالى (١٩٠) .

٥ - كتاب السيل على الذيل ، جعله ذيلًا على كتابه خريدة القصر . على أن ابن خلكان يشير إلى أنه ذيل على الذيل لابن السمعانى ، الذى ذيل به تاريخ بغداد للخطيب ، ثم تبين أنه ذيل على الخريدة (١٩١) .

٦ - رسالة باسم عتبى الزمان ، وتسمى أيضاً العتبى والعقبى (١٩٢) .

٧ - نحلة الرحلة . ذكر فى هذا الكتاب ، اختلال الأحوال وتغير الأمور بعد موت السلطان صلاح الدين ، واختلاف أولاده ، وما وقع من الخلاف بين الأمراء والعمال (١٩٣) .

٨ - خطفة البارق وعطفة الشارق (١٩٤) ، أشار فيه إلى ما جرى من الأحداث منذ سنة ٥٩٣ حتى وفاته (١١٩٦ - ١٢٠٠) (١٩٥) .

٩ - ديوان شعر فى أربع مجلدات (١٩٦) .

١٠ - ديوان رسائل فى مجلدات (١٩٧) .

١١ - له ديوان صغير ، والمعروف بديوان دويبت (١٩٨) .

خص العماد الكتاب ، صلاح الدين بكتابين من مجموع هذه المؤلفات . والواقع أن الشطر الأكبر من كتاب الروضتين ، يصح اعتباره موجز الهدى للكتابين ، إلى جانب ما استمده من مادة إضافية من مصادر أخرى (١٩٩) .

وأشهر هذين الكتابين ، هو كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ، الذى استهله بوصف الاستعدادات لمعركة حطين التى دارت سنة ١١٨٧ . وانتهى فيه إلى وفاة صلاح الدين ، وتقسيم دولته سنة ١٢٩٣ . فتناول بذلك نفس الحقبة ، التى تعتبر مصدراً أصلياً فى سيرة صلاح الدين التى ألفها ابن شداد (٢٠٠) .

ويوجد من هذا الكتاب مخطوطات كثيرة، ونشر المانن ١٨٨٨ ، بليدن ، الكونت كارلو لاندبرج. والمعروف أن عماد الدين كان كاتباً خاصاً لصالح الدين منذ سنة ١١٧٥ ، وبذلك لا تقل أصالة هذا المصدر وصدقه عن كتاب بهاء الدين بن شداد . ومع ذلك فإن الفئة القليلة ، من المؤرخين الذين أقادوا مباشرة من هذا الكتاب (الفتح القسى) ، لم يلبثوا أن أعلنوا في صوت واحد ، شكواهم ، بما أسماه لين بول Lane-Poole ، « بالسجع الذى لا يقبل ، ذلك أن العماد الكاتب ، يعتبر من أشهر الكتاب فى هذا اللون من النثر المسجوع ، الذى تكلف فيه التحلية والزينة ، والتزم فيه السجع وفنونا مختلفة من البديع ، نوه بها صراحة فى إحدى رسائله للقاضى الفاضل حين يقول « وهذه الرسالة قد وفيها حقاً من التجنيس والتطبيق ، والترصيع ، والمقابلة ، والموازنة ، (٢٠١) . وساد استعمال هذا النوع من الكتابة فى ديوان الإنشاء فى الدول الإسلامية فى العصور الوسطى ، ولم يتنافس العماد ويبرزه فى هذا المضمار إلا رئيسه القاضى الفاضل ، الكاتب السياسى لصالح الدين (٢٠٢) .

يمثل كتاب « الفتح » كل خصائص هذا الأسلوب من كتابة الرسائل ، بما تضمنه من نماذج البيان عن المناسبات وسائر الموضوعات ، وبما انطوى عليه من استهلالات ومقدمات حافلة بالسجع فى رواية الأحداث ، وبكثرة ما احتواه من رسائل المؤلف وكتبه . وما اتصفت به عباراته من الحلية والزخرف ، والى اعتبرها القراء فى الغرب ، أنها مجردة من المضمون ، ورأوا فيها مديحاً سمجاً ، كل ذلك يعلل إلى حد كبير ما أصاب هذا الكتاب من الإهمال النسبى . وعلى الرغم من أهميته كمصدر تاريخى له قيمته ، فمن العسير قراءته . وما يدعو إلى الدهشة أن قلة من الدارسين تتفق فى الحكم مع ناشر الكتاب ، لاندبرج ، :

“Plus j’avançais dans ma travail, plus j’étais sous le charme de la parole du fameux Katib. Je n’avais rien lu de pareil, mais aussi n’avais - je rien lu de plus difficile au point de vue lexicographique... Je suis rentrée en Europe en 1883 avec ma copie toute finie, plein d’enthousiasme pour mon auteur.” (٢٠٣)

ومع ذلك لم يكن « الفتح » الكتاب الأساسى الذى خص به عماد الدين ، حياة صلاح الدين ، إذ أن الكتاب الأساسى ، كان كتابا شاملا ، ألفه فى زمن متأخر ، ويقع فى سبعة مجلدات ، وعنوانه « البرق الشامى » ، وتناول فيه ، دراسة الفترة التى ارتبط فيها المؤلف بصلاح الدين ، بما فى تلك السنوات الأولى ، التى أمضيها سوريًا فى خدمة نور الدين (٢٠٤) .

على أن البرق الشامى أصابه ما أصاب معظم التواريخ العربية الضخمة فى العصور الوسطى ، فلم ينتشر تداوله ، بسبب الموجز ، الذى صنفه أبو شامة . وعلى الرغم من أنه ثمة بعض الأمل فى وجود مخطوطة أو مخطوطات من كتاب البرق الشامى ، فى ليننجراد ، فليس معروفًا ، حتى الآن من الأجزاء الموجودة من هذا الكتاب ، سوى الجزئين المحفوظين بمكتبة البودليان فى أوكسفورد برقمى BruceII, Marsh 425 . فالجزء الثالث ، يعالج السنوات من ٥٧٣ حتى سنة ٥٧٥ (يوليه ١١٧٧ - مايو سنة ١١٨٠) ، ويتناول الجزء الخامس الفترة من سنة ٥٧٨ حتى بدايه سنة ٥٨٠ (مايو ١١٨٣ - يوليه ١١٨٤) .

والنص الأصيل لكتاب البرق الشامى يدل ، حسبما نستخلصه من الفقرات التى اقتبسها منه أبو شامة ، ومن الفتح القسى ، على أن تاريخ عماد الدين السكاتب لم يكن يجرى على نهج التواريخ المألوفة ، من حيث الاكتفاء بمررد الأحداث ، بل يغلب عليه صفة سجل أو مفكرة ، تتضمن ما للمؤلف من جهود ونشاط فى عمله ، باعتباره كاتبًا . وأسهب المؤلف فى الكتابة ، فأورد نماذج أو فقرات من رسائله ، ولا سيما ما كان منها إلى القاضى الفاضل ، والتى تعتبر شبه شخصية . وأشار إلى ما كان سائدًا من القواعد التى يجرى مراعاتها عند التعيين فى الوظائف المختلفة ، وإلى ما كان له من آثار فى الأدب والشعر ، فى مناسبات معينة . ولم ينسى أن يضم كتابه بعض أموره الخاصة ، على الرغم من أن ذلك لم يتردد كثيرا فى الكتاب . ولما كان عماد الدين صحب صلاح الدين ،

صحة تكاد تكون مستمرة غير مقطوعة ، منذ صيف سنة ١١٧٥ ، حتى وفاة صلاح الدين ، فيعتبر البرق الشامي ، من هذه الناحية ، تاريخ أحداث ، مع ملاحظة أن هذه الأحداث كانت عادة تروى بضمير المتكلم الجمع . ولا ترجع هذه الصفة إلى الغرور ، بل إلى ما تأصل فيه من عادة استخدام ، صيغ وترا كيب رسائل الكتاب . ومع ذلك فإنه أورد روايات عن بعض الأحداث التي لم يشهدا ، ولجا أحيانا في رواية الأحداث ، إلى أن يورد رسالة أو أكثر ، من إنشائه ، أو لإنشاء القاضي الفاضل ، بدلا من أن يمضى في السرد المباشر^(٢٠٥) .

أما أسلوب الكتاب ، فلم يجر على نمط واحد ، بل اشتد اختلافه من قسم إلى قسم . ففي بعض الفقرات ، أمعن العباد في التزام السجع ، على حين أنه في بعضها الآخر ، لم يتجاوز ما درج عليه من التعبير عن كل شيء في نثر منظوم ، يعتبر في مناسبات ، مباشرة وقصير العبارة : مثال ذلك ما أورده من أحاديث مسجوعة لصلاح الدين ، غير أن ذلك لم يتجاوز حديثا واحدا أو حديثين قصيرين . ورغم هذا السجع ، فإن عماد الدين بفضل ما اشتهر به من الدراية في اللغة والاشتقاق ، أضفى على رواياته وأخباره الوضوح والدقة^(٢٠٦) .

وإذا أنعمنا النظر في عبارات عماد الدين ، تبين لنا أنها متزنة رصينة . فإذا طرحنا جانبا أمر الأسلوب الأدبي ، تبين لنا أن أخباره وروايته ليست إلا محاضر أو تقارير ، موظف مدني أمين . إذ امتاز حديثه بالبساطة ، والتجرد من التعليق ، سواء كان ذلك في صالح الأمر الذي يعالجه أو ضده . فالكاتب الذي يروي لنا انسحابه من الحملة الموجهة إلى الرملة سنة ١١٧٧ ، بسبب ما أصاب قديمه من البرد ، ويورد تعليقات أصدقائه عن هذا الحادث ، إنما يوحى لنا منذ البداية ، بالاطمئنان إلى صدق حديثه ، واستقامة روايته^(٢٠٧) .

ومن الدليل على ذلك ، ما أورده الأستاذ جب من مقارنة بين رواية العماد ، ورواية ابن الأثير ، عن بعض الأحداث ، الواقعة في الفترة التي يعالجها البرق الشامي (انظر ما سبق ذكره عن ابن الأثير) .

درج عماد الدين الاصفهاني على أن يسبب في ايراد الصور ، وبهى الجور
الملائم لما يقع من الأحداث ، بما يلجأ إليه من صرخ عبارات مثيره ، رصينة
قصيرة ، تزيد في التأثير العاطفي ، والخيال العميق ، الذي يرتبط بالمنظر الذي
يصفه . على أن الإثارة القصصية إنما تتوقف على إدراك قيمة كل عبارة في
معناها ومعناها . ويشير الأستاذ جب Gibb ، إلى أن ما التزمه عماد الدين
الاصفهاني من استخدام السجع ، يعتبر بديلا للعامل الملحمي في الأدب
الفارسي . ووجه عماد الدين اهتمامه ، إلى أن يجعل الأحداث في وضع
سيكلوجي خاص (٢٠٨) .

وخير دليل على ذلك ما رواه عماد الدين ، عن حصار صلاح الدين لآمد
سنة ٥٧٩ (١١٨٣) (٢٠٩) . فالأثر النفسى نلتهمسه في وصف آمد ، ومناعتها ،
وما كان بقلعتها ، من الذخائر والأموال والحواصل والامتنعة ، وما اتخذته
حاكمها من تدابير واحتياطات للمحافظة عليها ، إذ كان لآمد أمير قديم ، يقال
له ايكلدى ، وكان القائم بأمرها ابن تيسان ، وكان يدعى أنه من غلمانه
ومصطنعيه ، وأنه يحفظ البلد له ، وأنه لا يغدر به ، ولا يؤثر بدله . وإذا
جاء رسول ، يحضره عند أميره ، ويسند ما يدبره إلى تدبيره ، ويقول أنه
غلام ، ومامعه كلام . وحافظ على سر هذه السريرة وآمن باحتياطه من جور
الجزيرة ، بل ما منهم إلا من يخاف مكره ، ويحفظ منه وكره ، ويعرف
نكره (٢١٠) . ثم يشير الى أنه لم يخطر ببال ملك من الملوك ، أن يحاول
الاستيلاء عليها ، حتى زمن صلاح الدين (٢١١) . واتبع ذلك بموجب عن أحوال
حصار المدينة على يد صلاح الدين ، كما يوفى بما بذله من وعد ، لنور الدين
محمد بن قرة أرسلان (٢١٢) ، صاحب حصن كيفا ، بأن يسلمه المدينة متى فتحها .
وأقر الخليفة هذا الإجراء ، بالتقليد الذي بعث به الى صلاح الدين بولاية
آمد (٢١٣) . وأطنب عماد الدين الاصفهاني ، في وصف الزحف على المدينة .
والإحداق بها ، واستخدام عماد الدين ضمير المتكلم الجمع ، جريا على عادته .
وأكد ما كان من المقابلة بين قوات صلاح الدين ، قليلة العدد ، وبين

ضخامة الأمر وجسامته . ولخص الموقف العام والأمر الثانوية ، من رسالة وجهها إلى بغداد ، القاضي الفاضل ، عن السلطان (٢١٤) .

أورد أبو شامة في هذه الرسالة فيما يلي : كتب الفاضل عن السلطان الى الديوان العزيز ببغداد . ورد الى الخادم التقليد الشريف بولاية آمد ، فلما رآه مستقرا عنده ، قال هذا مفتاحها . وسمع الوصايا ، فاستضاء بها ، في ظلمات القصد ، وقال هذا مصباحها . وتناوله ، فما ظنه الا كتابا ، أنزل عليه من السماء في قرطاس ، وما يقنه إلا نورا يمشى به في الناس ، فسار به ، ولولا العادة ، ما استصحب جنديا وعول عليه . ولولا الرتبة ، لما تقلد هنديا ، وطرق بابه باقليده . ولولاه ما استطاع للأولياء أن يظهره ، وما استطاعوا له نقبا . وناشد المقيم بتقليده ، ثلاثة أيام ، بثلاث رسائل . فلو كان ذاسمع أصغى ، ولو كان ذالبا لبي . فلما انقضت ضيافة أيام الندارة ، واحتقر من بآمد نار الحرب ، جاهلا أن وقودها ، الناس والحجارة ، عمد لها في اليوم الرابع ، فزلزل عمدها ، وقاتلها فأزال جلدتها ، وذيل جلدتها . ثم رأى أن الشوكة ، ربما أصابت غير ذات الشوكة من جندها ، وأن المسلم قد لعن عذاب الحريق ، ولا يأمن أن تحرقه القسي من السهام بشرار زندها ، فعدل إلى منجنيقه ، الذي أمل صاحبها منه منجانيقه ، ورأى أن سوط سطوته بضرب الحجر ، ويضرب عن أن يباشر البشر . وتلك الأبرجة قد شمخت بأنفها ، ونأت بعطفها ، وتاهت على وامقها ، وغضت عين رامقها ، ففى فى عقاب لوح الجو كالطائر . إلا أن المنجنيق أغرى بها عقايبه ، وضغمها بخليبه ، وخصم إمامها يخاصمها ، وقام إلى الغير يحاكمها ، ويضرب بعصاه الحجر ، فينبجس من الثقوب ، أعين لا ترسل الماء ، ولكن تروى العطاش إلى منهل المدينة ، وتهل الظمأى . كذلك أياما ، حتى محى من الشرفات ، ثم شتبت ثغرها ، وتناوبها كأس تبين بهز أبراجها ، آثار شكرها ، وعلت الأيدي الرامية لها ، وغلت الأيدي المحامية عنها . فلم يبق على سورها من يفتح جفنا ، وشن المنجنيق عليها غارته ، إلى أن صارت سنا ، وقضت صناديق الحجارة المغقلة ، وفصلت منها أعضاء

السور المتصلة . ووجب القتال ، لئلا يظن بالخدام أن لا جند له ، إلا جندله ، فأوعزنا التقدم إليها ، ودخول النقبين فيها . فائخنت جراحاً بالنقوب : وهتك الحجاب أذالع البلد ، فكاد يتصل إلى ماوراها من القلوب . وخشيت معرة الجيش في وقت هجمه . وروسل صاحبها بأنه كشف له الخذلان ، حتى نصر على شكة بعلمه . فأعاد الرسول مستنكفاً تحجب النجاة ، برسال ذوات الحجاب وإبرازهن ، ومستكفاً ليد القتل ، بمن لم يكن جوابه غير احرازه وإحرازهن . ولم يعارض في نفسه ، ولا في قومه ، ولا في أمواله ، وهى ماهى ، ذخائر موقرة ، ومكاسب من أرباح محسرة ، كانت الحقوق عنها مذودة ، والآمال دونها مطرودة . وغض الخادم كل عين ، عن عينه وورقه ، وصانته في مخيمه من الفقر صيائه ، في ذات سوره وخذقه . واستوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقه . وهذه آمد ، فهى مدينة ، ذكرها بين العالم متعام . وطلما صادم جانبها من تقادم ، فرجع مجذوعاً أنفه ، وإن كان فخلاً ، وقرعها فريد الهمة ، واستصحب جفلاً ، ورأى حجرها ، وقدر أنه لا يفك له حجر ، وسوادها فحسب أنه لا يتسخه فجر ، وحمية أنف أنفها ، فاعتقد أنه لا يستجيب لزجره من ملوك كلمه ، طوى صدره على القليل إلى موردها ووقف بها وقوف المحب المسائل ، فلم يفز بما أمل من جواب معهدا ، (٢١٥) .

وأورد عماد الدين الأصفهاني ، وصفاً تصورياً لشعور نور الدين وشدة تأثيره ، ثم ذكر في فقرة طويلة حافلة بالسخرية والتهكم ، الإختلاف بين سلوك عساكر صلاح الدين ، وما اشتهروا به من النشاط الوافر ، والتزام الرزاة والجدة ، وبين صفات العساكر الأرتقية ، الذين تجردوا من الروح الحربية ، إذ اجتمع المواصلة وشاه أرمن ، وصاحب ماردين ، وصاحب أرزن وبديليس وغيرهم ، على قصد الخادم (صلاح الدين) ، ونزلوا تحت الجبل . فلما صح عندهم قصده ، ظنوا أنه واقع بهم ، فأخذوا عنه الفرار بقوة . وذكروا ما فى لقائه من عوائد ، كانت عندهم مخوفه ، وعنده مرجوة . وسار كل فريق على طريق ، بنية عدو ، وفعل صديق . والخدام يقول مهما

أرادت فيه الآراء الشريفة آناه . ومهما نوت فيه من إحسان ، قرب عليه ما نواه . فهذه آمد ، لما أرسل إليه مفتاحها ، وهو التقليد ، فتحها . وهذه الموصل لما تأخر عنه المفتاح ، منعها وما منحها ولو أعين بها . لعظمت على الإسلام عائدته ، وظهرت في رفع مناره فائدته ، لأن اليد كانت تكون به ، على عدو الحق ، واحدة ، والهمة لآلات النصر واجدة . فإن رأى أمير المؤمنين أن يميز بين أوليائه ، ويظهر أيهم أبر بأوليائه ، وأشد على أعدائه ، وأقوم بحقه وحق آبائه ، وأيهم أترك للفراس الممهد ، وأهتك للطريق الممدد ، وأهجر في سبيل الله لراحة ، وأصبر في جهاد عدو الله على مضض جراحه ، وأسلى عن ريحانة فؤاد ، وأكثر ممارسة لحية واد ، فيختار لهذه الأمة ، التي جعله الله لها إماما . وأما ما أسعد من أجرى في طاعته ضامرا ، وملا بولايته ضميرا ، فمن عدله أن يولى عليها العدل الذي يقر عينها ، ومن فضله أن لا ينسى الفضل بينها^(٢١٦) .

ويعتبر تصرف صلاح الدين في معاملة حاكم آمد ، وما كان من سخائه معه ، ومع نور الدين ، الذي سلمه القلعة بما اشتملت عليه من خزائن عامرة بالمال ، أوج الخبر وقته . وختم عماد الدين الرواية بما أشار إليه من أن الأعمال الدنيوية ليس لها وزن وتقدير عند السلطان . وما يحسب الخادم أن كيدا للعدو الكافر أكيد ، ولا جهدا لأهل الضلال أجهد ، ولا عائدة بغیظ رؤساء أهل الإلحاد أعود ، من تفخيم أمر الخادم بالاستخدام ، وإلا فليُنظر ، هل يشق على الكفار مزيد أحد سواه من ولاة الإسلام فكل ذى سلطان ، هو الطاعم الكاسى ، الحمى بالمناضل ، لا الحامى المكفى لا الكافى ، يقضى عمره ، وهو لا يشهد الطعن إلا فى الميدان . فأعاد الله ، يأمر المؤمنين هذا الدين إلى معالم حقه الأولى ، وأطال يد سلطانه الطولى ، إلى أن تأخذ الأمور مأخذها عدلا واعتدالا ، وسلبا وقبالا ، فيعود إلى الإسلام ، عوايد ارتياحه ، وأيام منصوره وارتياحه^(٢١٧) .

ومع ذلك لا ننكر ما كان من عيوب ونقائص فى عماد الدين الأصفهاني ، باعتباره كاتباً . فإذا طرحنا جانباً الأجزاء ، التي يغلب عليها الفصاحة البيانية ،

والتي تؤلف مادة فصوله الموجهة إلى القاضى الفاضل ، وما أورده من وصف لهذه « الفصول » ، فإن ما سرده من فقرات ، كان يزينها ويزيد في اتقانها براعته في اللغة ، ومهارته اللفظية ، ومع ذلك فإن عباراتها كانت تدعو إلى الملل ، ما لم يساندها من الاثارة العاطفية ، ما يحمل القارىء على الاستجابة والانتباه . هذا ما حدث فعلا ، ولا سيما حينما يمعن في استخدام الاستعارات والتزام السجع ، ويعمد إلى فنون مختلفة من البديع ، بنفس الصيغ والكلمات . ونصادف مثالا لها في مستهل النصوص التالية وخاتمها . وفي وسع المؤرخ ، أن يلبس في العباد ، على حد قول أبي شامة ، أنه « طويل النفس في السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع ، عما سبق من القول وينسيه » (٢١٨) .

ومن الخطأ أن نعتقد أن كتاب عماد الدين الاصفهاني . ليس إلا تمجيذا وأشادة بأعمال صلاح الدين . فمن العسير أن نصادف فيه فقرة واحدة ، أفردتها لمدح صلاح الدين ، على النحو المعروف في الإغراق والمبالغة في المدح . فالأحداث والوقائع ، وتحركات الجيوش ، وسائر الناس ، كل ذلك لقي قدرا كبيرا من اهتمام عماد الدين الكاتب . وما حازه صلاح الدين من مجد ومكانة ، إنما يرجع في الواقع ، إلى أنه هو الروح المحركة من وراء ذلك كله . والواقع أن عماد الدين كان يعجب بصلاح الدين عن إيمان وإخلاص ، على أنه صور صلاح الدين في كل كتاباته على أنه شخصية شخص بالغ الإنسانية ، مفطور على السخاء ، تجاوز في إنسانيته سائر الأمراء ، اشتهر بالتواضع ؛ وعلى الرغم من أنه لم يكن معصوماً من الخطأ ، فإنه تغلغل في نفسه من الاعتقاد الراسخ ، ما سانده وأيده في كل حروبه ، وما صادفه من فشل . ولم يكن في هذا شيء من المبالغة ، إذ أن صلاح الدين ليس سوى ذلك (٢١٩) .

والفقرة التالية المستمدة من الجزء الخامس من كتاب البرق ، تروى

ما دار من المفاوضات بين صلاح الدين وبين أمير الموصل، سنة ١١٨٢ (٥٥٧٩) و ١١٨٤ (٥٥٨١) وجرى إختيار هذه الفقرة لأسباب عديدة .

أول هذه الأسباب ، ما أورده العماد من تفاصيل كثيرة ، على جانب كبير من الأهمية في إصدار حكم تاريخي ، قد حذفت في موجز أبي شامة (٢٢٠) ، وبعد مقارنتها بما أورده بهاء الدين بن شداد (٢٣١) ، الذي كان من أعضاء وفد الموصل في المفاوضات ، تبين إلى أي حد يمكن الركون والوثوق في عماد الدين الأصفهاني ، في تصويره للأحداث والأشخاص .

أما السبب الثاني ، فإن هذه الفقرة تعرض في وضوح وجلاء ، ما كان لأفراد عديدين من أهمية ، وما كانت عليه العلاقات بين صلاح الدين وكاتبه عماد الدين الأصفهاني .

ويضاف الى ذلك ، أنها تشرح أساليب عماد الدين الأصفهاني ، من الناحيتين القصصية والروائية ، لا سيما حين وصف رسل الموصل .

والسبب الأخير ، أن الحالة الفاسدة لبعض الفقرات ، سوف تدل على عيوب هاتين المخطوطتين ، وأنهما لا تعتبران أساسا صالحا لنشر النص ، نظرا لعدم نقط الحروف ، وكثرة الأخطاء الإملائية (٢٢٢) .

النص الأول

١١١ — ذكر وصول رسل دار الخلافة للشفاعة ،

ورد المواصلة بالمصلحة في المصالحة إلى الطاعة

١١ ب — ووصل إلينا الخبر ، بأن رسل دار الخلافة واصلون ، وفي أمر الموصل شافعون سائلون ، وهم صدر الدين شيخ الشيوخ ، وشهاب الدين بشير ، ومعهما من خواص الديوان جمع كثير . فتلقاهم السلطان بالصدر الرحب ، والبشر العذب ، والخلق السهل غير الصعب ، والسلام البكر من عوان الحرب ، والخطاب المتوجه اصرف وجه الخطاب ، وكنت إلى جنب السلطان

له مسائرا ، وإليه وله في المهام ناظرا مناظرا ، والموكب مشهود ، والمذهب مقصود ، والمطلب موجود ، والطالع مسعود ، والشارع محمود ، والملقى مودود ، والملقى مردود ، ولواء الإقبال معقود ، ورواء الإدبار مفقود ، وشعائر الدولة الإمامية المشرقة في أيامنا البيض سود ، والبنود غابة من فوقها عقبان ، ومن تحتها أسود . وما كان أشرح صدرى بلقاء الصدر ، وأتم بشرى بطلوع البدر ، وطاب برويته الرى والرىبا .

١١٢ - وشاع أن شيخ الشيوخ قد وصل في الصلح ، وإغلاق باب الفتح ، وحصراً قوادم الحصر ، وشيم صوارم النصر ، وبرجر الحرب ، ورد خبط الخطب ، وتقليل نيوب النوائب ، وتعليل شوائب الشوائب ، وتذليل الجوامح ، وتعديل الجوانح ، وتدمير الشئان ، وتدمير الشئون ، وتزويل الأحزان ، وتسهيل الحزون ، وتأليف النفوس النافرة ، وتوظيف النفائس الوافرة ، وإطفاء الوقود ، وإخفاء الحقود ، وإغمام السيوف ، وإخماد الختوف ، ووضع الأوزار ، ودفع الأوتار . . . وتقرير السلم ، وتقريب الحلم . . . ووصل رسول مظفر الدين قزل أرسلان حسن الجاندار ، محبا للإحسان واجتمعت رسل الآفاق داعين إلى الوفاق . فقال الذين لاذوا لنا من البلاد من الأجناد الأتراك الأكراد ، هؤلاء غدا يصطلحون وتندمل قروحهم على مايقترحون ، ونحن نحظى بالإخفاق وحرمان الأرزاق ، ونبوء بالشقاوة والشقاق ، وسوء سمعة النفاق ، ونقع في الحضيض ، ولا تقع بنا الخطوة ، . . . ويقطع إقطاعنا الموصل المحفوظ . (١٣ ب) فأخذوا أمان البلد ، ودخلوا . وكما طلمعوا لنا ، عنا أفلوا ، واعتذروا بأننا نسبنا ونسبنا على الخلاف ، لو أننا إليكم نسبنا . ووافقهم جماعة من أصحابنا ، طمعوا منهم في العطايا والخلع ، وهذه من أيسر جنائبات الطمع . ونحن نصرح بإبائه المصالحة والإستواء على المسكافة ، وترك قبول الشفاعة ، واستفراغ المجهود في شغل الحصر وبذل الاستطاعة . والناس يقولون هذا لا يستتم . وإن هذا الشعث لا يدوم ، بل يستمر . وفي كل يوم ، نناوب القتال ، ونعاقب النزال ، والملك المظفر تقي الدين .

يحمل من جانبه ويبيلى ، ومن وسعه فى الجلاذ لا يخلى ، ويجرى فى مضمار القتال ، وهو السابق المجلى ، وتاج الملوك آخر الساطان فى كل حلبة وجلبة نوبة ، يبارز ويحاجز ويناجز ، ويفترص ويفترس ، ويحترز ويحترس ، ويختلب ويختلس . والأقران تقترن ، والشجعان تصطفن ... وشيخ الشيوخ ينهى وينكر ، ويردد التوبيخ ويكرر ، ويقرر التقرير ويؤكد ، ويصد بالتغصب ويرد . ويقول كيف أحضر المحذور ، ولا أحذر المحذور ، وأنا جئت فى التوسط ، والمنع من التورط ، ولارضى مع التسخط ، وهذا (١٥٠) الفعل المقوت . إذا غبت لا يفوت ، فإن كان لى قبول ، وعلى إقبال ، واعقد حلولى لهذه العقد انحلال ، فتصبروا وتربصوا ، واسكنوا ولا تحرصوا ، حتى أرسل من اليوم إلى القول ، واتكفل فى متاع هذه المتاع ، برفع السوم ، وأحسنوا بترك ما لا يحسن . وأنزلوا الى اللين من النزال الذى يحسن ، واقبلوا تقبلوا ، وأعدلوا مما أتم فيه ، تعدلوا . فقلنا له ، السمع والطاعة ، والحب والكرامة ، وما أحسن مرادك ، إذا أردت السلم والسلامة ، وتحولنا إلى جانب لا يبعد عن الرسل ، طريقة ، ولا يفرق على البعد فريقة . وأرسل شيخ الشيوخ إلى القوم صاحبه ، وذكر مطلبه ، فشرعوا يبذلون كل يوم رسلهم ، ويملاون بالمراسلات الخادعة سبلهم . نخرج أول يوم جمال الدين محاسن ، مع أخى النقيب الشريف ، واستفتحنا فيما عراهم بالتقرير والتأييد . وكان حضورهم فى خيمة شيخ الشيوخ عنده ، وقد خلاهم ، وتخلي بهم وحده ، فانفذ إلى السلطان من عرفه وصولهم ، واستدعى منه ثقاته الذين يسمعون فصولهم ، فتقدم إلى القاضى الأجل الفاضل ، وإلى ، وإلى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى ، بأن نحصر ونحصى كل ما يقولونه ، ونحضر ونهى مانسمعه بفصله وقصه ، ونتلو مانعيه بظاهره ونصه ، فذهبوا ذلك اليوم بالشكاية ، ولم يوصلوا مبدأها إلى الغاية . ثم قالوا ندخل ونخرج غدا بالحديث المبين (١٥٠ ب) والأمر المعين ، ولا نخرج عن الممكن ، وجاموا ضجوة الغد مستقيمين فى جدهم على ذلك الجدد . وذكروا مطالب متكررة ومآرب

متعددة واقترحوا إعادة البلاد المأخوذة ، وقصدوا بها تغليل الحدود المشحودة ،
وأنا نعود إلى القررات تم نتكلم فيما يعود بجمع الأشتات ، وراموا بذلك
إذهاب الأوقات . ومكثنا على هذا السن ، وتفسخ العقود ، وتسيخ الزمن
قريبا من شهر ، لانتهى إلى أمر مستقر ، وهم يقصدون الخدع والختل ، وشيخ
الشيوخ ينسبنا إلى أننا لاثوثر الفصل . فدخلنا في كل ما ارادوه ، وزدنا في
جواب سؤال ما زادوه . وانفصل الأمر ، على أن ردوا علينا حلب ، وترد
على صاحب الموصل كل ما طلب . وكان قد عرف الأجل الفاضل ، فحوى
مقالهم ، ودعوى محالهم ، وإن وجه صلاحهم ، وصبح صلحهم ، لا يؤذن
بالإسفار والسفور ، فانقطع بعد أيام بعذر ذكره عن الحضور ، وكنت أحضر
أنا والفقهاء عيسى للسمع والإنهاء ، والتحمل والأداء . ثم انقطع الفقيه عنهم
وتأفف منهم ، واستمر ترددي ، ولم أجذب عن المهم يدي ، فوجدوا بذلك
مهلة ، وأصابوا الظمائم بوردهم وصددهم نهلة . وهم في أثناء ذلك يستنجدون
الأملاك ، ويستجدون الإشراك ، وينصبون الحباثل ، ويطلبون المقاتل ، ويجلبون
المخاتل ، ويستفسدون بالاطماع ، ويسترشدون بالخداع ، ويلتمسون وساطة
الأطراف ، ويظهرون الوفاق (١٦) ويذهبون في السوء مذهب الخلاف ،
حتى صفونا من اكدار الغرباء وعفونا عن أوزار الجبناء .

ذكرى دخول شيخ الشيوخ إلى الموصل

ولم يزل يمتحن الزبد ، وينتقض العقد ، ويتمحص الصواب ، وينفذ كل
حساب . حتى استقر أن يدخل إليهم شيخ الشيوخ ، لإبرام العقد المفسوخ ،
وإحكام العهد المنسوخ . وظن أن وردهم صفو ، وإن وعدم من الخاف خلو ،
وأن حقهم صحيح ، وأن صدقهم صريح ، فمضى لإيلافهم وإحلافهم ويرى
أخلافهم ، فظل وبات عندهم يومه وليله ، وأجرى في مضمار خيلهم خيله ،
وأراهم ميله ، ووفاهم كيله ، فسمع حديثاً حديثاً ... ووجد للخلاف مجالا

لم يجد للحلف محلاً إلا محالاً ، ورآهم متفرقين في طرق التلون والتلوم ، غير مجتمعين على سلوك النهج الأقوم ، وأنكروا كل ما ذكره رسوله ، وأنّ سوى ما سأله سولهم ، وأن صلاح الدين إن أراد وفاقنا ، ووافق مرادنا ، رحل من ورد بلادنا ، ونحن نخلي بينه وبين حلب ، ولا يطلب أيضاً عليها إسماعدنا ، فإن لعهاد الدين زنسكي أخينا معنا يمينا ، فكيف يجد منا عليه موعينا . فإن رضيتم بما سألنا ، وإلا فما سمع الناس وما قلنا . (١٦ ب) وكان المستقر مع الرسل أنهم يسلمون إلينا حلب ، ويستعيدون منا البلاد ، وتعقد معهم الوداد ، ويحضرون معنا الجهاد . ثم قدموه على ما قدموه من التمهير ، وأخذوا في غيره من التدبير . ولم يكن غرضهم له مرضياً ، فانصرف مغضباً مغضبياً . وخرج إلى بغداد متوجهاً ، وعلى مكر مكرهم متنبهاً . فجاءوا إليه ، وتعرضوا وتضرعوا ، وسألوا وتشفعوا . وقالوا تعود وتعيد ما سمعته ، وتحكي من المعنى ما استعملته (لعلمها استعملته) . فلعلك تأتي بالعلل بعد النهل ، وترد بلطفك من عنف علينا وصعب إلى المنهج الأسهل . فرجع بغير مارجا ، واستكثف كذبهم حجاب الحجا ، وما أضوا صباح ما جدّ فيه الماجد لو أن ليل جدّم ما دجا . فلما اجتمع بالسلطان ، استعفى من الكلام ، واستوفى حديث ما أبصره وسمعه من الأقسام . فقال له هذه أشهر شراف ، وميامن بقدمك طراف ، وقد عزمنا أن نرحل ، ونهب لوصولك الموصل .

النهج الثاني:

(١٢٩ ١) ذكر السبب المقتضى لهذه الرسالة

في هذه السنة ٥٥٨١ هـ (١١٨٤)

لما عرف صاحب الموصل ما تسنى لنا من فتح آمد وحلب ، وتيسر كل ما أراده السلطان وطلب ، خطر بياله خطر البلوى وعود العدوى ، واتساع خطب الخطوب إليه ، واتساق كوب الكروب عليه ، ففكر ففكر في حلاب الخلاب ، ومزج بماء التودّد طلاب الطلاب . ومال إلى الاستعطاء والاستعطاف . وتنسكب بالاستسكابة نهج الاستسكاف ، وشرع في استسعاد

سله (؟) الاستسعا ف . واستدعى من الديوان العزيز ، إرسال شيخ الشيوخ للاستشفاع ، لعلمهم أنا لا نرى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع . وندب قاضى القضاة محى الدين أبا حامد أحمد بن محمد بن عبد الله ابن القاسم الشهرزورى للرسالة من جانبه ، وناط بسعيه نجح مطالبه . فجاء فى جاه أنيق ، ولسان ذليق ، وأبهة وبهاء ، ورواية ورواء ، وتكفّل وتكاف ، وتطرق وتطرّف ، وترّفع وتعرّق ، وتقصع وتكشف ، وتارّج فى مهاب المهابة ، وتبلّج فى صباح الإصابة ، وتلق لما ترفع من راية المجد يمين عرابه ، وبرق فى ذروة الخطاب بجلوته على منبر من برّه الخطابية ، ولوتخلق بخلق مرسله فى الترفع بالتواضع ، ووصله إمكان التواصل بقطع أسباب التقاطع ، لكفى الفرص ، وشقى المرض . ولم يكن فى بلاغ بلاغ ، ولم يحدث قلبه فى المشغل شغل القلب ، وهو برى أنه مصحّ ، ونصح فراغ إلى فراغ ، فإنه لما وصل ، لزم ناموسه ، وأطال فى محل تساميه جلوسه ، وقطب بيسر وجهه عنده توجيه غرضه قطوبه وعبوسه ، وأظهر كأنه الأمين ، نزل بالوحى من السماء ، وجاء بعطارد فى بيته بالجوزاء ، ولم يأخذ فى طريق الاستجداء ، وظن أن فى ذلك لمخدومه نصيحة ، وخدمة صريحة ، وبقية صحيحة ، ونيابة فى كف نائبه كافة مريحة . على أن السلطان قابل شدته باللين ، وأعطاه يمينه على أخذ اليمين ، فاشتط واشترط ، وكلما قاربنا شرط ، وكلما أرضيناه سخط ، وكلما قويناه رجاءه قنط ، وكلما توخينا أمراً جامعاً للمصالح ، أبى إلا مراده المارد . ولم يوافق مصادرة الموارد ، ولو أنه تلتطفّ واستعطف ، وترقّق وما عنف ، وعرف وعزف ، وتألّف وما تأفف ، وعفا ما عاف وما تعنّف ، لو ضحت (١٣٠) المحجة ، وصحّت الحجّة ، وحصل المخطوب ، ووصل المطلوب . لكنه لزم ما لم يلزم ، وجزم ما لا يجزم ، وعيّن شرطاً له مانع ، وبين قسماً فيه منازع . وكان قد استعان بقوم من خواصّ السلطان تمشية الأمر ، بقدر الإمكان ، فحسّنوا ظاهراً له بواطنه ، وبأديابه كوامن ، وحلفا بيق معه الخلف ، ورفقاً لا ينتفى به العنف ، ووفقاً كله خلاف ، ووفاءً كله إخلاف .

ذكر كشف الحال في ذلك

كانت قد وصلت رسل صاحب الجزيرة وصاحب لاربل وصاحب تكريت والحديثة ، يشكون من صاحب الموصل ، ونكلياته وأثقاله (١٣٠ ب) الكبيرة الكثيرة ... وفي الاعتزاز بنا ، والاعتزاز اليانيرغبان. وكل أخذ من السلطان عهدا أن يحميه ويقه ، ويسعده ولا يشقيه . وانصرف رسلهم على هذا القرار . وشفعت شفاعتهم في أمورهم بالأمرار . ثم كان وصول صدر الدين شيخ الشيوخ ، ومحيي الدين الشهرزورى ، ووقع الشروع في حديث حادتهم . وإجازة دواعيهم ، وإجابة بواعثهم . وكان القاضي محي الدين الشهرزورى سألنا في المدرسة النظامية ريفي ، وآثقا في الأيام النورية صديقي . فصدقه في هذه المرة عن مشاورتي ، وصر فوه عن محاورتي ، ولو استشارني لعرفته النج ، ولقنته الحجة إذا احتج ، وسليكت به طريقا للبصالح جامعة ، وللعوائق رافعة . فصرت عن سره بمعزل ، حتى استقرت قاعدته ، ولم يبق إلا عقدة للتأليف تحرر ، ونسخة للتخليف تقرر . فاستدعاني السلطان ذات يوم غدوة ، وقال اكتب شرطاً يكون (١١٣١) لنا في الوفاق قدوة . فقلت له : كيف تستثنى بأولئك الذين توثقوا بعهدك ، وسكنوا إلى وعدك ، وهؤلاء لا يرضون بالاستثناء ، ولا يأتون إلا بالاباء . وكيف تنسب إلى ترك الوفاء ، وكيف يشيع هذا بين الأولياء والأعداء . فقال اكتب ما تنزهني فيه عن الخلف ، وتنهني به على صدق الخلف . فقلت تخلف لصاحب الموصل على موصله ، ونجح مؤمله ، واصفاه منهله ، وتجعل أمر أصحاب تلك البلاد إلى اختيارهم ، وتجرهم على إشارهم ، ومن اختاره ، فله عنده سؤاله وسؤاله ، وهو يشرع في استرضائهم واسترغابهم على وفق آرائهم . فإذا صح لنا في عودهم إليه أمرهم ، بسط عذرنا ، وقبض ذعرهم . فقال لي أمض الآن ، إلى شيخ الشيوخ ، وعرفه القضية وارضه بهذه الحالة المرضية ، وما فيها من المصلحة المرعية ، للرعاة والرعية . والملم أيضا بمحيي الدين ، وإنا قد أجبناه على هذه الشريطة إلى اليمين . فأما شيخ الشيوخ فإنه عرف واعترف ، وأسعد بالمراد وأسعف . وأما محيي الدين ، فإنه أبي

إلا الإباء، وأنكر الاستثناء، وقال لا نقبل ولا تُقبل. وهذا بما يستحيل، فلا ينجح به التأميل، ولا ينقطع به القال والقال، وأولئك في بلاد نوابنا، وفي ولاياتنا وأصحابنا، وفي خروجهم علينا ما لا يخفاه به من تفريق (١٣١ ب) الحكم، وتشتميت الشمل المنتظم، وتبتيث الجبل الملتئم. فإذا عرفوا أنكم لهم توثقتم، وعليهم أشفقتم، خرق إجماعهم، وطرقت أطماعهم، وزاغت عنا أبصارهم وأسماعهم، فتركونا وأيام، ولا تدركونا بكواهم، واعتذروا إليهم، بأننا إنما قبلناكم أيام السخط، وقربناكم في أوان الشحط، والان فقد كمل الصلح وشمل النجح، فأجروا على العادة ولا تخالفوا في الإرادة، فقلنا تأخذ منا الآن عهدا، كما شرعنا وشرطنا، وحفظنا به الجانب واحتطنا، واشرعوا أتم في الاستمالة، وتنكبوا طرق الاستمالة، فما قبل الرسول، ولا تم بقبوله السؤل. ثم استأذنوا في الانصراف، والاستيمان على ما تقرر من الاستحلاف. فأكرم الرسل الكرام، وقضيت حقوهم بكل تشریف وعطية، وتحفة وهدية. وكان صدر الدين شيخ الشيوخ، كبير الهمة، أثيرا لا يقبل قليلا ولا كثيرا. فإذا حمل إليه الطعام، فرقه على الاجناد الذين معه من الديوان الامامى، وعصم أخلاقه بالخلق العصامى، فما زلت به، حتى أجاب كل يوم إلى رغب وباجة. فلما خرجوا من دمشق، عازمين على السير، وعرف السلطان أنهم قد خيموا بالقصير، قال قد استحييت من صدر الدين شيخ الشيوخ، وأنه كلما ورد بالعقود صدر بالقسوخ، وقد عوات على أن أركب لو دأعه (١٣٢) وأقرب لاتباعه، وأقابل مثاله بامثاله، وأقبل مقالة لاجله وإجلاله، ونحن نشتر أرى رأيه وإشارته، ونكتب نسخة اليمن كما يمليه بعبارة. فسبقت إليهم بأمر السلطان وعرفتهم بسرعة وصوله، وشرعة قبوله، فلما وصل، نزل في خيمة الصدر متضح البشر، ثم كشف له عن القناع بما سأل... القناع، وسأله بالرسول في عقد الاجماع والاجتماع، فأرسل اليه من يعمله بالأمر، ويقفه على السر، ويضيق عليه سعة العذر. فلما رأى تواضع السلطان، ترفع ونسى ما اقترح، ولم يذكر ما اخترع، وقال انا بعد ماجرى

من الحال ، لا رغبة لي في الاسترسال ، حتى أنهى إلى من خصني بالارسال . ولعلكم اعتقدتم أنه ليس لنا مظاهر ولا مظافر ولا موارر . بل لنا من يسأل عنا ، ويشتمل علينا ويعصمنا ويميل إلينا . ونحن نكاتبه نستشر به ، ولا تتوخي خلاف مذهبه . وأشار إلى سلطان العجم والبهلوان ، فأذن هذا القول بنفاد السلطان ، وترك ما عزم عليه ، وودع وركب ، وبعد الأمر الذي كان قرب . وكان قد أرسل للأطفاء فأسعر ، وللأستجداء فتكبر ، وللإخمد فاشعل ، وللإرشاد فأذهل ، وللتقليل فأكثر ، والإقالة فعثر ، وللأسترضاء فأغضب ، وللإتباع فانصب ، وللأستعانة فاشند ، وللأستسكانة فاحتد ، وللأستعطاف فسمح ، وللأستعطاء فدمح (١٣٢ ب) ، وللأسو ففقر ، وللصفو فكدر . وكان السلطان فآثر العزم في العود إلى الموصل ، فهاجه وحرّف إليها مزاجه ، وسدّد لها منهاجه . فلو تمسك منه بظاهر اليمين ، لوضع يده في يد أمين ، وفاز لمرساله في مكانه بتمكين، (٢٢٣) .

ومن كل ذلك يتبين أنه بدلا من أن تتوافر لدينا مجموعة من المصادر الأصلية عن صلاح الدين ، والتي تعتبر معاصرة له ، لم يكن ثمة إلا مصدرا أصليا واحدا عن صلاح الدين ، قبل سنة ١١٨٨ ، وهي السنة التي اتصل فيها ابن شداد بصلاح الدين . وهذا المصدر ، جرى تذييله بإضافات متفرقة من المصادر الأخرى ، وأهمها ابن أبي طى . وما هو أسوأ من ذلك أن نحو ثلثي ما وصل إلينا من هذه المصادر ، إنما جاء في الاقتباسات والمقتطفات الواردة في كتاب أبي شامة (٢٢٤) .

على أنه إلى أي حد نستطيع أن نعتمد على صدق مصدرنا الوحيد ، البرق الشامى ، الذى ألفه عماد الدين الأصفهاني عن صلاح الدين؟

الواقع أنه متى تم انتزاع المحسنات اللفظية ، واستبعدنا ما جرى من إسهابه في رواياته ، فإن تقريره للحوادث يعتبر سليما ومتزنا ، وخاليا من المبالغة والمغالاة . فإذا توقعنا منه التشيع والتحيز لصلاح الدين ، لفرط إعجابه به ، وشدة تعلقه به ، فالواقع أن عماد الدين الأصفهاني أفاد كلا من ابن أبي طى ،

يرغم اتهامه بالعمل على تشويه سمعة نور الدين ، وابن الأثير ، الذي اشتهر
بجرايمته لصالح الدين ، وتعمد إسادة سمعة صلاح الدين . ولا بد أن نقرر
أيضاً أنه من الخطأ الفاحش ، أن تصور أن الصياغة البلاغية في البرق الشامي ،
إنما الغرض منها الإشادة بصلاح الدين وتملقه ؛ فقلنا عثرنا فيه على عبارة
واحدة ، خص بها العماد مدح صلاح الدين وحده . (٢٢٥)

ومن المحقق أن عماد الدين أظهر عميق الإعجاب بصلاح الدين ، غير
أن عظمة صلاح الدين كانت وليدة الحقائق والوقائع . ففي البرق جرى
تصوير صلاح الدين في عبارات إنسانية واقعية ، فاقت ، من بعض
النواحي ، ما أورده ابن شداد في سيرة صلاح الدين . وبينما كان شعور
ابن شداد وعاطفته نحو صلاح الدين ، يرجع إلى ما بينهما من التقارب في الروح ،
فإن ما خلفه البرق الشامي من تأثير ، هو أن هذا الكتاب من عمل موظف
مدني ، متزن ، متدرب علمياً بأساليب السلاطين ، وخبير بمعاملة الموظفين ،
ألف معالجتهم وتسييرهم إذا اقتضت الضرورة ذلك . ودون أعمالهم بما
أنصفت به مهنته من الدقة ، وبما اشتهر به من خصوبة الخيال ، والتحكم في
اللغة والألفاظ (٢٢٦) .

أما دقة العماد في روايته وتقريره ، فإنه يكفي أنه إذا جرت مقارنتها
بغيرها من المصادر الأصلية ، أمثال كتاب وليم الصوري ، وأرنول ،
وهن إليهما من المؤرخين اللاتين للحرب الصليبية الثالثة . لمسنا بينها قدراً
كبيراً من المطابقة في المادة بصفة عامة ، ويصح أن يمتد هذا التطابق إلى
التفاصيل . فإذا لم يكن لدينا إلا هذا المصدر الأصلي عن الشطر الأكبر
من الحياة العامة لصلاح الدين ، فإن ذلك المصدر يعتبر بالغ الصدق والأمانة ،
فيما يتعلق بدراية المؤلف بالحقائق ، وفيما يتصل بعرض هذه الحقائق (٢٢٧) .

ويصح أن نتساءل أيضاً عن العلاقة والصلة بين ما نقله أبو شامة في كتاب
الروضتين من كتاب البرق الشامي ، وبين النص الأصلي لهذا الكتاب ،

نظراً لأن ثلثي الكتاب الأصلي ، قد أورده أبو شامة في كتابه ، وما مدى الصدق والأمانة التي نعول عليها في موجز الروضتين ، لما له من أهمية بالغة؟

الواضح أنه فيما يتعلق بما في البرق الشامى من مادة تاريخية سليمة ، تجلت المهارة والاهتمام في صياغة موجز أبي شامة وتأليفه . ومن الطبيعي أن هذا الموجز يفتقر إلى ما كان للأصل من صفة الإخلاص ، والصفة الشخصية . فما اشتهر به النص الأصلي للبرق الشامى من طابع الملحمة ، لم يرد إلا قليلاً في موجز أبي شامة ، بل إن المؤلف (أبو شامة) عمد إلى التخلص ، دون رحمة ، من كل التراكيب والصيغ الأدبية الخالصة ، فجرى اقتطاع صفحات بأكملها أو اختصارها إلى سطر واحد . ولم يقتبس من الرسائل المطولة إلا فقرات وتنفأ ، وجرى حذف كثير من الوثائق السكاملة ، التي تلقى ضوءاً على القواعد والأسس ، التي قامت عليها إدارة صلاح الدين (٢٢٢٨) .

وحدث في بعض الاحوال أن لجأ المؤلف (أبو شامة) إلى إعادة ترتيب ما نقله من مادة عن البرق الشامى . غير أن كل ما اعتبره أبو شامة صالحاً ومقبولاً ، أورده في موضعه السليم ، ولا بد أن أباشامة حذف شيئاً كثيراً من الكتاب الأصلي ، ويصح أن ما حذفه ، في بعض الاحوال يعتبر بالغ الأهمية في تقديرنا . غير أن ما أضافه أبو شامة ، إلى روايات عماد الدين الاصفهاني ، حرص فيه على أن يبرزها ويظهرها . ولذا نستطيع أن نطمئن إلى أن موجزه يمثل في أماته ، محتويات البرق الشامى ، على الرغم من أن قدراً كبيراً من المادة القيمة التي احتواها الاصل ، لا يمكن في الوقت الحاضر استعادتها وإستكمالها نظراً لضياح معظم أجزاء الكتاب الأصلي (٢٢٢٩) .

والخلاصة ، يصح أن نصف المصادر الاصلية عن سيرة وتاريخ صلاح الدين على النحو التالي :

١ - مؤلفات عماد الدين الاصفهاني ، أي ما هو موجود من أجزاء البرق الشامى ، والفتح القسبي منذ سنة ١١٨٧ .

٢ - سيرة صلاح الدين (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لمؤلفها
جهاء الدين ابن شداد ، منذ سنة ١١٨٨ .

٣ - والفترات الممتدة، من سنة ١١٦٩ حتى سنة ١١٧٦ ، ومن منتصف
سنة ١١٨٠ إلى منتصف سنة ١١٨٢ ، ومن منتصف سنة ١١٨٢ إلى مستهل سنة
١١٨٧ ، عالجهما ماورد في الروضتين من اقتباسات عن العماد الكاتب، ويعتبر
ذيلها عليها المقتطفات الواردة في الروضتين أيضاً ، والمستمدة من ابن أبي طى .
على أن أبا شامة، نقل في بعض الأحوال ، عن أحداث الفترة الممتدة من سنة
١١٨٧ إلى سنة ١١٩٢ ، من البرق تفاصيل لم ترد في الفتح القسى ، أو لم تكن
وافة فيه (٢٣٠) .

حواشى الكتاب



المفتدين

مقدمة

Krey, A. C. : The First Crusade, p. 1. (١)

Babcock, Krey : History of the Deeds done beyond the Sea, (٢)
Introduction, p. 3.

Krey : op. cit. p. 3. (٣)

(٤) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٣٧ .

Deherain, H. : Les Origines du Recueil des Historiens des Croisades (٥)
des. Journal des Savants Sep. Oct. 1919. pp. 260—266.

Paetow : Guide to the study of Medieval History, p. 236. (٦)

Paetow : op. cit. p. 236. (٧)

باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

Cahen : Syrie du Nord, p. 6. (٨)

(٩) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٣٩ .

Sybel : The History and Literature of the Crusades, p. 99. (١٠)

Ibid : p. 100. (١١)

الفصل الأول

التقارير الرسمية والرسائل الصادرة عن أفراد من الصليبيين

- Krey : op. cit. p. 5. (١)
- Inventaire critique (Paris 1880) — Archives de L'Orient Latin I. (٢)
- Martène, E., U. Durand : *Thesaurus novus anecdotorum seu* (٣)
collectio monumentorum, complectens regum ac principum abo-
iumque virorum illustrium epistolas et diplomata bene multa.
5 Vols Paris, 1717.
- Krey : op. cit. pp. 69—70. (٤)
- Mansi, J. D, others : *Sacrarum conciliorum nova et amplissima* (٥)
collectio — 31 Vols. Florence Vinice ; 1759—1798.
- Sybel : op. cit. pp. 102—103. (٦)
- Krey : op. cit. pp. 131—132. (٧)
- D'Achery *Spicilegium* III, p. 431 (Paris 1723). (٨)
- Albert of Aix, III, p. 64. H. (٩)
- Sybel : op. cit. p. 105. (١٠)
- Krey : op. cit. pp. 144—147. (١١)
- Martene : p. 272. (١٢)
- Sybel : op. cit. p. 105. (١٣)
- Fulcher : p. 399. (١٤)
- Sybel : op. cit. pp. 105—106.
- Krey : op. cit. pp. 195—196. (١٥)
- Sybel : op. cit. p. 106.

الفصل الثاني

التواريخ

الكتاب الذين شهدوا الحرب الأولى

- Krey : op. cit. p. 6. (١)
- Krey : op. cit. p. 6. (٢)
- Sybel : op. cit. p. 109. (٣)
- Ibid : p. 109. (٤)
- باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٤١ . (٥)
- Visions of Petra Partholomew and Others, p. 152. (٦)
- Sybel : op. cit. p. 109. (٧)
- Sybel : p. 110. (٨)
- Krey : pp. 163—189.
- Sybel : op. cit. p. III. (٩)
- Ibid : p. III. (١٠)
- Sybel : p. 112. (١١)
- Ibid : p. 112. (١٢)
- Bongars : Gesta Dei, p. 1. (١٣)
- Tudebod : Historia de Hierosolymitans itinere Duchesne IV. (١٤)
p. 773.
- باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٤٤ .
- Sybel : op. cit. p. 112. (١٥)
- Gesta Francorum, pp. 810, 811. (١٦)
- باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٤٤ . (١٧)
- Sybel : op. cit. p. 113. (١٨)
- Gesta Francorum, pp. 782, 788. (١٩)
- Sybel : op. cit. p. 113.
- Ibid : p. 114. (٢٠)

- Ibid : p. 114. (٢١)
- Ibid : p. 114. (٢٢)
- Ibid : p. 114. (٢٣)
- Revue de L'Orient Latin, I, p. 145. (٢٤)
- حبشى : أعمال الفرنجة ، ص ٩ . (٢٥)
- Krey : op. cit. p. 7. (٢٦)
- Sybel : op. cit. p. 115. (٢٧)
- أعمال الفرنجة ، ص ٧ — ١٧ . (٢٧)
- Krey : op. cit. p. 7. (٢٨)
- Sybel : op. cit. p. 115. (٢٩)
- Sybel : p. 115. (٢٩)
- Krey : op. cit. p. 7. (٣٠)
- Ibid : p. 7. (٣١)
- حبشى : أعمال الفرنجة ، ص ١٠ . (٣٢)
- Histoire Anonyme, p. 11. (٣٣)
- Ibid : p. 11. (٣٣)
- حبشى : أعمال الفرنجة ، ص ١٠ — ١١ . (٣٣)
- Krey : op. cit. p. 7. (٣٤)
- Krey : p. 7. (٣٥)
- الفقرة ٢٩ من المتن (انظر طبعة Brehier) . (٣٦)
- Histoire Anonyme, p. 11. (٣٧)
- الفقرة ٣٨ . (٣٧)
- الفقرة ٢٠ . (٣٨)
- الفقرة ٢٩ . (٣٩)
- الفقرة ٣٠ . (٤٠)
- Ibid : p. III. (٤١)
- الفقرة ٢٨ . (٤١)
- Ibid : p. III. (٤٢)
- الفقرة ٢٩ . (٤٢)
- Ibid : p. IV. (٤٣)
- حبشى : أعمال الفرنجة ص ١١ . (٤٣)
- Sybel : p. 115. (٤٤)
- الفقرة ١٨ . (٤٤)
- Sybel ; op. cit. p. 116. (٤٥)
- Histoire Anonyme, p. 49. (٤٦)
- Sybel : op. cit. p. 116. (٤٧)
- Ibid : p. 117. (٤٨)

- Ibid : p. 117. (٤٩)
- Ibid : p. 117. (٥٠)
- Krey : op. cit. p. 7.
- Sybel : op. cit. p. 117. (٥١)
- Ibid : p. 117. (٥٢)
- Ibid : p. 118. (٥٣)
- Ibid : p. 118. (٥٤)
- Michaud : Histoire des Croissades, I, pp. 187, 475. (٥٥)
- Wilken : Geschichte der Krewzzüge, I, pp. 156—223.
- Sybel : op. cit. p. 118. (٥٦)
- Histoire Anonyme, pp. 45—51. (٥٧)
- Sybel : pp. 115—127, 151—153. (٥٨)
- Sybel : op. cit. p. 119. (٥٩)
- Ibid : p. 119. (٦٠)
- Ibid : p. 119. (٦١)
- أنجيل متى: ١٦ : ٢٤ ، مرقس ٨ : ٣٤ ، لوقا ٩ : ٢٣ .
- (٦٢) الرسالة الثانية إلى نيموتاؤس ١ : ٨ .
- Sybel : op. cit. p. 120. (٦٣)
- Krey : op. cit. p. 7.
- Sybel : op. cit. p. 120. (٦٤)
- Ibid : p. 121. (٦٥)
- Histoire Anonyme, p. XVII.
- Ibid : p. XVII. (٦٦)
- Sybel : op. cit. p. 121. (٦٧)
- Ibid : p. 121. (٦٨)
- Ibid : p. 121. (٦٩)
- Ibid : p. 121. (٧٠)
- Ibid : p. 138. (٧١)

- ibid : p. 139. (۷۲)·
Sybel : op. cit. p. 139. (۷۳)·
ibid : p. 139. (۷۴)·
ibid : p. 104. (۷۵)·
ibid : p. 140. (۷۶)·
ibid : p. 141. (۷۷)·
Sybel : op. cit. p. 142. (۷۸)·
Bongars : p. 561. (۷۹)·
Sybel : op. cit. p. 142. (۸۰)·
ibid : p. 142. (۸۱)·
ibid : p. 143. (۸۲)·
انظر کتاب فولشر ، ص ۷۴۰ . (۸۳)
Sybel : op. cit. p. 144. (۸۴)·
ibid : p. 144. (۸۵)·
ibid : pp. 144—145. (۸۶)·
ibid : pp. 145—146. (۸۷)·

الفصل الثالث

مؤرخون نقلوا عن شهود عيان

- Sybel ; op. cit. p. 122. (١)
- Krey ; op. cit. p. 11. (٢)
- Sybel ; op. cit. p. 122. (٣)
- Ibid ; p. 123. (٤)
- Ibid ; p. 124. (٦)
- Ibid : p. 124. (٧)
- Sybel ; op. cit. p. 125. (٨)
- Lappenberg ; II, p. 224. (٩)
- Albert of Aix ; p. 299. (١٠)
- Sybel ; op. cit. p. 125. (١١)
- Gesta Dei Per Francos (Rec. Occid. IV), (١٢)
- Sybel ; op. cit. p. 126. (١٣)
- Krey ; op. cit. p. 11. (١٤)
- Sybel ; p. 126. (١٥)
- Ibid ; p. 126. (١٦)
- Ibid : p. 127. (١٧)
- Ibid : p. 127. (١٨)
- Ibid : p. 127. (١٩)
- Ibid : p. 128. (٢٠)
- Historia Hierosolymitana. (Rec. Occid. IV) (٢١)
- Sybel : op. cit. p. 128. (٢٢)
- Ibid : p. 128. (٢٣)
- Ibid : p. 128. (٢٤)

ibid ; p. 129.	(२६)
ibid ; p. 129.	(२७)
ibid ; pp. 129—130.	(२७)
History of the Crusades of our Times.	(२८)
Sybel ; p. 130.	(२९)
Sybel ; op. cit. pp. 131—132.	(३०)
ibid ; p. 134.	(३१)
Michaud ; Bibliotheque des Croissades - Gilo.	(३२)
Sybel ; op. cit. p. 135.	(३३)
ibid ; p. 135.	(३६)
ibid ; p. 136.	(३७)
ibid ; p. 136.	(३७)
ibid ; p. 136.	(३७)
Sybel ; p. 137.	(३८)
ibid ; pp. 137—138.	(३९)

الفصل الرابع

رودلف ، ايكارد

- Sybel : op. cit. p. 147. (١)
Cahen : op. cit. p. 11.
Sybel : p. 146. (٢)
Ibid : p. 148. (٣)
Ibid : p. 148. (٤)
Ibid : p. 148. (٥)
Ibid : p. 149. (٦)
انظر الفصل ٩٩ من كتاب رودلف . (٧)
Sybel : op. cit. p. 149. (٨)
Pertz : Archive, p.524. (٩)
Cahen : op. cit. p. 12.
Sybel : p. 150. (١٠)
Pertz : Archive, pp. 482, 484.
Sybel : p. 150. (١١)
Ibid : p. 151. (١٢)
Ibid : p. 152. (١٣)
Ibid : pp. 152—153. (١٤)
Ibid : p. 153. (١٥)
Ibid : p. 154. (١٦)
Ibid : p. 154. (١٧)
Sybel : op. cit. p. 154. (١٨)
Ibid : p. 155. (١٩)
Ibid : p. 155. (٢٠)
Ibid : p. 155. (٢١)
Ibid : p. 157. (٢٢)



الفصل الخامس

ألبرت قسيس آخن

Sybel : op. cit. p. 160.	(١)
Albert : I, p.24.	(٢)
Ibid : II, p. 33.	(٣)
Ibid ; III, p. 2.	(٤)
Ibid : IV, p. 55.	(٥)
Ibid : VI, p. 24.	(٦)
Albert : VI, p. 50	(٧)
Ibid : VIII, p. 21.	(٨)
Sybel : op. cit. p. 161.	(٩)
Ibid : p. 162.	(١٠)
Ibid : p. 162.	(١١)
Ibid : p. 162.	(١٢)
Ibid : p. 163, Note 1.	(١٣)
Sybel : op. cit. p. 163.	(١٤)
Ibid : p. 164 .	(١٥)
Albert : II, p. 10.	(١٦)
Sybel : p. 164.	(١٧)
Albert : II, p. 21.	(١٨)
Albert : II, p. 22.	(١٩)
Albert : III, p. 1.	(٢٠)
Albert : III, p. 3, 4, 58.	(٢١)
Ibid : III, pp. 35—36.	(٢٢)
Ibid : III, pp. 35—36.	(٢٣)
Sybel : p. 165.	
Albert : III, p. 54.	(٢٤)
Sybel : p. 166.	(٢٥)
Albert : IV, p. 2.	(٢٦)
Albert : III, p. 31.	(٢٧)
Albert : IV, p. 6.	(٢٨)
Albert : III, p. 62.	(٢٩)

- Albert : IV, p. 7. (٣٠)
Albert : IV, p. 10. (٣١)
Sybel : p. 167. (٣٢)
Albert : V, p. 46, VI, p. 12. (٣٣)
Albert : III, p. 59, VI, p. 55. (٣٤)
Albert : VII, p. 2, 5. (٣٥)
Sybel : op. cit. p. 168. (٣٦)
(٣٨) الفصل الثامن — في مستهله .
(٣٩) الفصل ٣١ ، ٣٤ .
(٤٠) الفصل ٣٦ .
Sybel : p. 169. (٤١)
Sybel : p. 169. (٤٢)
Ibid : p 170. (٤٣)
Albert : III, p. 3. (٤٤)
(٤٤) يشير في الفصل ١٦ ، الى أن صيدا سقطت بعد سنة من سقوط طرابلس ، وهذا صحيح ، والمقصود هنا هو الإشارة إلى الخطأ في التوقيت .
(٤٥) هذا مع العلم بأن سياق الرواية يحدد تاريخ الهجوم .
Wilken : II, p. 289. (٤٦)
Michaud : Bibliotheque, IV, p. 28.
Sybel : op. cit, p. 170. (٤٧)
Albert : XI, p 40.
Sybel : op. cit. p. 171. (٤٨)
Sybel : op. cit. p. 172. (٤٩)
Ibid : p. 172. (٥٠)
Sybel : op. cit. p. 172. (٥١)
Ibid : p. 173. (٥٢)
Sybel : op. cit. p. 173. (٥٣)
Ibid : p. 173. (٥٤)
Sybel : op cit. p. 174. (٥٥)
Albert : IV, p. 43. (٥٦)
Sybel : op. cit. p. 175. (٥٧)
Ibid : p. 175. (٥٨)
Ibid : p 175. (٥٩)
Sybel : op. cit. p. 176. (٦٠)
Guibert : p. 522. (٦١)
Sybel : p. 177. (٦٢)

Sybel : op: cit. p. 176.	(۶۳)
W. T. Prae. Liln XVI.	(۶۴)
William of Tyre Lib. LXC. 16.	(۶۵)
W. T. IX 17, XX 40, XXI 26.	(۶۶)
Sybel : p. 178.	
Sybel : op. cit. p. 178.	(۶۷)
Ibid : p. 178.	(۶۸)
Ibid : p. 179.	(۶۹)
Ibid : p. 179.	(۷۰)
Baldrich : p. 120	(۷۱)
Guibert : p. 496.	(۷۲)
Ibid : p. 499.	(۷۳)
Ibid : p. 561.	(۷۴)
Ibid : p. 560.	(۷۵)
Sybel : op. cit. p. 180.	(۷۶)
Albert III, 4, Guibert : p. 537.	(۷۷)
Fulcher : p. 391.	(۷۸)
Gesta Expug Hieros, p, 566.	
Albert : IV, p. 15.	
Albert : I, p. 25,	(۷۹)
Chronogr. Saro, A. D. 1096 Ekkehard, C. II.	
Sybel : op cit. p 180.	(۸۰)
Albert : II, 38, Gilo p.216.	(۸۱)
Radolph, C. 21.	
Rad. C. 36.	(۸۲)
Albert : Lib III. p. 5.	(۸۳)
Sybel : op. cit. p. 181.	(۸۴)
Albert : II, p. 14.	(۸۵)
Ordonic : p. 727.	(۸۶)
Sybel : op eit. p. 183.	(۸۷)
Sybel : op. cit. p. 183.	(۸۸)
Ibid ; p. 183	(۸۹)
Ibid : p, 184	(۹۰)
William of Tyre : pp. 780, 790, 797.	(۹۱)
Albert : p. 308.	(۹۲)
Sybel : p. 185. Albert : p. 331.	(۹۳)

- Sybel : op. cit. p. 185. (٩٤)
Ibid : p. 185. (٩٥)
Ibid : p. 189. (٩٦)
Fulcher : p. 407. (٩٧)
Caffaro, ap. Muratore VI, p. 249. (٩٨)
Sybel : p. 186. (٩٩)
Fulcher : p. 410. (١٠٠)
Sybel : p. 187. (١٠١)
Ibid : p. 188. (١٠٢)
Fulcher : p. 414. (١٠٣)
Fulcher : p. 416. وذلك في يولية (١٠٤)
Sybel : op. cit. pp. 188—189. (١٠٥)
Ibid : p. 189. (١٠٦)
(١٠٧) أورد قبل ذلك ما سبق أن أشار إليه عن سنة ١١٠٣ ، بينما يذكر كافارو
ص ٥٣ *Primo anno bujus compagne* سنة ١١٠٤ ، على أن الصلة بين الروايتين
تؤدي إلى كشف الخطأ ، وإلى تصحيح التاريخ وجمله سنة ١١٠٢ .
Sybel : p. 189.
Albert : XII, p. 9. (١٠٨)
Fulcher : p. 420. (١٠٩)
Notices et Extraits, IX, p. 325. (١١٠)
Sybel : p. 191.
Sybel : p. 191. (١١١)
Ibid : p. 192. (١١٢)
Ibid : p. 193. (١١٣)
Ibid : p. 193. (١١٤)
Sybel : p. 194. (١١٥)
Ibid : p. 194. (١١٦)
Sybel : p. 194. (١١٧)
Sybel : pp. 195—196. (١١٨)

المصطلح السائد

وليم الصوري (١١٣٠ - ١١٨٤)

WILLIAM OF TYRE

- Grousset : *Histoire des Croissades*, II, pp. 1—11. (١)
- Babcock : *William of Tyre*, p. 6. (٢)
- Babcock : *op. cit.* p. 7. (٣)
- Sybel : p. 197.
- Babcock : p. 7. (٤)
- Ibid : p. 7. Sybel : p. 197. (٥)
- Babcock : *op. cit.* p. 7. (٦)
- Byrne : *Gerçese Trade with Syria*. (٧)
AHR. XXV (1919—1920), pp. 191—219.
- Babcock : *op. cit.* p. 8.
- Ibid : p. 8. (٨)
- Ibid : p. 9. (٩)
- Babcock : p. 9. (١٠)
- Ibid : p. 9. (١١)
- Babcock : p. 9. (١٢)
- Ibid : p. 10. (١٣)
- Babcock : p. 10. (١٤)
- Ibid : p. 10. (١٥)
- Recueil des Historiens des Croissades (Historiens Occidentaux), I, (١٦)
p. 1004.
- Babcock : *op. cit.* p. 10. (١٧)
- Sybel : *op. cit.* p. 198.
- Rashadall : *The Universities of Europe in the Middle Ages*, I, (١٨)
p. 110 note 2.
- أما الإشارة إلى أن وليم درس القانون في روما ، فناقصها :
- Krey : *The making of an Historian in the Middle Ages*, *Speculum*, XV,
(1941), p. 149, 166.
- Babcock : *op. cit.* p. 10. (١٩)
- Babcock : *op. cit.* p. 11. (٢٠)
- Ibid p. 12. (٢١)

- Babcock: op. cit. p. 12. (۲۲)
- Ibid : p. 12. (۲۳)
- باركر : الحروب الصليبية ، ص ۹۷ . (۲۴)
- العربي : مصر زمن الأيوبيين، ص ۲۸ — ۲۹ . (۲۵)
- Runcimon : op. cit. II., p. 377. (۲۶)
- Babcock : op. cit. p. 12. (۲۷)
- Babcock : p. 12. Sybel : op. cit. p. 198. (۲۸)
- Ibid : p. 13. (۲۹)
- Babcock , op cit. p. 13. (۳۰)
- Ibid : p. 13. (۳۱)
- Babcock : op. cit. p. 14. (۳۲)
- Sybel : p. 198. (۳۳)
- Babcock : p. 14. (۳۴)
- Ibid : p. 14. (۳۵)
- Ibid : p. 14. (۳۶)
- Ibid : p. 15. (۳۷)
- Ibid : p. 15. (۳۸)
- Babcock : op. cit. p. 15. (۳۹)
- Balduini III, Historia Nicæna vel Antiocliena necnon Jerosoly- (۳۹)
mitana in R. H. C. Oc. V. pp. 133—185.
- Babcock : op. cit. p. 15. (۴۰)
- Ibid : p. 15. (۴۱)
- Hitti : An Arab, Syrian Gentleman and Warrior in the Period (۴۲)
of Crusades, p. 61.
- Babcock : op. cit. p. 16. (۴۳)
- Sybel : p. 198. (۴۴)
- Ibid : p. 16. (۴۵)
- Ibid : p. 17. (۴۶)
- Ibid : p. 17. (۴۷)
- Babcock : p. 17, note 18, p. 56, note, 10. (۴۸)
- Ibid : p. 17. (۴۹)
- Ibid : p. 18. (۵۰)
- Ibid : p. 18. (۵۱)
- Babcock : op. cit. p. 18. (۵۲)
- Babcock : p. 19. (۵۳)
- Runciman: History of the Crusades, II, pp.414—416.

Runciman : op. cit. II, p. 417.	(۵۳)
William of Tyre, XXI, 20-24	(۵۴)
Babcock : op. cit, p. 19.	(۵۵)
Ibid : p. 19.	(۵۶)
Ibid : p. 20.	(۵۷)
Ibid : p. 19.	(۵۸)
Ibid : p. 21.	(۵۹)
Runciman : op. cit. II, p. 425.	(۶۰)
Grousset : <i>Historie des Croissades</i> II, p.722-723	
Babcock , op. cit. p. 22.	(۶۱)
Ibid : p. 22.	(۶۲)
Ibid : p. 22.	(۶۳)
Ibid : p. 23.	(۶۴)
Babcock : p. 23.	(۶۵)
Ibid : p. 23.	(۶۶)
Runciman : op. cit. II, p.432-433.	(۶۷)
Grousset : op. cit. II, p. 718-719.	(۶۸)
Babcock : op. cit. p. 24.	(۶۹)
Ibid : p. 24.	(۷۰)
Runciman : op. cit. II, p.439-440.	(۷۱)
Babcock : op. cit. p. 24.	(۷۲)
Ibid : p. 24.	(۷۳)
Ibid : p. 25. Sybel : p. 199.	(۷۴)
Babcock : op. cit. p. 26.	(۷۵)
Sybel : p. 199.	
Babcock : op. cit, p. 26.	(۷۶)
Ibid : p. 26.	(۷۷)
Ibid : p. 27. notes, 29.	(۷۸)
Babcock : p. 27.	(۸۰)
Ibid : p. 28.	(۸۱)
Sybel : op. cit, p. 199.	(۸۲)
Babcock : op. cit, p. 28.	(۸۳)
Ibid : p. 28.	(۸۴)
Ibid : p. 29.	(۸۵)
Ibid : p. 30. Sybel , p. 201.	(۸۶)

Sybel : op. cit. p. 201.	(८५)
William of Tyre, XII, 21.	
Fulcher : p. 434.	
Ibid : IX, 13.	(८६)
William of Tyre, XX, 20.	(८७)
Ibid : XIX, 4.	(९०)
Ibid : XIX, 17, 28.	(९१)
William of Tyre, XX, 20.	(९२)
Sybel : op. cit. p. 199.	(९३)
Ibid : p. 203	(९४)
William of Tyre, VII, 1.	(९०)
Ibid : XVI, 5.	(९६)
Ibid : XVII, 7.	(९७)
William of Tyre XIX, 10. XX, 5.	(९८)
Runciman : op. cit. II. p. 416—417.	(९९)
William of Tyre XXI, 20—24.	(१००)
Sybel : op. cit. p. 204.	(१०१)
Babcock : op. cit. p. 80.	(१०२)
Fulcher : pp.381—385.	(१०३)
William of Tyre : I, 8, 16.	
Sybel : op. cit p. 211.	(१०४)
William of Tyre : XIX, 14, 19, 22, 26.	(१००)
Sybel : op. cit, p. 213.	(१०६)
Babcock : p. 31.	(१०७)
Ibid : p. 31.	(१०८)
Ibid : p. 31.	(१०९)
Sybel : op. cit, p. 207.	(११०)
William of Tyre, XII, 20, 21.	(१११)
Fulcher : p.434.	
Sybel : op. cit, p. 207.	(११२)
Ibid : p. 207.	(११३)
Wilken : III, I, 239.	(११४)
Sybel : op. cit, p. 208.	(११०)
Babcock : op. cit, p. 33.	(११६)

- Sybel : op. cit, p. 205. (۱۱۷)
- Manitwis : Lateinische Literatur III. pp. 430 — 439. (۱۱۸)
- Babcock : op. cit, p. 34 note 35. (۱۱۹)
- Ibid : p. 35. (۱۲۰)
- Ibid : p. 35. (۱۲۱)
- Ibid : p. 38. (۱۲۲)
- Babcock : op. cit, p. 38, note, 38. (۱۲۳)
- Ibid : p. 39. (۱۲۴)
- Ibid : p. 40. (۱۲۵)
- Mas Latrie, L : Essai de classification des continuateurs de L'histoire
des Croissades de Guillaume de Tyre. Bibliothque de L'Ecoles des Chartes
5 th ser, I, 1871, pp. 138 — 140.
- Babcock : p. 40. (۱۲۶)
- Ibid : p. 40. (۱۲۷)
- Riant, p. : Inventaire sommaire des manuscrits de L'Eracles. (۱۲۸)
- Archives de L'Orient Latin, I, pp. 247 — 256.
- Mas Latrie : op. loc. (۱۲۹)

الفصل السابع

جوانيل

(١٢٢٤ — ١٣١٧)

- Joinville : Histoire de Sajat Louis, ed. Natalis de Wailly, Paris 1883. Preface p.I. (١) انظر :
- Ibid : p. I. (٢)
- Joinville : History of Salut Louis Trans. Evans, Oxford , p. XIV. (٣)
- Ibid : p. XIV. (٤)
- Ibid : p. XIV. (٥)
- Ibid : p. XV. (٦)
- Joinville : Histoire de Saint Louis ed. de Wailly Preface I. 93 (XXI)
- Joinville : Evans p. XV. (٧)
- Ibid : p. XV. (٨)
- Joinville : op. cit. ed de Wailly, 114. (XXVI). (٩)
- Joinville : op. cit. Trans Evans, p. XV. (١٠)
- Ibid : Trans Evans, p. 207 (CXXXVI). (١١)
- Joinville : op. cit. ed. de Wailly, 677. (CXXXVI). (١٢)
- Joinville : op. cit. ed de Wailly p. III, 183. & 440. (LXXXVI). (١٣)
- Joinville : op cit. ed. de Wailly p III. (١٤)
- Ibid : p. III. 15. & 37. (VI). (١٥)
- Ibid : p. IV, 210 & 500 (XCVIII). (١٦)
- Ibid : p. III, 278 — 279 & 661 (CXXXIII). (١٧)
- Ibid : p. III. 308. & 742. (CXLV). (١٨)
- Ibid : p. IV. 177—178. & 426, 427. (LXXXIII). (١٩)
- « فليفتق الملك من أمواله ، وليبعث إلى المورة وما وراء البحر (الغرب المسيحي) ليلمس
الفرسان ، فإذا علم الناس إستخاء الملك وبذله للأموال ، أقبل عليه الفرسان من كل حدب
وصوب ، وعندئذ يستطيع الملك أن يظل يقاتل سنة ونحو ذلك . فإذا بقى الملك بالشام ،
تم استخلاص الأسرى ، أما إذا ارتحل ، فلن يحدث ذلك » .
- Ibid : IV. V. 282 & 669 (CXXXV) 179—180 & 430, 433 (LXXXIV) (٢٠)
- Ibid : p V, 132, & 318. (LXIII) . (٢١)
- Ibid : p. V. 132. & 319 (LXIII) . (٢٢)

Ibid : p. VI. 175 & 421 (LXXXII).	(२३)
Ibid : p. VI. 306 & 735 (CXLIV).	(२४)
Joinville : History of Saint Louis Trans. Evans. p. XVI.	(२०)
Ibid : p. XVI.	(२६)
Ibid : p. XVII.	(२७)
Ibid : p. XIX.	(२८)
Ibid : p. XIX.	(२९)
Joinville : Histoire de Saint Louis ed. de Wailly. p. VI.	(३०)
Ibid : p. VII. & 2. (I).	(३१)
Ibid : p. VI, 101. & 242. (XLIX).	(३२)
Ibid : p. VII.	(३३)
Ibid : p. VII, 312—312. & 760 (CXLVII)	(३४)
Ibid : p. VII.	(३०)
Joinville : History of Saint Louis Trans. Evans. p. XIX.	(३६)
Ibid : p. XX.	(३७)
Ibid : p. XX.	(३८)
Ibid : p. XX.	(३९)
Joinville : History of Saint Louis, Trans. Evans p. XXI.	(४०)
Ibid : p. XXI.	(४१)
Ibid : p. XXII.	(४२)
Ibid : p. XXII.	(४३)
En. Brit. Art. Joinville.	(४४)
Joinville : Histoire de Saint Louis. ed. de Wailly p. VIII&19(III)	(४०)
Ibid : p. VIII 29—30 & 68 (XV).	(४६)
Ibid : p. VIII	(४७)
Ibid : p. VIII.	(४८)
Ibid : p. IX.	(४९)
Joinville : Everyman's edition p. XXXVII.	(००)
Ibid : VI, p. XXXVIII.	(०१)
Paris, G. : La Litterature Francais, I. p. 141.	(०२)
Ibid : p. 142.	(०३)
Ibid : p. 142.	(०४)
Joinville : op. cit. Everyman's ed. P. XXVIII.	(००)
Ibid : p. XXVIII.	(०६)
Ibid : p. XVIII.	(०७)
Ibid : p. XXIX	(०८)

Ibid : p. XXIX	(०९)
Ibid : p. XXIX.	(१०)
Ibid : p. XXX.	(११)
Ibid : p. XXXII.	(१२)
Ibid : p. XXXII.	(१३)
Ibid : p. XXXII.	(१४)
Joinville : op. cit. <i>Trans. Evans</i> , p. XXII.	(१०)
Ibid : p. XXIII.	(११)
Ibid : p. XXIII.	(११)
Ibid : p. XXIII.	(११)
Ibid : p. XXV.	(११)
Ibid : p. XXV.	(१०)
Ibid : p. XXVI.	(११)
Ibid : p. XXVI.	(१२)
Ibid : p. XXVII.	(१३)
Ibid : p. XXVII.	(१४)
Joinville : <i>Everyman's</i> ed p. XXX.	
Ibid : p. XXXII.	(१०)
Joinville : op. cit. <i>Trans Evans</i> , p. XXVII.	
Paris, G. : op. cit. p. 142.	(११)
Joinville : <i>History & Saint Louis. Trans Evans</i> . p. XXVII.	(११)
Joinville : op. cit. <i>Eueryman's</i> , p. XXXVI.	(११)
Ibid : p. XXXVI.	(११)
Ibid : p. XXXVIII.	(१०)

الفصل الثامن

الكتابة التاريخية حتى القرن الثاني عشر الميلادي

- (١) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب . ترجمة حسين نصار — بيروت ١٩٦١ ، ص ٣٠ .
العبادي : علم التاريخ ، ص ٥١ .
- (٢) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢٩ — ٣٠ .
العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٢ .
- (٣) السخاوي : الإعلان بالتوييخ ، ص ٧ .
- (٤) العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٢ .
- (٥) العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٢ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٣٤ .
- (٦) العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٣ .
- (٧) العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٤ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٥٩ — ٦٠ .
- (٨) العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٤ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٦١ ، ٧٣ — ٧٤ .
- (٩) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٧٣ — ٧٤ .
- (١٠) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٦٢ .
العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٤ .
- (١١) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٦٨ .
- (١٢) العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٦ .
- (١٣) العبادي : علم التاريخ ، ص ٥٧ .
- (١٤) Cahen : La Syrie du Nord à l'Époque des Croisades. p. 33 .
مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٣١ — ٣٢ .
العبادي : علم التاريخ ، ص ٦٦ .
- (١٥) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٣٠ — ٣٢ .
العبادي : علم التاريخ ، ص ٦٦ .
- (١٦) Cahen : op. cit, p. 34 .
العبادي : علم التاريخ ، ص ٦٧ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٣٠ .
- (١٧) العبادي : علم التاريخ ، ص ٦٧ .
- (١٨) العبادي : علم التاريخ ، ص ٦٨ .

- (١٩) العبادى : علم التاريخ ، ص ٥٩ — ٦٠ .
- (٢٠) العبادى : علم التاريخ ، ص ٦٠ .
- (٢١) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ١٧ — ١٨ .
- (٢٢) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ١٨ .
- (٢٣) انظر « الأزرق » فى دائرة المعارف الإسلامية .
- (٢٤) انظر « ابن عبد الحكيم » فى دائرة المعارف الإسلامية .
- (٢٥) انظر جب « علم التاريخ » فى دائرة المعارف الإسلامية .
- (٢٦) انظر « ابن طيفور » فى دائرة المعارف الإسلامية .
- (٢٧) جب « علم التاريخ » دائرة المعارف الإسلامية - ص ٤٩٤ .
- (٢٨) Cahen : op. cit. p. 35.
- جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٤ .
- (٢٩) انظر « ابن مسكويه » فى دائرة المعارف الإسلامية .
- (٣٠) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٤ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢٧ .
- محمد شفيق غربال : أساليب كتابة التاريخ عند العرب . مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الرابع عشر سنة ١٩٦٢ ص ٣١ — ٣٢ .
- (٣١) محمد شفيق غربال : أساليب كتابة التاريخ عند العرب . مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٤٠ — ٣٢ .
- (٣٢) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٤ .
- (٣٣) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ١٨ .
- (٣٤) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢٠ .
- (٣٥) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢١ .
- (٣٦) انظر « الخطيب البغدادي » فى دائرة المعارف الإسلامية .
- (٣٧) انظر « ابن عساکر » فى دائرة المعارف الإسلامية .
- جب : علم التاريخ ص ٤٩٦ .
- (٣٨) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢١ .
- (٣٩) مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢٧ .
- (٤٠) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٧ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢٢ .
- (٤١) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٧ .
- (٤٢) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٧ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ١٩ .
- (٤٣) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٧ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢٥ .
- (٤٤) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٧ .
- مارجليوت : دراسات عن المؤرخين العرب ، ص ٢٥ .
- (٤٥) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٩ .

- (٤٦) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٩ .
- (٤٧) انظر « ابن القلانسي » في دائرة المعارف الإسلامية .
- (٤٨) Cahen : op. cit. p. 35.
- (٤٩) جب : علم التاريخ ، ص ٤٩٩ .
- (٥٠) Cahen : op. cit. p. 36.
- (٥١) Ibid : p. 36.
- (٥٢) Ibid : p. 36.
- (٥٣) Ibid : p. 86.
- (٥٤) Ibid : p. 37 — 38.
- (٥٥) Ibid : p. 39.
- (٥٦) Gibb : Damascus Chronicle of Crusade, p. 284.
- (٥٧) Cahen : op. cit. p. 39.
- (٥٧) Cahen : op. cit. p. 39.
- (٥٨) مثال ذلك ماحدث سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦) من أن الأتابك طفتكين ، دفعه الحوف من الحليفة إلى أن يتحالف مع الفرنج ، لمقاومة حملة أعداء السلطان والحليفة . وتعرضت هذه الحملة للهزيمة على يد الفرنج ، الذين زاد شوكتهم وقوتهم . ثم أراد طفتكين أن يسترضى الحليفة ، فتوجه إلى بغداد . على أن ابن القلانسي ، الذي كتب عن بداية حركة الجهاد ضد الصليبيين ، أغفل الإشارة إلى هذا التحالف بين طفتكين والفرنج . (انظر Cahen : op. cit. p. 39)
- (٥٩) الواقع أن الأستاذ كاهن Cahen ، حرص على الإفادة من كتاب ابن القلانسي إلى حد كبير ، في المقال الذي نشره عن الحركات الشعبية في الشام .
- Cahen, C. : Mouvements Populaires. انظر :
- (٦٠) Cohen : La Syrie du Nord. p. 40.
- (٦١) Ibid : p. 41.
- (٦٢) Ibid : p. 41.
- (٦٣) Ibid : p. 41.
- (٦٤) Ibid : p. 42 — 43
- (٦٥) Ibid : p. 43.
- (٦٦) Ibid : p. 44.
- (٦٧) Ibid : p. 44.
- (٦٨) Ibid : p. 45.
- (٦٩) Cahen : op. cit. p. 45.
- (٧٠) Derenbourg, H. : La Vie d'Ousama, Paris 1889 — 1893 انظر pp. 336 — 338, 543 — 562.
- (٧١) ياقوت : معجم الأدباء — نشر مارجليوث ، ص ١٧٣ — ١٩٦ .
- (٧٢) Derenbourg : La Vie d'Ousama, pp. 543 — 562.
- (٧٢) Cahen : op. cit. p. 45.

الفصل التاسع

مؤرخو صلاح الدين

- (١) انظر ابن شداد : في دائرة المعارف الإسلامية .
Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur (G. A. L.) I. P. 316.
- (٢) انظر ابن الأثير : في دائرة المعارف الإسلامية .
Brockelmann : op. cit. I, p. 341.
- (٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان . (طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ) ، ٢٠ ، ص ٤٦٦ .
- (٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ٢٠ ، ص ٤٦٧ — ٤٦٨ .
- Lane — Poole : Saladiu p. IV.
Cahen : op. cit. p. 52.
- حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١٣ .
- (٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ٢٠ ، ص ٤٦٩ .
- (٦) العربي : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٥٩ — ٦٠ .
- (٧) العربي : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٦٠ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ٢٠ ، ص ٣٣ .
- ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٦ .
- Lane — Poole : op. cit. p. V.
- (٨) العربي : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٦٤ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ٢٠ ، ص ٥٣ .
- حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١٤ .
- (٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٢ .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٠ ، ص ٤٦٨ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢٠ ، ص ٥٣ .
- (١٠) العربي : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٦٤ — ٦٥ .
- حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١٥ .
- (١١) العربي : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٦٥ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢٠ ، ص ٦٥ — ٦٦ .
- Lane — Poole : op. cit. p. V.
- (١٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٠ ، ص ٤٦٨ .
- (١٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٦ .
- (١٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٧ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢٠ ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .
- Lane — Poole : op. cit. p. 245 note 1.
- (١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٠ ، ص ٤٦٩ .
- (١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢٠ ، ص ٤٦٩ .
- المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ١٠ ، ص ١٤٠ .
- (١٩ م — الحروب الصليبية)

- (١٧) حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١٦ .
المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك . > ٢١ ، ص ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،
١٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ .
- (١٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان . > ٢ ، ص ٤٧٠ .
- (١٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٤٧٠ .
- (٢٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٤٧٠ .
- Brockelmann : Op. cit, I, p. 317.
- (٢١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٤٧٤ .
- Brockelmann : Op. cit. I, p. 317
- (٢٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٤٧٤ .
- Brockelmann : Op. cit. I, p. 317 (Bodleian I. p. 117)
- Brockelmann : op. cit. I, p. 317 (٢٣)
- Brockelmann : Op. cit. Snpp. I, p. 550 (٢٤)
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٤٦٨ .
- Cahen : Op. cit. p 52. (٢٥)
- Ibid: p. 52. (٢٦)
- Lane—Poole : Saladin, p. IV (٢٧)
- Ibid: p. IV (٢٨)
- Gibb : The Arabic Sources for the Life of Saladin. Speculum, (٢٩)
25 (1950), p. 58.
- Ibid : p. 58. (٣٠)
- En. Is. Ibn. al — Athir (٣١)
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ١ ، ص ٤٣٨ . (٣٢)
- حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ٧ . (٣٣)
- Cahen : Op. cit. p. 58.
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ١ ، ص ٤٣٨ . (٣٤)
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ١ ، ص ٤٣٨ . (٣٥)
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ١ ، ص ٤٣٨ . (٣٦)
- Brockelmann : Op. cit. I, p. 346.
- Brockelmann : Op. cit. I, p. 346. (٣٧)
- Cahen : Op. cit. p. 58. (٣٨)
- حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ٨ . (٣٩)
- Cahen : Op. cit. p. 58. (٤٠)
- حسّان : خمسة من مؤرخي صلاح الدين ، ص ٨ . (٤١)
- Cahen : Op. cit. p. 58 note 4.
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ١ ، ص ٤٣٨ . (٤٢)
- حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ٨ . (٤٣)
- Cahen : Op. cit. p. 59.

- (٤٤) حسّان : خمسة من معاصري صلاح ، ص ١٠ .
Cahen : Op. cit. p. 59 note 1.
- (٤٥) **Cahen** : Op. cit. p. 59.
 . أشار إلى عماد الدين الأصفهاني في > ١٠ ، ص ٥١٣ .
- (٤٦) **Cahen** : Op. cit. p. 60.
- (٤٧) **Cahen** : Op. cit. p. 60.
 . ابن الأثير : السكامل > ١٠ ، ص ٣٩٠ .
- (٤٨) وازن روايته عن أحداث حلب ، > ١٠ ، ص ٤٥٧ — ٤٥٨ ، بما ورد عنها
 في بغية الطالب .
- Sauvaget** : *Revue des Etudes Historiques*, 1933. p. 402.
- (٤٩) **Cahen** : Op. cit. p. 60.
- (٥٠) **Ibid** : p. 60.
- (٥١) حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ٩ — ١٠ .
- (٥٢) حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١١ .
- (٥٣) حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١١ .
- ابن الأثير : السكامل ، > ١٢ ، ص ٥٠ .
- (٥٤) حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١١ .
- Runciman** : *History of the Crusades*, II. p. 481.
- (٥٥) حسّان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ١١ .
- (٥٦) ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ٢٩٢ — ٢٩٣ .
- (٥٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ١ ، ص ٣٧٣ ، > ٢ ، ص ٢٢ — ٢٥ .
- Gibb** : *The Arabic Sources*, p. 61.
- (٥٨) ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ص ٢٩٤ .
- (٥٩) العماد : البرق الشامي ، > ٣ ، ص ١٢٥ .
- (٦٠) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ١ ، ص ٢٧٥ .
- (٦١) ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .
- Gibb** : *The Arabic Sources*, p. 61.
- (٦٢) العماد : البرق الشامي ، > ٣ ، ص ١٢٣ — ١٢٥ .
- ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .
- (٦٣) ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ص ٢٩٥ .
- Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux** (٦٤)
II. 2. p. 325.
- (٦٥) ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ص ٢٩٥ .
- (٦٦) ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ص ٢٩٤ .
- (٦٧) **Gibb** : *The Arabic Sources*, p. 61.
- (٦٨) ابن الأثير : السكامل ، > ١١ ، ص ٢٩٧ .
- (٦٩) العماد : البرق ، > ٣ ، ص ٤٣ ، وما يليها .

- William of Tyre. Trans. Babcock II, p. 425. (٧٠)
- Gibb : The Arabic Sources, p. 62. (٧١)
- ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠ .
- (٧٢) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣٠١ .
- (٧٣) العماد : لبرق الشامي ، ٣ ، ص ١٣١ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ، ص ٨ — ٩ .
- (٧٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ، ص ٩ .
- العماد : البرق الشامي ، ٣ ، ص ١٣٦ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 62.
- (٧٥) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣٠٢ .
- (٧٦) العماد : كتاب البرق الشامي ، ٣ ، ص ١٤١ .
- (٧٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ، ص ٨ — ٩ .
- (٧٨) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣٠٢ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 62.
- (٧٩) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣٠٣ .
- (٨٠) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣٠٣ .
- العماد : كتاب البرق الشامي ، ٣ ، ص ١٣٨ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٣ ، ص ٩ .
- (٨١) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .
- (٨٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ، ص ٦ .
- العماد : كتاب البرق الشامي ، ٣ ، ص ١٢٠ — ١٢١ .
- (٨٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ، ص ١٥ .
- (٨٤) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٢٩٤ .
- (٨٥) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٢٩٣ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 62 — 63. (٨٦)
- ibid. p. 63. (٨٧)
- العماد : كتاب البرق الشامي ، ٥ ، ص ٥ . (٨٨)
- Gibb : Al — Barq al — Shami, p. 95.
- (٨٩) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣١٧ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 63. (٩٠)
- (٩١) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣١٧ — ٣١٩ .
- (٩٢) انظر ما ورد في ابن الأثير عن الحصار في الصفحة السابقة.
- (٩٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ، ص ٣٢ .
- Gibb : The Arabic Sources p. 63. (٩٤)
- Gibb : Al — Barq al — Shami, p. 96.
- Gibb : The Arabic Sources, p. 63. (٩٥)
- (٩٦) ابن الأثير : الكامل ، ١١ ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

- (٩٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٢٢ .
- (٩٨) العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ١١ — ١٦ .
- Gibb : Al — Borg al — Shami, p. 96.
- Gibb : The Arabic Sources, p. 63.
- (٩٩) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٢٢٠ — ٢٢١ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 63. (١٠٥)
- (١٠١) ابن الأثير : الكامل . > ١١ ، ص ٣٧١ — ٣٢٣ .
- (١٠٢) العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ٤٧ وما يليها ، ص ٦٩ وما يليها .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 63. (١٠٣)
- Ibid: p. 64. (١٠٤)
- (١٠٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٧ .
- ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٣ .
- العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ — ٤٧ .
- (١٠٦) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٤ .
- (١٠٧) العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ١٣٦ وما يليها و ص ١٤٦ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 64.
- (١٠٨) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٦ .
- (١٠٩) العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ٧٧ — ١٧٨ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 64.
- (١١٠) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٦ .
- (١١١) العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ١٠٥ وما يليها .
- (١١٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٧ — ٤٨ .
- (١١٣) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٧ .
- (١١٤) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٧ .
- (١١٥) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٧ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٥ .
- (١١٦) ابن الأثير : كتاب الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٨ — ٣٢٨ .
- (١١٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٣ .
- (١١٨) ابن الأثير : كتاب الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 64.
- العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ٩٦ .
- (١١٩) العماد : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ٨٩ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٧ .
- (١٢٠) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٣٠ .
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٦ .

- (١٢١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٥٣ .
المهاد : كتاب البرق الشامى ، > ٥ ، ص ١٢٨ — ١٣٢ ص .
(١٢٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٢ .
(١٢٣) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٣٠ .
(١٢٤) المهاد : كتاب البرق الشامى ، > ٥ ، ص ١١١ — ١١٦ ص .
١١١٨ — ١١١٩ ، ١١٢٦ .
(١٢٥) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٣١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٥١ .

Gibb : The Arabic Sources, p. 65.

Ibid : p. 65.

(١٢٦)

- (١٢٧) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٣٧ .
(١٢٨) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٦٤ .
(١٢٩) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٣٧ .
(١٣٠) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٦٤ .

Gibb : The Arabic Sources, p. 67.

(١٣١)

- (١٣٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ١١٩ — ١٢٠ .
(١٣٣) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .
(١٣٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ١١٩ .

المهاد : الفتح القسى ، ص ٨٧

Gibb : The Arabic Sources. p. 67.

- (١٣٥) ابن الأثير : الكامل ، > ١٢ ، ص ٣٥ — ٣٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ١٨١ .
(١٣٦) المهاد : الفتح القسى ، ص ٣١٢ — ٣١٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ١٨١ .
(١٣٧) المهاد : الفتح القسى ، ص ٣١٣ .
(١٣٨) ابن الأثير : الكامل ، > ١٢ ، ص ٣٦ .

Gibb : The Arabic Sources. p. 67.

Michaud : Bibliotheque des Croissades IV. pp. 292—298.

Gibb : The Arabic Sources p. 67.

(١٣٩)

- أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٦٩ .
(١٤٠) أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٦٩ .
(١٤١) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٤١ .
(١٤٢) السبكي : طبقات الشافعية — القاهرة ١٣٢٤ ، > ٤ ، ص ٣٢٩ .

Gibb : The Arabic Sources, p. 68.

(١٤٣)

Recueil des Historiens des Croissades (Historiens Orientaux) III, p. 87.

Gibb : The Arabic Sources, p. 68.

(١٤٤)

- (١٤٥) ابن الأثير : الكامل ، > ١١ ، ص ٣٢٧ .

- (١٤٦) العماد : كتاب البرق الشامي ، ج ٥ ، ص ٨٤ س .
 Gibb : The Arabic Sources, p. 69. (١٤٧)
- (١٤٨) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٢ .
 (١٤٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١ ، ص ٢٣١ .
 R. H. C. H. O. II, 2, 259. تاريخ الأتابكة
- (١٥٠) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨١ .
 (١٥١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .
 أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨ — ١٨١
 (١٥٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨١
 Gibb : The Arabic Sources p. 69. (١٥٣)
- William of Tyre : pp. 363-376.
 (١٥٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .
 (١٥٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٤٤ .
 (١٥٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .
 (١٥٧) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .
 William of Tyre II, p. 389 — 390. (١٥٨)
- Gibb : The Arabic Sources, p. 69.
 (١٥٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٥٨ .
 (١٦٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .
 (١٦١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ .
 (١٦٢) العماد : البرق الشامي ، ج ٥ ، ص ١٧ — ١٨ .
 أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٤ .
- Gibb : The Arabic Sources, p. 58. (١٦٣)
 Cahen : Op. cit. p. 55. (١٦٤)
 Gibb : The Arabic Sources, p. 58. (١٦٥)
 Cahen : op. cit. p. 55, (١٦٦)
 Ibid : p. 55. (١٦٧)
 Ibid : p. 55. (١٦٨)
 Ibid : p. 55 — 56. (١٦٩)
 Ibid : p. 56. (١٧٠)
 Cahen : op cit. p. 56. (١٧١)
 Ibid : p. 56. noter 5. (١٧٢)
 Ibid : p. 57. (١٧٣)
 Ibid : p. 57. (١٧٤)
 Gibb : The Arabic Sources, p. 58. (١٧٥)
 Cahen : Op . cit. p. 57. (١٧٦)
 Gibb : The Arabic Sources, p. 50. (١٧٧)

Cahen : Op cit. p. 50.

(١٧٧)

(١٧٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٧ .

ياقوت : إرشاد الأريب . نشر مارجلوت > ٧ ، ص ٨١ .

(١٧٩) العماد السكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر . نشر أحمد أمين ، وشوقي

ضيف ، وإحسان عباس — مطبعة لجنة التأليف — القاهرة ١٣٧٠ (١٩٥١) .
شعراء مصر — المقدمة ص ك .

(١٨٠) العماد السكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر . المقدمة ص ل .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٨ .

(١٨١) ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٢ .

(١٨٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٨ .

(١٨٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٨ .

ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٣ .

(١٨٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٨ .

ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٣ ، ٨٥ .

السياد : خريدة القصر . المقدمة ، ص ل .

(١٨٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٨ .

(١٨٦) ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٥ .

حسان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ٢٠ — ٢١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٨ ، ٩٦ .

(١٨٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ١٠٠ .

ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٥ .

(١٨٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٩ .

Brockelmann : Op. cit. I. p. 315.

Cahen : op. cit. p 51.

(١٨٩)

Houtsma : Textes relatifs a l'histoire des Seldjoucides II. Leyden, 1888.

(١٩٠) العماد : خريدة القصر ، المقدمة ، ص (م) .

(١٩١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٨ .

Brockelmann : Op, cit. I. p. 315.

(١٩٢) ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٦ — لم يرد له إشارة

في بروكلمان .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٩ .

(١٩٣) ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٦ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٩ .

حسان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ٢٤ .

(١٩٤) ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٦ .

- Cahen : Op. cit. p. 52. (١٩٥)
- Brockelmann : Op. cit. Supp. I. p. 549.
- Brockelmann : Op. cit. Supp. I. p. 549. (١٩٦)
- حسان : خمسة من معاصري صلاح الدين ، ص ٢٤ .
(١٩٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٩ .
- Brockelmann : Op. cit. Supp. I. p. 549.
(١٩٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، > ٢ ، ص ٩٩ .
ياقوت : إرشاد الأريب ، > ٧ ، ص ٨٦ .
- Brockelmann : Op. cit. Supp. I. p. 549.
- Gibb : The Arabic Sources, p. 59. (١٩٩)
- Gibb : The Arabic Sources, p. 59. (٢٠٠)
- العقاد : خريدة القصر ، المقدمة ، ص ١٤ . (٢٠١)
- Gibb : Op. cit. p. 59. (٢٠٢)
- Lane — Poole : Saladin p. V.
- Landberg, Carlo : Imad ed-Din el-Katib : Conquête de la Syrie et de la Palestine Preface p. VIII. (٢٠٣)
- Gibb : The Arabic Sources, p. 59. (٢٠٤)
- Ibid : p. 60 (٢٠٥)
- Gibb : Al — Barq Al — Shami. Wiener Zeitschrift für die Kunst des Morgenlandes 52 (1953) p. 97.
- Gibb : The Arabic Sources p. 60. (٢٠٦)
- Ibid : p. 60. (٢٠٧)
- Gibb : Al — Barq Al — Shami, p. 100. (٢٠٨)
- العقاد (٢٠٩) : كتاب البرق الشامي ، > ٥ ، ص ٤٨ — ٦٥ .
(٢١٠) : كتاب البرق الشامي — نقلا عن أبي شامة .
كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٣٩ .
- Gibb : Al — Barq Al — Shami, p. 100. (٢١١)
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٨ — ٤٠ . (٢١٢)
أبو شامة ، كتاب الروضتين : > ٢ ، ص ٤٠ . (٢١٣)
- Gibb : Al — Barq Al — Shami, p. 101. (٢١٤)
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٣٩ — ٤٠ . (٢١٥)
- Gibb : Al — Barq Al — Shami, p. 101. (٢١٦)
- أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤٠ ، ٤١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ، > ٢ ، ص ٤١ . (٢١٧)
- Gibb : Al — Barq Al — Shami, p. 101 (٢١٨)
- أبو شامة . كتاب الروضتين ، > ١ ، ص ٤ — ٥ .
Gibb : Al — Barq Al — Shami, pp. 101—102. (٢١٩)

- (٢٢٠) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ، ص ٥٣ — ٥٤ .
(٢٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية . ص ٤٦ .
Gibb : Al — Barq Al — Shami, p. 102. (٢٢٢)
Gibb : Al — Barq Al — Shami, pp. 111—115. (٢٢٣)
Gibb : The Arabic Sources, p. 70. (٢٢٤)
Ibid : p. 70. (٢٢٥)
Ibid : p. 70. (٢٢٦)
Ibid : p. 70. (٢٢٧)
Ibid : p. 70. (٢٢٨)
Ibid : p. 70. (٢٢٩)
Ibid : p. 70. (٢٣٠)

كشاف

عن أسماء الأعلام والشعوب والقبائل والوقائع والمصطلحات

ابن شداد: ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٤ —
٢١٦، ٢٢٩، ٢٣٧،
٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٨،
٢٥٩، ٢٦١ .
ابن شداد الصنهاجي : ٢٠٦، ٢٣٦ .
ابن عساكر : ١٨٦، ١٩٠، ١٩٣،
١٩٤، ٢٠٦ .
ابن قاضي شهبة : ١٩١ .
ابن كثير : ١٩٠، ١٩٥ .
ابن واصل : ١٩٠ .
ابو العلاء المعري : ١٩٣ .
ابو الفدا : ١٨١، ١٩٠ .
أبو الهيثم السمين (حسام الدين) :
٢١٥، ٢٢٦ .
أبو شامة : ١٨٢، ١٩٠، ١٩٢،
٢١٢، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٣٠،
٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٦،
٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٩، ٢٦٠،
٢٦٩ .
أبو غالب المصري : ١٩٥ .
أبو ليا : ٣٨ .
أبو مخنف : ١٧٩ .
انيل ودجورد : ١٧٣ .
اجنس كورتناي : ١٠٥، ١١٠، ١١٩،
١٢٠، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١،
١٣٦ .
آخن : ١٨ .
أدهيمير (أسقف باي) : ٢٢، ٣٤،
٣٨، ٦٨، ٧١، ٧٦، ٨٤ .
أربل : ١٩٠، ١٩٩، ٢٢١، ٢٥٦ .

(١)

ابن أبي أصيبعة : ١٩١ .
ابن أبي جراد : ١٩٣، ٢٣٦ .
ابن أبي طي : ١٩٣ — ١٩٥، ٢٠٧،
٢٣٤ — ٢٣٧، ٢٥٨، ٢٦١ .
ابن اسحاق : ١٨٦ .
ابن الأثير : ١٨١، ١٨٩، ١٩٠،
١٩٢، ١٩٨، ٢٠٤ — ٢٢٨،
٢٢٩ — ٢٣٤، ٢٤٤، ٢٥٩ .
ابن الجوزي : ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢،
٢٠٦ .
ابن الحنظلي : ١٩١ .
ابن السمعاني : ١٤١، ١٩٠، ١٩٢،
١٩٥، ٢٠٥ .
ابن العبري : ١٩٠ .
ابن العديم : ١٩١، ١٩٣ — ١٩٥،
١٩٧ .
ابن الفرات : ١٩٥، ٢٣٧ .
ابن القفطي : ١٩١ .
ابن القلانسي : ١٨٩ — ١٩٢، ٢٠٦،
٢٣٦، ٢٠٧ .
ابن المقدم : ٢١١، ٢١٧ .
ابن النجار : ١٩٠ .
ابن حمدون : ٢٠٦ .
ابن حمويه (تاج الدين) : ١٩٠ .
ابن خطيب الناصريه : ١٩١ .
ابن خلكان : ١٩١، ٢٢٩، ٢٤١ .
ابن دقاق : ١٩٤ .
ابن زريق : ١٩٣ — ١٩٤، ٢٣٦ .

آمد : ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢١٧ ، ٢١٤ ،
 . ٣٥٤ ، ٢٤٨
 امريك (البطربرك) : ١١١ — ١١٧ ،
 ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٨ ، ١٢٠
 . ١٤٠ ، ١٣٩
 امورى : (الملك) : ١٠٥ — ١١٤ ،
 . ١٣٤ — ١٣٢ ، ١٢٧ ، ١٢٦
 انسه كومنين : ١٥ ، ٢٦ .
 الأفاضول : ١٨٨ ، ٢٣٣ .
 انجلترا : ١٠١ ، ٩٩ ، ٥٠ ، ١١٧ ، ١٢٥ ،
 . ١٥٩ ، ١٥١ ، ١٤٨
 انسلم (رئيس دير بيك) : ٤٦ .
 انسلم (أمير ريمونت) : ٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
 . ٧٥ ، ٤٧ ، ٣٦
 انسلم : (أمير ميلان) : ٧٤ .
 انطاكية : ٦ ، ١٦ — ٢٠ ، ٢٣ ،
 ، ٤٥ ، ٣٧ ، ٣٤ — ٢٩ ، ٢٤
 — ٧١ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٥٩ ، ٥١
 ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٧٨
 . ١٣٣ ، ١١٩ ، ١١٧ ، ٩٢
 انقره : ٧٥ ، ٧٤ .
 انوشروان : ٢٤٠ .
 أوتو فرايزنجن : ٦٤ ، ٦٥ ، ١٤٤ .
 اوتينا : ١١٣ .
 اوربا : ٤ ، ٤٩ ، ٣٨ ، ١٣٧ ، ١٥١ ،
 . ١٨٠
 اوردرىكومس فيتاليس : ٤٢ ، ٤١ ، ٨٣ ،
 . ٨٦
 أورليان : ٤٨ ، ١٥٨ .
 أوفيد : ٤٦ ، ١٤١ .
 ايدوم : ١٣٠ .
 ايران : ٢٠٦ .
 ايربان الثانى (البابا) : ٤ ، ١٥ ، ١٦ ،
 . ٦٤ ، ٥٤ ، ٣٦ ، ٣٠ ، ١٩

أرزن : ٢٤٧ .
 ارسلان بوغا : ٢٢٨ .
 ارسوف : ٧٣ .
 ارمنيا (الأرمن) : ٦ ، ٩ ، ٩٤ ، ١٣٧ ،
 . ٢٥٩ ، ١٤٩ — ١٤٦
 ارنولف (البطربرك) : ٥٦ ، ٥٩ ،
 : ٨٨ ، ٨٧
 اسام : ١٦ ، ١٧
 اسامه بن منقذ : ١١٢ ، ١٨٧ ،
 ١٩٦ ، ١٩٥
 اسبانيا (الاندلس) : ٩٩ ، ١٨٢ ،
 . ١٨٤
 اسكندر (كاتب وقسيس ستفن) : ٢٩
 اسكندر الثالث (البابا) : ١١٨ ، ١٣٤
 اسيا الصغرى : ٣٧ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧
 أصفهان : ٢٣٧ .
 اقصر : ٢١٢ .
 آل الرسول (فى اليمن) : ١٨٢ .
 الأدريسى (الاسكندرانى) : ٢٣٦ .
 الاسكندريه : ١٢٨ ، ٢١٢ ، ٢٣٦ .
 الأمر (الخليفة الفاطمى) : ١٩٤ .
 البرتاقسيس (أخن) : ١٨ ، ١٩ ، ٢٤ —
 ، ٤٨ ، ٣٩ ، ٣٦ ، ٣٤ ، ٢٦
 ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ٩٧ — ٦٦ ، ٥٨
 . ١٣٢
 الكسيوس (الامبراطور) : ٦ ، ١٤ ، ١٥ ،
 — ٧٠ ، ٥٠ ، ٤٦ ، ٢٦ ، ١٦
 . ٨٦ ، ٧٢
 ألمانيا (الألمان) : ٦٦ ، ٧٦ ، ٨٥ ،
 . ١١٥ ، ١٠٢ ، ١٠١ ، ٩٩
 إلبانور (الملكة) : ١٠١ .

بزلی : ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٥ .
 بشير الخادم : ٢١٦ ، ٢٢١ .
 البصرة : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
 بطرس (أسقف رنشتير) : ١٥٠ .
 بطرس بارثلميو : ٢٢ ، ٢٣ .
 بطرس البرشلوني : ١٠٤ — ١٠٧ .
 بطرس الناسك : ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٢ ،
 ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
 ٩٦ ، ١١٢ ، ١٥٢ .
 بعلبك : ٢١١ — ٢١٣ .
 بغداد : ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٧ ،
 ٢١٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ — ٢٤١ ،
 ٢٤٦ ، ٢٥٤ .
 بلدريك (رئيس أساقفة حول) : ٤٢ ،
 ٤٨ — ٥١ ، ٨٣ .
 بلدوين الأول : ٣٦ — ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ،
 ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٢ ،
 ٧٥ ، ٨٣ — ٩٤ ، ٩٩ .
 بلدوين الثاني : ٥٩ ، ١٣٨ ، ١٤٤ .
 بلدوين الثالث : ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٢ ،
 ١٤٣ ، ١٤٥ .
 بلدوين الرابع (ابن امورى) : ١١٠ —
 ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 ١٤٧ ، ٢٢٣ .
 بلدوين الخامس : ١٢٤ ، ٢٣٣ .
 بلغاريا : ٧٤ ، ١٣٣ .
 البندارى : ١٩٠ ، ٢٤٠ .
 بورجى (دير) : ٤٨ .
 بوقيه : ٤٥ .
 بونتيوس (لورد بالادوم) : ٢٢ ،
 بونجارز : ٢٦ .
 بولدريه : ٢٩ .
 بوهمند : ١٥ — ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٩ —
 ٣١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ،

ايركل : ٧٥ .
 اير كبرت : ٦٠ — ٦٢ .
 ايطاليا : ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٥١ ، ٧٦ ،
 ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٨ .
 ايسكارد : ٣٠ ، ٥٦ ، ٦٠ — ٦٥ ،
 ٨٥ .
 ايكس لا شابيل : ٦٦ .
 ايلة (القلعة) : ٢١٧ .
 اينهارت : ٤ ، ٥ .

(ب)

بابليون : ١٣٣ .
 الباخرزى : ٢٤١ .
 بارتولف نانجيجو : ٤١ .
 باركياروق : ٧٨ .
 بارس : ٥٣ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ .
 باسكال الثانى (البابا) : ٦١ ، ٦٣ .
 باليان لمبلين (بيرزان) : ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 ٢١١ .
 بانياس : ١٣١ ، ١٣٨ .
 البحر الاحمر : ٢١٧ .
 البحر الأسود (بوتوس) : ٧٤ .
 البحر المتوسط : ١٢٧ .
 البحر الميت : ٤١ .
 برتراند (ابن ريموند أمير تولوز) : ٩٣ .
 برنارد (رئيس دير مارموتيه) : ٥٤ .
 برنارد (صاحب بيت المال) : ١٤٨ ، ١٤٩ .
 بروتر : ١٠٢ ، ١٤١ .
 بروفانس (الروفنساليون) : ٢٣ ، ٢٥ ،
 ٤٣ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٩٧ ، ١٦٨ ،
 ١٦٩ .
 بريتانى : ٤٨ ، ٥٠ .

- تريستان (ابن لويس) : ۱۶۷ .
 تقى الدين عمر : ۲۰۸ ، ۲۱۲ ، ۳۲۲ .
 تسكریت : ۲۳۸ ، ۲۵۶ .
 تل خالد : ۲۱۷ .
 توديبود : ۲۵ — ۲۸ ، ۴۵ ، ۵۱ .
 توران شاه : ۲۱۰ ، ۲۱۳ .
 تورنبرج : ۲۰۵ .
 تيبولت الرابع (كونت شاميانيا) : ۱۵۸ .
 تيبولت الخامس : ۱۵۸ .

(ث)

- الشمالي : ۲۴۱ .
 ثيموتاؤس : ۳۵ .

(ج)

- جاستون بيرن : ۴۵ .
 چاك فيترى : ۱۴۵ ، ۱۴۸ .
 جالانبا : ۷۴ .
 چان (ملكة نافار) : ۱۶۰ ، ۱۶۱ .
 چان انسكرفيل (ابن جواشيل) : ۱۵۵ .
 ۱۵۹ .
 چاى لوزيجيان : ۱۱۹ ، ۱۲۰ ، ۱۲۲ —
 ۱۲۴ ، ۱۴۷ ، ۲۳۳ .
 الجبل الأسود : ۷۰ .
 جبل الحجاج : ۹۳ .
 جبل الزيتون : ۷۳ .
 جريجورى السابم : ۹۷ .
 جزيرة ابن عمر : ۲۰۴ .
 جسر يعقوب : ۲۱۱ .
 جفرى دى بليو : ۱۶۳ .
 الجمل (موقعة) : ۱۷۹ .
 جنوة : ۹۰ .

- ، ۵۶ ، ۵۲ ، ۵۱ ، ۴۸ ، ۴۶ ،
 ، ۸۶ ، ۸۴ ، ۶۸ ، ۵۹ ، ۵۸
 ، ۱۱۹ ، ۹۹ ، ۹۷ .

- بيت المقدس (القدس) : ۴ ، ۷ ، ۲۳ ،
 ، ۲۶ ، ۲۴ — ۳۰ ، ۳۳ ، ۳۴ ،
 ، ۳۹ ، ۳۶ — ۴۱ ، ۴۴ ، ۴۵ ،
 ، ۵۱ ، ۵۳ ، ۵۴ ، ۶۱ ، ۶۴ ، ۶۵ ،
 ، ۶۷ ، ۷۳ ، ۸۱ ، ۸۸ — ۹۱ ،
 ، ۹۳ ، ۱۰۰ — ۱۰۴ ، ۱۰۷ —
 ، ۱۰۹ ، ۱۱۲ ، ۱۱۵ — ۱۲۱ ،
 ، ۱۲۳ ، ۱۲۶ — ۱۲۹ ، ۲۱۹ ،
 ۲۲۴

- بيرتس : ۶۰ ، ۶۳ .
 البيرة : ۲۱۴ .
 بيروت : ۲۱۴ ، ۲۲۲ .
 بيزنطة (البيزنطيون) : ۹ ، ۱۵ ، ۷۳ ،
 ، ۷۷ ، ۱۱۶ .
 بيسان : ۲۲۲ .
 بيبير انطون دى ريان : ۱۷۲ .
 بيبير دى بول : ۱۷۲ .

(ت)

- تاج الملوك بورى : ۲۲۰ .
 تاكينوس : ۴ ، ۵ .
 تانسكرد : ۲۹ ، ۳۳ ، ۳۹ ، ۴۰ ، ۵۱ ،
 ، ۵۶ ، ۵۷ — ۶۰ ، ۷۵ ، ۸۵ ،
 ، ۸۸ ، ۸۹ ، ۹۲ ، ۹۳ ، ۹۹ ،
 ، ۱۰۲ ، ۱۳۰ ، ۱۵۲ .
 تدمر : ۲۲۸ .
 الترك : ۱۷ ، ۳۱ ، ۳۲ ، ۴۲ ، ۴۳ ، ۵۰ ،
 ، ۶۹ ، ۷۱ ، ۷۴ ، ۷۵ ، ۸۴ ،
 ، ۱۳۷ ، ۱۸۸ .
 تروى : ۱۵۴ ، ۱۶۳ .

- حنا (القديس) ٧٤ ، ٨٨ ، ٩٠
حنا سالسبورى : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤
حنا هافود : ١٧٢
حنه (ملكة ناغار) : ١٦٢ ، ١٧١
حنه لرفانز : ١٧٣
الحيرة : ١٧٧
حيفا : ٤٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(خ)

- الخابور : ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
خراسان : ٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٤٠
الخزرجى : ١٨٢
الحشنى (محمد بن الحارث) : ١٨٧
الحطيب البغدady : ١٨٦ ، ١٩٠
الحطيرى : ٢٤١
الحوارج : ١٧٩ .

(د)

- داجوبرت : ٤٠ ، ٦١ ، ٨٧ — ٩٢ ، ٩٤
الداروم : ٢١٨ ، ٢١٩
الداوية : ٢١١ ، ٢٣٣
دالماشيا (الدالماشيون) : ٢٣ ، ١٣٣
دانتي : ١٥٢
دانشمند : ٣٧
دمشق : ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ — ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٨
دمياط : ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٧١
دودشين : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ .

- جوانشيل (جان) : ١٥٣ — ١٧٣
الجهشيارى : ١٨٧
جودفرى : ١٨ — ٢٠ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٦٥ — ٧٣ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٤ — ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٣٣ ، ١٤٣
جور ساقار : ٩٩
جوزاين كورتناى : ٩٣ ، ٩٤
جميرت (رئيس دير نوجنت) : ١٢ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ — ٤٩ ، ٨٠ ، ٨٢ — ٨٥
جيمس هوتون : ١٧٢
جيلو : ٥٢ ، ٥٣ ، ٨٣ ، ٨٥
جيزيمير (القرصان) : ٧٣ .

(ح)

- حارم : ٢٢٠ ، ٣١٠
حاجى خليفة : ١٩٥
الحجاز : ١٧٩ ، ٢١٧ ، ٢٤٠
حران : ٩٤ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢١٥ ، ٢١٣
الحشيشية : ١٣٨ ، ١٩٤ ، ١٩٩
حصن الأحزان : ٢١٢
حصن الاكراد : ٢٠١
حطين : ١٢٢ ، ١٤٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
حلب : ١٩٠ — ١٩٥ ، ٢٠١ — ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
حماه : ٢٠٩ — ٢١٣ ، ٢٣٦
حمدان بن عبد الرحيم : ١٩٣ ، ٢٣٦
حمص : ٢١١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦
حنا (الراهب بدير ساموى) : ١٦١ .

- رئیس : ۱۵۸ ، ۵۴ .
رعوند آجیل : ۲۲ — ۲۸ ، ۳۱ ،
، ۳۶ ، ۳۷ ، ۴۳ ، ۵۱ ، ۵۴ ،
، ۵۸ ، ۵۹ ، ۸۱ ، ۱۲۸ ، ۱۲۹ .
رعوند بیلیه : ۳۱
رعوند کونت تولوز : ۱۸ — ۲۴ ،
، ۲۹ ، ۳۷ ، ۴۳ ، ۴۵ ، ۵۴ ،
، ۵۶ ، ۶۱ ، ۷۳ ، ۹۳ ، ۹۷ ،
، ۱۳۰ ، ۱۳۱ ، ۲۳۳ .
رعوند الثالث (أمير طرابلس) : ۱۱۴ ،
، ۱۱۵ ، ۱۱۹ — ۱۲۲ ، ۱۴۷ .

(ز)

- زنکی (صاحب سنچار) : ۱۹۴ ،
، ۲۰۰ ، ۲۰۵ .

(س)

- ساراسین (جان) : ۱۶۸
ساموی (دير) : ۱۶۱
سان ریمی (دير) : ۵۴ ، ۵۵
سان سیمون (ميناء) : ۱۸
سانت الیان (کئندرائيه) : ۱۲۵ ،
، ۱۴۸ ، ۱۵۰ .
السبکی : ۱۸۷ ، ۱۹۱ ، ۲۲۹ .
ستيفن کونت بلوا : ۱۶ ، ۱۹ — ۱۹ ،
، ۲۹ ، ۳۶ ، ۳۸ ، ۵۰ ، ۷۰ ،
، ۸۶ ، ۹۱ ، ۱۰۱ .
سروج : ۲۱۹ ، ۲۲۰ .
سعيد بن البطريق : ۱۱۳ .
سکئلنده : ۹۹ .
سکندیناوه : ۹۹ .
سلمیه : ۲۲۸ .
سمرقند : ۷۸ ، ۱۹۸ .
سنچار : ۲۱۶ ، ۲۱۹ — ۲۲۳ .
سواسون (کونت) : ۱۶۰ ، ۱۷۱ .

- دورازو : ۵۶ .
دول : ۴۸ .
الدومنيكان (الراهبان) : ۱۶۹ .
دی سلان (البارون) : ۲۲۹ .
ديار بکر : ۱۹۵ ، ۱۹۶ ، ۲۳۷ .
الدينوری : ۱۸۱ .

(ذ)

- الذهبي : ۱۸۷ ، ۱۸۹ ، ۱۹۱ ، ۲۳۷ .

(ر)

- رالف (أسقف بيت لحم) : ۱۰۲ .
الرحبة : ۲۲۸ .
الرقه : ۲۱۵ ، ۲۱۹ ، ۲۲۰ .
الرملة : ۹۰ ، ۱۳۲ ، ۲۰۸ ، ۲۱۰ —
، ۲۱۳ ، ۲۴۴ .
الرها : ۳۶ — ۴۰ ، ۵۶ ، ۶۸ ، ۷۲ ،
، ۸۳ ، ۸۴ ، ۱۳۳ ، ۲۱۴ ، ۲۱۵ .
روبرت (کونت فلاندرز) : ۱۴ ، ۱۵ ،
، ۲۰ ، ۲۹ ، ۲۶ ، ۶۱ ، ۹۷ .
روبرت (انزمندي) : ۲۰ ، ۲۹ ، ۳۰ ،
، ۳۸ ، ۴۸ ، ۶۱ ، ۷۰ ، ۹۷ .
روبرت (الراهب) : ۴۳ ، ۵۲ —
، ۵۵ ، ۸۳ .
روبرت کلاری : ۱۴۹ ، ۱۶۲ .
رودانف : ۳۹ ، ۵۱ ، ۵۶ — ۵۹ ،
، ۸۵ ، ۹۲ .
روما : ۵۴ ، ۵۶ ، ۶۴ ، ۸۸ ، ۸۹ ، ۱۰۹ ،
، ۱۱۸ ، ۱۲۰ ، ۱۳۱ ، ۱۳۴ ،
، ۱۳۵ ، ۱۴۷ ، ۱۶۱ .
رومانيا : ۴۱ ، ۷۱ .
ريان (الكونت) : ۸ ، ۱۴ ، ۲۹ .
ريتشارد قلب الأسد : ۹۹ .
ريچنالد شاتيون : ۱۱۷ ، ۲۱۷ .

السودان : ٢٣٧٠٠

سومر : ١٥٤٠٠

سويين : ٧٢ ، ٧١

سيجرت جيمبلو : ٦٣٠٠

سيكار (أسقف كزنونا) : ٤٣٠٠

سيمون (دى جوا ثقيل) : ١٥٣٠٠

١٥٤ ، ١٦٣

سينوب : ٧٤٠٠

سينوك (دير) : ٥٥ ، ٥٤

(ش)

شارتر : ٤٠ ، ٣٨ ، ٣٧

شارلمان : ٤٠٠

شامبانيا : ١٥٨ ، ١٥٤ ، ١٥٣

١٦٦ ، ١٦٩

شقيف (حصن) : ١٥٤٠٠

شمس الدولة بن ايوب : ٢٠٩٠ ، ٢١٢٠

٢١٣٠٠

شهاب الدين (أمير دمشق) : ١٩٦٠٠

الشهر زورى : (انظر كمال الدين)

الشوبك : ٢٣١ ، ٢٣٢

شيخ الشيوخ : (انظر صدر الدين)

شبركوه (ابن ناصر الدين) : ٢٢٨

شيرز : ١٩٥ ، ١٩٦

شيمرون : ١٤١٠٠

(ص)

الصانيه : ١٨٤٠ ، ١٨٧ ، ١٩٢

الصالح اسماعيل بن نور الدين : ١٩٩٠٠

٢١٠ ، ٢٣٨

صدر الدين شيخ الشيوخ : ٢١٦٠٠

٢٢١ ، ٢٥٧

الضرب : ١٣٣

صفد : ٢١٢ ، ٢١٣

الصقالبة : ٦٥٠٠

صقليه : ١٠٢ ، ٢٤٠

صلاح الدين : ١٠٠ ، ١١٧ ، ١٢١

١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٤٤

١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٨٢ ، ١٩١

١٩٦ — ٢٥٤ ، ٢٥٨

٢٦١٠٠

صهيون (جبل) : ٤٠

صور : ١٠٥ — ١١٥ ، ١١٩

١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٢

١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٣

٢٢٦٠٠

الصولى : ١٨٨

صيغا : ٧٥ ، ١٦٧

(ط)

الطبرى : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦

طبريه : ١٣٠ ، ٢١٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤

طرابلس : ٢٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٧

١٢٣٠٠

طرسوس : ٨٥٠٠

طوروس (جبال) : ٢٣٧٠٠

(ظ)

الظافر (الحليفة القاطمي) : ١٩٦

الظاهر (الملك) : ٢٠٢٠٠

الظاهر (غياث الدين) : ٢٠١

الظهير (أخو عيسى الهكاري) : ٢٠٩٠٠

(ع)

العاذل (أخ صلاح الدين) : ٢١٨

٢٢٢ ، ٢٢٥ — ٢٢٧

العاضيون : ١٨٨

عراجان : ٢١٥

العراق : ١٧٩ ، ١٨٩ ، ٢٠٦ ، ٢٣٩

٢٤٠٠٠

(م) — الحروب الصليبية

الفرات (نهر) : ٧٤ ، ٣١٤ ، ٣٥٣ ،
فرجيل : ٤٦ ، ١٤١ .
فردريك الأول : ١٣٤ .
فردريك (رئيس أساقفة صور) : ١٠٦ ،
١٠٩ .
الفرس (فارس) : ١٩ ، ١٢٧ ، ١٨٨ ،
١٩٩ ، ٢٤٠ .
الفرنج : ٨ ، ٣٠ ، ٧٠ ، ٩٣ ، ١٣٢ ،
١٩٤ ، ٢٠٨ .
فرنسا : ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٥٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٦ ،
٨٥ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،
١١٥ ، ١١٩ ، ١٥٧ ، ٢٠٠ .
فلافيجني (دير) : ٤٦ .
فلسطين : ٨ ، ٩ ، ٣٩ ، ٨٥ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ١٠٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ،
٢٢٣ .
فولشر (أسقف شارتر) : ١٩ ، ٣٦ —
٤٤ ، ٤٧ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٩ ،
٩٠ — ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٠٧ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١٣٨ —
١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٥ .
فولك أنجو : ١٠٣ ، ١٤٤ .
فولكو : ٥٢ ، ٨٣ ، ٨٦ .
فريجيا : ٣٧ ، ٦٧ .
فيروز : ٥٨ ، ٨٤ .
قيثار : (أسقف) : ٢٢ .
فيكان : ٥٠ .
فيلهار دونين : ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٦٨ .
فيليب كونت الفلاندرز : ١١٦ ، ١١٧ ،
١٣٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ .
فيليب الجميل : ١٥٧ ، ١٥٩ .

(ق)

القاضي الفاضل : ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٩ .

عرقه (قلعة) : ٢٢ ، ٣٤ .
عز الدين فرخشاه : ٢١١ — ٢١٧ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ .
عز الدين مسعود (أمير الموصل) : ١٩٩ .
العزيز بن الظاهر الأيوبي : ٢٠١ ،
٢٠٢ .
عسقلان : ٣٦ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
٧٥ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ،
١٢٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ .
العسيلة : ٢١٩ .
العظيمي : ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
٢٠٦ ، ٢٠٧ .
عكا : ٦٢ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٤ ،
١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ٢٠٧ ،
٢٢٤ — ٢٢٦ ، ٢٣٩ .
علاء الدين فرخشاه : ٢٠٧ .
علي بن منقذ : ١٩٥ .
عماد الدين الأصفهاني : ١٩١ ، ٢٠٠ ،
٢٠٣ ، ٣٠٦ ، ٢١١ — ٢٣٤ ،
٢٣٦ — ٢٥٤ .
عماد الدين زنكي بن مودود : ٢١٩ ، ٢٢٣ ،
٢٢٩ ، ٢٥٤ .
عمر بن الحاجب : ١٩٠ .
عمر بن الخطاب : ١٧٧ .
عيسى الهكاري (الفيهي) : ٢٠٩ ، ٢٥٢ ،
٢٥٣ .
عين تاب : ٢١٧ .
العيني : ١٩٤ .

(غ)

الغزنوي (محمود) : ١٨٨ .

(ف)

الفاطميون : ١٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ .
فخر الدين (مسعود الزعفراني) : ٢١٥ .

- جال الدين الشهرزوري : ١٩٠ ، ٢٣٧ ،
 . ٢٣٨
 كشتكين (سمد الدين) : ٢١٠ .
 الكندي (محمد بن يوسف) : ١٨٧ .
 كتراد الثالث : ١٣١ .
 كنيسة القيامة : ٤١ ، ٦٨ ، ١٠٤ .
 كوريل : ١٥٨ .
 كورفي (دير) : ٦٠ .
 كوكب (قلعة) : ٢٠٠ ، ٢٠١ .
 كوكبوري : انظر مظفر الدين .
 كوندر : ١٩٨ ، ٢٠٢ .
 كيفا (حصن) : ٢١٤ ، ٢٤٥ .

(ل)

- اللاتران (مجمع) : ١١٨ ، ١٢٥ .
 اللاذقية : ٤٨ ، ٧٣ ، ٩٠ .
 لانجو بارديا : ٣٠ .
 المبارديون : ٣٠ .
 اللورين : ١٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٦ .
 لوزجان (هيجو) : ٤٥ .
 لويس (ملك نافار وشامانيا) : ١٥٩ .
 لويس السابع : ١١٩ ، ١٣١ .
 لويس التاسع (القديس لويس) : ١٥٣ —
 . ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ .
 لي بوييه (أسقف) : ٢٢ .
 ليدن : ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٤٢ .
 لين بول (ستانلي) : ٢٠٣ ، ٢٤٢ .

(م)

- مابيون : ٢٨ .
 ماتيو باريس : ١٤٨ — ١٥١ .
 مارددين : ٢٤٧ .

- ٢٤٢ — ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ .
 قبادوقيا : ١٦ .
 قبرص : ١٤٧ .
 قرقيسيا : ١٤٧ .
 قرمابة : ١٨٧ ، ١٩٨ .
 القرطبي (ابن حيان) : ١٨٤ .
 القسطنطينية : ١٥ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٣١ ،
 ٣٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٠٩ ،
 ١١٥ — ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،
 . ١٦٢
 قطب الدين خسرو الهذلي : ٢٣٠ .
 قطب الدين ينال : ٢١٥ .
 قنج أرسلان : ١٦ ، ٢٤ ، ٧٢ ، ٢١٢ .
 القمص (صاحب طرابلس) : ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
 قونية : ٧٢ ، ٧٥ ، ٢١٢ .
 قيسارية : ٨٨ ، ٩٠ .
 قليقية : ٧٥ .

(ك)

- كارلو لاندبرج : ٢٤٢ .
 كاليكستوس الثاني (البابا) : ٥٣ ، ٥٤ .
 كامبانيا : ١٠٢ .
 الكامل (السلطان الملك) : ٢٠٢ .
 كراتشكوفسكي : ١٩٧ .
 كربوغا : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٣ .
 السكرك : ١٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .
 كفر طاب : ٥٤ .
 السكبي (محمد بن السائب) : ١٧٩ ،
 . ١٨٠

- كلوني (دير) : ١٦٢ ، ١٦٦ .
 كليرمونت (مجمع) : ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 . ١١٢

- مطلية : ٢٠٧ .
- ملكشاه : ٢٤٠ .
- مناسيس (رئيس أساقفة ريمس) : ١٧ ، ٥٤ ، ٤٨ ، ٤٧ .
- المنصور (الخليفة العباسي) : ١٧٨ .
- المنصورة (معركة) : ١٦٠ ، ١٧١ .
- مودود (أمير الموصل) : ٧٥ .
- موريس (الكاردينال) : ٨٨ ، ٩٠ .
- الموصل : ٢٩ ، ٧٢ ، ١٩٨ — ٢٠٨ ، ٢١٣ — ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ .
- ٢٥٣ — ٢٥٨ .
- ميلون دى بلانس : ١١٣ — ١١٥ .

(ن)

- نابلس : ٢١١ .
- الناصح بن العميد : ٢٢٨ .
- الناصر لدين الله (الخليفة) : ١٩٩ ، ٢١٦ ، ٢٢١ .
- ناصر الدين محمد بن شيركوه : ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٨ .
- الناصرة : ١١٥ .
- ناغار (ملك) : ١٥٤ — ١٥٨ .
- نجم الدين أيوب : ٢٣٨ .
- نصر الله (ضياء الدين أبو الفتح) : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- نصيين : ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ .
- نوجنت (دير) : ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .
- نور الدين : ١١٥ ، ١٥٢ ، ١٨٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٧ .
- ٢٣٠ — ٢٣٣ ، ٢٣٦ — ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٩ .
- نورالدين محمد (بن قرا أرسلان) : ٢١٤ .
- نيقرز (الكونت) : ٧٤ ، ٧٥ .

- مانويل (الأمبراطور البيزنطي) : ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٣٤ .
- مانيتيوس : ١٤٠ ، ١٤١ .
- المبارك بن محمد (مجد الدين أبو السعادات) : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
- متى الرهاوي : ٣٩ .
- محي الدين الشهرزوري : ٢٢١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
- محي الدين بن كمال الدين (القاضي) : ١٩٩ .
- المدائني : ١٧٩ .
- المدينة (المنورة) : ١٨٢ ، ١٨٣ .
- مريج العيون : ٢١١ .
- مرجريت (زوجة لويس التاسع) : ١٥٥ ، ١٦٧ .
- مرسيلىا : ١٥٥ .
- مرعش : ٣٨ ، ٧٤ .
- مرهف بن أسامة : ١٩٥ ، ١٩٦ .
- المسيحي (عبد الله بن أحمد) : ١٨٤ .
- مسعود (صاحب الموصل) : ٢٠٠ ، ٢٠٥ .
- المسعودي : ١٨١ .
- مسكويه : ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٨ .
- مظفر الدين (كوكبوري) : ٢١٣ — ٢١٥ .
- معاوية : ١٧٨ .
- الممرة (معرة النعمان) : ٢٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .
- المغرب : ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٦ ، ٢٤٠ .
- المنول : ١٨٨ .
- المفتي لأمر الله : ٢٣٨ .
- المقرئى : ١٩١ .
- مكة : ١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢٣٧ .

وليم بوريه : ١٣٨ .
 وليم الصوري : ٨ ، ٩ ، ٣٤ ، ٥١ ،
 ٥٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ،
 — ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ —
 ١٥٢ ، ٢١١ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
 . ٢٥٩

وليم الطرابلسي : ١٢٥ .
 وليم مونتفرات : ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٣ ،
 . ١٢٤
 وليم نانجز : ١٧٢ .
 ويلز : ١٥٩ .

(ي)

ياغى سيان (والى انطاكية) : ٢٩ ، ٧٢ ،
 . ٧٨
 يافا : ٤١ ، ٨٨ — ٩١ ، ١٦٧ ،
 ياقوت الحجوى : ١٨٧ ، ١٩١ ، ٢٣٥ ،
 . ٢٣٦
 يحيى بن هبيرة : ٢٢٧ ، ٢٣٨ ،
 يرح (أمير الرها) : ٨٩ .
 يوستاس (البولوني) : ٢٠ — ٧٠ .
 يوستاس جرتيه : ١٣٨ .
 اليعقوبى : ١٨١ .
 اليمن : ١٧٧ ، ١٨٢ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ .
 اليونان (اليونانيون) : ٧ ، ١٤ ، ٣٨ ،
 . ٤٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٨٠ .

نقوميدا : ٧٤ ، ٧٥ .
 نقيه : ١٣ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٨ ،
 ٥١ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ،
 . ١٣٣
 النيل (نهر) : ١٣٣ ، ١٧١ ، ٢٣٠ .

(هـ)

هادريان الرابع (البابا) : ١٠١ ، ١٠٢ ،
 . ١١٨
 هارون الرشيد : ١٤٢ .
 هاليس (نهر) : ٧٤ .
 هراة : ١٨٢ .
 همدان : ١٨٢ .
 الهند : ١٧٩ ، ١٨٨ .
 هنرى (ايرل لانكستر) : ١٥٩ .
 هنرى الأول : ١٠١ .
 هنرى الثالث (ملك إنجلترا) : ١٥٩ ،
 . ١٦٨
 هونوريوس الثانى (البابا) : ٥١ .
 هيودين (الراهب) : ١٧٠ .

(و)

وادي بنى حصين : ٢٢٨ .
 واسط : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
 الواقدى : ١٧٩ .
 وليم البانى : ١٦٣ .
 وليم بواتو : ٤٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٩ ،
 . ٩٢ ، ٩١

المصادر والمراجع

أولا - المصادر والمراجع العربية

- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . نشر Tornberg ، ليدن ١٨٦٧ .
 - (٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .
 - (٣) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة ١٩٠٣ .
 - (٤) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، مطبعة وادى النيل بالقاهرة ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ هـ .
 - (٥) السبكي : طبقات الشافعية ، القاهرة ١٣٢٤ (ج ٤) .
 - (٦) السخاوى : الإعلان بالتويع لمن ذم التاريخ . القدس ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .
 - (٧) العبادى : علم التاريخ . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ .
 - (٨) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين . القاهرة ١٩٦٠ .
 - (٩) العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر . نشر أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٧٠ (١٩٥١) .
 - (١٠) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج ١ ، سنة ١٩٣٤ .
 - (١١) إنجيل متى ، وقرص ، ولوقا .
 - (١٢) باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ .
 - (١٣) حبشى : أعمال الفرنجة ، القاهرة ١٩٥٩ .
 - (١٤) حسّان ، نظير : خمسة من معاصرى صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧ .
 - (١٥) دائرة المعارف الإسلامية :
- مادة : الأزرقى ، ابن عبد الحكم ، ابن طيفور ، ابن مسكويه ، الخطيب البغدادي ، ابن عساكر ، ابن القلانسي ، ابن شداد ، ابن الأثير ، علم التاريخ .

- (١٦) غربال ، محمد شفيق : أساليب كتابة التاريخ عند العرب . مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الرابع عشر ، سنة ١٩٦٢ .
- (١٧) مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب . ترجمة الدكتور حسين نصار ، بيروت ١٩٦١ .
- (١٨) ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) - نشر مرجليوث .

ثانياً : المصادر والمراجع الأوربية

1. Bedier J. & P. Hazard :
Histoire de la littérature française illustrée.
Paris 1923 vol. I.
2. Bongars :
Gesta Dei per Francos sive orientalium expeditionum et regni Francorum hierosolimitani historia.
I. II. Hanau 1611.
3. Brockelmann C. :
Geschichte der Arabischen Litteratur.
Berlin 1898—1905.
4. Byrne :
Genoese Trade with Syria, American Historical Review. XXX(1919—1920).
5. Cahen C. :
— La Syrie du Nord à l'Epoque des Croissades.
Paris 1940.
— Mouvements Populaires. Leyden 1959.
6. Deherain, H. .
Les Origines du Recueil des Historiens des Croissades. Journal des Savants. Sept. Oct. 1919.
7. Derenbourg, H. :
La Vie d'Ousama. Paris 1883, 1893.
8. Gibb. H. A. R. :
— The Arabic Sources for the Life of Saladin.
Speculum 23 (1950).

— Al-Barq al-Shami.

The History of Saladin - Imad ad-Din Al-Isfahani
(Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgen-
landes. 52 (1953).

— Damascus Chronicle of Crusades. London 1932.

9. Grousset, R. :

Histoire des Croissades, 3 vols. Paris 1934.

10. Histoire Anonyme de la Première Croissades. ed. &
Trans. Louis Brehier. Paris 1924.

11. Hitti :

An Arab Syrian Gentleman and Warrior in the
Period of Crusades. New-York 1929.

12. Houtsma :

Textes relatifs à L'Histoire des Seldjoucides.
Leyden 1888.

13. Joinville :

— Histoire de Saint Louis ed. Natalis de Wailly.
Paris 1883.

— History of Saint Louis. Trans. Evans.
Oxford 1938.

14. Krey, A. C. :

— The First Crusade. Glouster Mass. 1958.

— The Making of an Historian in the Middle
Ages. Speculum, XV (1941).

15. Landberg, Carlo :

Imad ed-Din el-Katib. Conquête de la Syrie et
de la Palestine. Leyden 1888.

16. Lane-Poole, Stanley :

Saladin, New-York 1898.

17. Manitius :
Geschichte der lateinische Literatur des Mittelalters. 2 vols. Munich 1911—1923.
18. Mas Latrie, L. :
Essai de classification des continuateurs de Guillaume de Tyr. Bibliothèque de L'École des Chartes, 5^e série. I. 1871.
19. Michaud :
— Bibliothèque des Croissades, 4 vols.
Paris 1829—1830.
— Histoire des Croissades. 3 vols. Paris 1812—1817.
20. Molinier :
Les Sources de L'Histoire de France. vols. II. III.
Paris 1901—1906.
21. Paetow, L. J. :
Guide to the Study of Medieval History.
New-York 1959.
22. Paris, G.
— Esquisse historique de littérature française au moyen âge. Paris 1907.
— La Littérature Française au moyen âge (XI—XIV^e. siècle). Paris 1914.
23. Pirutz, Hans :
Studien über Wilhelm von Tyrus. Neues Archiv VIII (1882).
24. Rashdall :
The Universities of Europe in the Middle Ages.
Oxford 1936.
25. Recueil des Historiens des Croissades.
Paris 1841—1906.

26. Riant, P. :
Inventaire sommaire des manuscrits de L'Eracles.
Archives de L'Orient Latin I (1881).
27. Runciman, Steven :
History of the Crusades, 3 vols.
Cambridge 1951—1954.
28. Sauvaget :
Bouhyat at-talab.
Revue des Etudes Historiques, 1933.
29. Sybel :
The History and Literature of the Crusades.
Trans. Duff Gordon. London 1861.
30. Wilken, F. :
Geschichte der Kreuzzüge nach Margenlandischen
und Abend landischen Berichten. Leipzig 1807 —
1832.
31. William of Tyre :
History of the Deeds Done Beyond the Sea-Trans.
Babcock and Krey. 2 vols Columbia University
Press 1943.